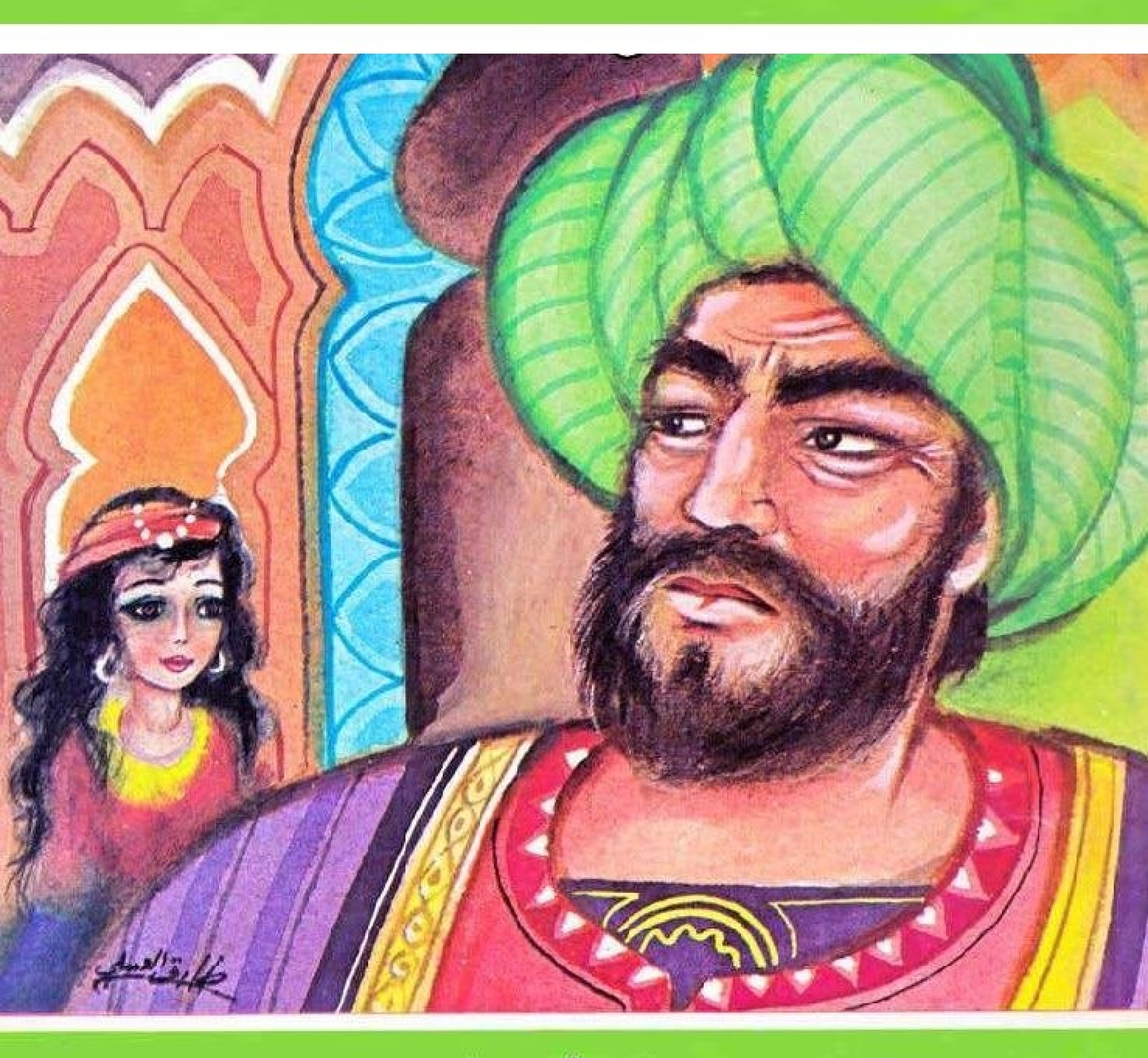
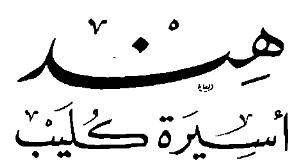
روايات تاريخ العرب والاسلام

اميل حبشي الأشقر

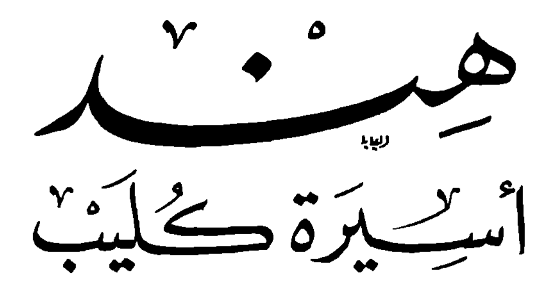
هِند
أسِيرة كُليب



دار الأندلس


هند
أسيرة كليب

أميل حبشي الأشقر



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

دار الأندلس - بيروت ، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

١

ـ احملوه ، احملوا امير النمر الى الخيام فالزهراء ستراه بعد ساعة ، واحملوا مسعود بن حارثة ومن حوله من الرجال وقولوا للجنود ان ينقلوا الذين اصابهم السيف ، الى خيام الجرحى .

قالها المثنى لمن حوله ، والكآبة تملأ نفسه ، ولولا عزته ومقامه ، لبكى قائديه الكبيرين ، كما تبكي النساء ، لقد أيقن في تلك الساعة ، ان الاثنين لا يعيشان غير بضع ساعات .

فلما حمل انس ، ضمّه اليه وقال للمنذر : كفّ عن البكاء يا بني فالجنود لا يبكون .

ثم تقدم القوم فضمّ مسعوداً الى صدره وكان من أحب الناس اليه وأقبل يساعد حامليه ثم يساعد حاملي انس حتى انتهوا الى الخيام .

وكان الجيش الراجع من الميدان يسأل عن قواده الجرحى والالم في القلوب ، والخبراء ، الذين كانوا يقومون مقام الاطباء ، يعالجون اولئك القواد ، وهم يرون ما يراه المثنى ان مسعوداً وابن هلال سيصرعهما الموت ، وبعد ان ضمدوا الجراح ، على ما يوحيه الطّب في ذلك الزمان ، سمع صوت أحد الحراس يقول :

تنحوّا ايها القوم فالجرحى يريدون ان يوصوا القائد العام .

فعل ذلك بأمر المثنى الذي رأى أن يخاطب سيد النمر ، ببعض شؤونه الخاصة ، قبل ان يفارق الحياة .

ودخل فتراجع كل من في الخيمة ، الا المنذر والزهراء ، وكبشة ، وعبد الله ابن الفهر وابا زبيد وولديه .

ولم يخطر لأحد من الرجال والفتيان ان يسأل عن هند ، فجلال الموت ورهبته ، اسكتا عواطف الصدور ، الا عاطفة اللوعة على ذلك الأسد الجريح الذي يتململ بين يدي القضاء .. حتى ان الزهراء وكبشة نسيتا هنداً !

وساد الصمت الرهيب في ذلك المضرب الذي يضطرب نوره كما تضطرب نفوس

اصحابه ، ولم يكن يسمع فيه غير البكاء .. والزفرات .
بلى .. كان يسمع فيه همس الموت !..
والعيون تنظر الى المثنى كأن الحياة بين شفتيه يهبها لانس بن هلال عندما يشاء.
وقد رأوه يرسل نظره الى الخارج كأنه يخشى ان يسمع احد من الجنود ، ما يريد ان يقوله ، ثم انحنى حتى لامس وجهه وجه انس وجعل يقول : قم يا انس فمثلك لا تصل اليه يد المنون .. ولكن المحتضر لم يجب .
فقال : اعطوني شيئاً من العسل الممزوج بالماء .
فأعطوه ، فجعل يسقيه ويداه ترتجفان وهو يناديه بأعذب الأسماء حتى صحا وفتح عينيه ، وغمرت وجهه ابتسامة هادئة هي ابتسامة الجبابرة العظماء ، ثم تاه نظره في فضاء الخيمة كما يتيه نظر المحموم وقد حبست الانفاس ، وخفقت القلوب .
فرفع المثنى صوته يناديه .. فانتفض ، وحوّل وجهه فأبصر القوم ، ثم رأى الزهراء فتفرّس فيها ملياً حتى استفاقت عاطفته وتنهد قائلا : ابنتي !..
فهمّت المسكينة بان تفتح ذراعيها لتضم ذلك الجسم المضرّج بالدماء .. ثم تجلدت كانها كرهت ان تزيد لوعة ابيها المائت وأجابته قائلة :
انك معافى يا ابي ان شاء الله ..
قال : ليعدني المنذر انه سيشرف قومه كما شرّفهم ابوه قبله وانا لا ابالي بالموت ، ادنُ يا بني ..
فجثا الأخوان عند رأسه وجعل المنذر يقول : الموت أضعف من ان يمحو ظلك من الوجود .
— وكيف يمحوه وأنت حي !.. اوصيك بالدفاع عن المظلوم اينما وجد ، والانتصار للاسلام الذي يرفع راية العرب وشأنهم بين الناس .
ثم قال : ابا زبيد وعبد الله .. انكما إذن ستحفظان عهدي ?
ووضع يديه الاثنتين على رأسي ولديه قائلاً : ليبارككما الله القادر على كل شي.
ثم أغمض عينيه وهو يحبس الدمع الذي جال فيهما ، فخاف المثنى ان تضيع

الفرصة من يديه فقال له :

أنا المثنى .. اريد ان تذكر لي كيف استطاعت سيوف الاعجام ان تصل اليك ؟ فثارت نفس الجريح .. وغلبت ثورتها حمّاه ، فقال :

وهل رأيت في هذا الجسم يا ابن حارثة ضربة سيف ؟ انهـا جراح الاسنّة أرسلوها اليّ من الجانبين ، ومن الوراء .. لا يجسرون على الدنو من الامام .. كانوا عشرة بل كانوا عشرين حتى خيّل اليّ وانا اكرُّ على الصفوف ان الفضاء ، من الخلف ، ومن اليمين والشمال كان رماحاً .. وعندما انثنيت ، لتقع العين على العين تفرقوا كما تتفرق جماعة الطير تنقضُّ عليها انثى العقاب .. وسكت قليلاً وهو يتنهد ثم قال : ولكني قتلت منهم اكثر من مئة وحسب ولدي شرفاً وعزّاً ان أباه دافع عن قومه العرب وقتل في سبيل العرب .

فهامس المثنى أبا زبيد وعبدالله قائلاً : أوثر ان يموت نصف الجيش ويبقى انس.

ثم خفض صوته قائلاً له : ألم ترَ بين وجوه القوم الذين أحاطوك بالاسنّة وجهاً تعرفه ؟

قال : رأيت وجوهاً متشابهة لم أرها من قبل . ماذا تعني بسؤالك ؟

قال : اريد ان اعلم ماذا جرى لكليب بن خالد .. بل أريد ان أتبين بين هذه الجراح آثار سنانه .. ويل للنذل الغدّار الذي استخف بي ..

فجعل يرسل الزفرات وهو يقول : لا تتهم كليباً يا ابن حارثة فهو بريء .

قال : كليب !! كليب بن خالد ..

– نعم كليب ابن أخي فلم يكن بين الوجوه وجه يشبه وجهه ، ولم أحس في الطعنات التي أصابت جسدي ، بطعنة من يد نمري !!

قال : وكيف يطعن بنو النمر يا أخي ؟

قال : اذا ارسل النمري رمحه ، أثبت سنانه بين العظم واللحم لا ينزعه حتى ينازع روح عدوه !!

فالتفت الى الناس قائلاً : أسمعتم ابن هلال يصف قومه وهو على فراش الموت ؟ اني لم أر بين صرعى الميادين رجلاً يفعل مثل هذا .. ثم قال : اخشى

ان تدفعك المروءة يا أنس الى حفظ حياة قاتلك ..

قال: اقسم لك بالله الذي سيأخذ نفسي اني لم ارَ كليباً بين قاتليّ، ولم اسمع له صوتاً .. بلى رأيته قبل ان اغوص في اللجة يقاتل في صفوف بني خثعم .. واحمد الله على ان كليباً لم يكن قاتلَ عمه .. أسأل عنه عبدالله بن ذي السهمين .. اين هو عبدالله ..؟ فردد المثنى تلك الكلمة قائلاً : اين هو عبدالله ؟

فدعوه فأقبل ، فقال له : اين كليب يا ابن ذي السهمين ؟

فخيل الى الرجل ان كليباً هو القاتل ، فتردد قليلاً ثم قال : لقد عاهدت الامير على ان أمنع الفتى من الوصول الى انس في ساحة القتال ووفيت بما وعدت.

– وانت واثق بانه لم يترك صفه ؟

– أجل فاذا قال انس ان ابن أخيه هو الذي طعنه فدمي حلال ..

فمضغ الجريح المحتضر بعض الالفـــاظ ثم سمعوه يقول : صدقت يا عبدالله فالاسنة التي مزقت جسدي هي أسنة الفرس .

فقال المثنى : وهل رأيت كليباً بعد فرار القوم ؟

– لم ابال به بعد الفرار ايها الامير .. ولكني أظن انه على الشاطىء وقد لحق بالعدو وهو لا يلبث حتى يعود .

فذكر المنذر عندئذ هنداً .. فاضطرب .. ثم نظر الى جانبيه وقد أطلّ الحب من عينيه ، ممزوجاً بكآبة نفسه .. ثم همّ بأن يسأل عنها الزهراء .

ولكن الموت كان يحتضن اباه، في تلك الساعة، بذراعيه الحديديتين ، ويحمله ماشياً به بخطى واسعة ، الى الفناء .

أجل ، كانت نفس انس تصارع ذلك القضاء الجائر الذي تموت عنده الشفاعات ، وقد تلاشت قواه وأحسّ بتلك المخالب الرهيبة تنشب في صدره .

فلما ذكر المنذر خطيبته ، وأراد ان يسأل عنها اخته ، مدّ انس يديه الى الجانبين وجعل يقول والكلمات تخرج متقطعة ضعيفة من فمه : اسقوني فأنا أكاد احترق .

فسقته الزهراء ، ووضعت يدها اليمنى على جبينه ، وجعلت تمسح بيسراها

الدمع الغزير الذي عجزت عن اخماد ثورته .

ثم اضطربت تانك اليدان الممدودتان وجعل يهمّ بالكلام والالفاظ تقف في حلقه.ثم انتفض كأنه في ساحة حربٍ يقاتل الاعداء..وارسل صوتاً يشبه صوت الاسد يصيبه السهم في القلب.. ثم خنقت أصابع الموت، ذلك الصوت الى الابد، ومات انس بن هلال !..

فرفعت كبشة والزهراء صوتيهما بالبكاء ، وانحنى المنذر يقبّل رأس أبيه ، والدموع الصامتة تنحدر على خديه ، ووقف عبدالله وابو زبيد وولداه ينظرون الى ذلك الليث الصريع المكفن بدمه ، وقد نسوا في تلك الساعة انهم رجال سيف ..

أما المثنى فلم تجد عيناه بالدموع ، بل كان يتنهد كما يتنهد القائد الظافر يسقط حوله أركان حربه ، ولم يلبث حتى خرج من الخيمة ، لينقل الى قواد المسلمين ، خبر سقوط ذلك الجبار النمري ، ثم خرج بعده عبدالله بن الفهر وقال لرجال العشائر الثلاث : اندبوا سيد النمر العظيم فقد مات الآن .

فقام أحدهم فقال : ولكن اخفضوا أصواتكم في الندب فقد يسمعكم فارسي فيشمت ويشمت قومه ، وكان خبر الموت قد انتقل من عشيرة الى عشيرة حتى عرفه الجيش كله من أدناه الى أقصاه ، فساد الصمت الخيام حزناً على انس ، وكانت القلوب تخفق خوفاً على مسعود بن حارثة ، ورفاقه القواد المحتضرين ، وغصت خيمة الميت برجال الميدان، ووضع سيف انس ورمحه عن جانبيه ، وهما مخضبان بدماء الرجال .. والناس يدخلون ويخرجون لا يقول أحدهم كلمة ، لقد أخرس موت الامير الشجاع الالسنة،وخنقت الرهبة الاصوات في الصدور.

أجل ، لم يكن يسمع حول جثة انس غير همس الأنفاس ، وهمس الزفرات، وهنالك همس آخر هو همس الزهراء ترثي أباها البار .

كانت تخاطب روحه ، كانت تناديه وتناجيه ، وتفتح ذراعيها لتضم ذلك الرأس الذي رفعه الشرف والعز ثم لم يلبث حتى حطمته يد القضاء .

وكبشة والمنذر بالقرب منها وهما لا يكفكفان الدمع الذي يبلُّ الفراش .

ثم سمعوها تقول : نعم يا أبي ، لقد خاب الرجاء ، وضاع الدواء ، وستجيء هند وهي تحمل علاج المرأة الى جثتك الخرساء ..

ونظرت الى ما حولها كأنها تريد هنداً .

فقال ابو زبيد وقد ذكر ابنته : أين اختك يا زياد ؟

– قد تكون في خيام الجرحى وهي تجهل المصاب الذي نزل بنا الآن .

فقالت الزهراء ورأسها فوق رأس أبيها : بل هي تعلم ان ابي جريح وقد ذهبت لتحمل اليه الدواء ..

فقام فيأذهان القوم ان هنداً تعرف دواءً للجرحى وهي لاتلبث حتى تعود، ومرت طائفة منالليل وهي لم ترجع، فدبّ القلق والخوف في الصدور، وخاطب ابو زبيد ولده الاصغر ثانية قائلاً له : اختك يا زياد ..

فصحا المنذر عندئذ من غفلته ، بل قل صحا من حمّى الحزن التي نهشت قلبه وجعل يقول : أين هو موضع هذا الدواء حتى تغيب هند بضع ساعات ؟

وكان زياد يقول : قولوا لي أين ذهبت هند لألحق بها الآن .

فلم يسمع القوم جواباً ..

فقال المنذر لابنة عمه : قولي يا كبشة .. فرفعت رأسها قائلة : لا أعرف في أية ناحية من نواحي المعسكر ! انك تعرف هذا الموضع اكثر مما نعرفه نحن ..

– أنا ؟ – نعم فانت الذي أرسلتها اليه .

فأحسّ الفتى ان صاعقة اخرى انقضّت على رأسه. فجعل يجيل نظره بالقوم وهو لا يعلم ماذا يقول .

ورأت الزهراء مظاهر استغرابه فأحسّت بما أحسّ به وأيقنت عندئذ بأن في الامر ما فيه ، فقالت له وهي تغصّ بالدمع :

لقد أقبل عليَّ فتىّ طويل القامة يدعوني الى المثول بين يدي ابي الجريح ، ويسأل هنداً ان ترافقه الى ما وراء المعسكر لاحضارالدواء العجيب الذي يشفي الجراح .. – ولكن ما هو هذا الدواء الذي لم يذكره لنا أحد ؟

فترددت قليلاً في الجواب ثم قالت : ألم تأمر انت هذا الفتى بأن يقول ذلك لهند ؟ – لم آمر احداً بشيء ولم أسمع ان هنالك دواءً ...

فعرفت كبشة أن اثار أخيها في القضية . وان ذلك الفتى من اولئك الصعاليك الذين عاهدوه على الوفاء والطاعة طمعاً بالقليل من المال .

فجعلت تقول وشفتاها ترتجفان : ويل له فهذه آثاره . واندفعت تصف لهم عامراً وتعيد عليهم حكايته كما رواها للفتيات الثلاث حتى انتهت الى الكلمات التي قالها لهند ، باسم المنذر ، ورفعت صوتها عندئذ قائلة : اطلبوه.. اطلبوا كليباً أخي فيده في الأمر .

فصاح أبو زبيد وقد ضيّع الرشد .. اي والله هذه يده فويل له اذا سقطت شعرة من رأس هند ، ووثب الى الخارج ووراءه ولداه وعبدالله بن الفهر ، وركبوا المراسهم التي لم تغسل عنها الدماء وهم يقولون :

الى البر ، الى تلك الخيام الصغيرة التي تقوم وراء الجيش .

وكان زبيد يقول : لو رأيت الفتى بين الف من الفتيان لعرفته ، انه طويل القامة احمر الوجه ، وقد أوصيته حينما ذهب ليدعو الزهراء ، بان لا يقول لها ان اباها جريح !

وأبوه وزياد ساكتان ، ولكن النار كانت تضطرم في العيون ، وقلوب الاربعة كانت تخفق خوفاً كلما تصوروا ان يد كليب بن خالد امتدّت الى هند .

أما المنذر الذي حنت الضربة الثانية رأسه ، فقد استولى عليه الرعب واليأس ، وقام في ذهنه ، وهو في تلك الخيمة التي نشر فيها الموت جناحيه ، انه خسر هنداً الى الأبد ، كما خسر اباه .

ولولا كرامة ذلك القتيل الغالي ، لخرج مع القوم باحثاً عن تلك الفتاة ، التي لا يجد العزاء والرجاء ، الا في عينيها الصافيتين .

وقد وضع رأسه بين يديه ، مستسلماً الى يأسه ، ولولا زفراته ، وزفرات الفتاتين ، لحسب الناس انهم تماثيل صامتة ، جعلتها الايدي حول جثة الأمير الميت !

وانقضى الهزيع الثاني من الليل وأبو زبيد لم يرجع.. والحزن ينمو ، واللوعة تكبر . واليأس يشتد .

٢

لا يستطيع قائد الجيش ، خوض الميادين ، الا إذا كان كبيراً في صبره ، قوياً في محنته ، قاسياً في جميع مظاهره .

يبتسم للدم البريء يسفح حوله ، كما يبتسم المرء للغدير الصافي يجري ماؤه !! وينظر الى اشلاء الاجساد يبعثرها السيف كما ينظر الى الازاهير تنشرها الرياح الهوج في الجنة اليانعة .. وقد يدوس بنعليه ، جثة اخيه التي مزقتها الحراب ، وتطأ حوافر فرسه جثث قومه التي تملأ الساحة ، وهو أعمى اصم لا يرى ولا يسمع.

انه جبار في تلك العاطفة الغريبة التي جعلتها الحروب قطعة من الفولاذ...! انه غول يكرع في الدماء ولا يرتوي ، انه الليث الجائع يفترس عباد الله ولا يشبع ! يسكر ، اذا ظفر ، ويمشي الفناء في طلائع جيشه ، اذا بطر ، وينزل الموت الأحمر ، بصورته الرائعة ، في الموضع الذي يضع فيه قدميه .

وجنوده ؟! ان الجنود بين يديه ، قذائف من الحديد والنار ، يقذف بها الى السهول والجبال ، والبحار والانهار ، فتحمل الموت الى الشعب الآمن ، والدمار الى البلد المطمئن ، ولكن ، هذا الغول المنفّر الجائر ، الذي ينشب مخالبه الدامية في الاعناق ، هذا التيار الهائج الصخّاب ، الذي تطغى أمواجه على الارواح .. بشرٌ مثلك ايها القارئ ، له قلب ، وهو من لحم ودم .

حمل السيف ، والسيف يعلّم الجور ، فجار ، ونظر الى العلاء فمهّد بذلك السيف طريقه الى العلاء ، ثم ضاقت الارض والفضاء ، امام عقيدته وايمانه ، فمشى ، بالخطى الثابتة ، الى التوسع والفتح ، وهو في كل ذلك ، يبني الشهرة والمجد على ركام من الاجساد .

والويل له اذا استولى عليه الشعور ، واستوقفته العاطفة .. انه يسقط عندئذ من سمائه ، ويتدحرج عن عرشه ثم تمحو اسمه وذكره كفّ الزمان ..

هو يحس كما تحس انت ، ولكنه يخفي احساسه وراء مظاهر الجلد ، الذي هو عنوان القوة ، ويحجب دموعه التي يذرفها على اخيه الساقط في الساحة ، بحجاب

من الغلظة ، عليه طابع الاستخفاف بالحياة !!

هكذا كان المثنى بن حارثة ، دفعته الأقدار الى الميادين ، يبني فيها شهرته ، ويغذّي بها ايمـانه ، فغطت شدة الجندي ، لين المثنى ، وامّحت في مظهره ، صورة الاحساس البشري ، لتقوم مقامها صورة القيادة القاسية .

اجل ، كان قلب المثنى فياضاً بالشعور والعاطفة ، ولكنه كان مكرهاً على خنق شعوره ، ليجعل قوة احتماله وصبره ، درساً لمن حوله من جنود وقواد . والميـادين لا تتسع للعواطف والرثاء ... لقد مات انس بن هلال ، وسيموت مسعود بن حارثة وطائفة من الرجال ، كما ماتت طوائف كثيرة من قبل ، ولكن الحرب حرب ! والسيف لا تغمده الحادثات التي تنزل بالجيش كل يوم .

خرج المثنى فقال للقوم : تشتري العرب ظفرها بدماء ابطالها البررة .. لقد خسرنا الليلة ركناً من أركان الفتح .. مات انس ايها الرجال .

فسكت القوم ، وجعلت الأيدي تعبث بحمائل السيوف ..

ثم قـال : بقي مسعود وأركان حربه وسنخسرهم قبل ان يبزغ الفجر .. ولندمهم ليرى مسعوداً واخوانه ، ويسقيهم العسل الممزوج بالمـاء ، ويبتسم لهم ابتسامة الاعجاب والرضى قبل ان تنتزعهم يد الموت .

ولكنه لم يطق النظر ، من جديد ، الى اولئك الابطـال الذين يتململون بين يدي القضاء الرهيب .

لقد رأى مشاهد الصراع الهـائل ، بين القوة والضعف ، وسمع الحمّى تتكلم بلغاتها الرائعة .. فأطلت العاطفة من عينيه ، لحظة واحدة، ثم اختفت كما يختفي الظل ، ولم يلبث حتى تراجع والكآبة تتغلغل في أعماق نفسه .

وكان يقول لرجاله : لقد نسينا ، في هذا الليل ان نجلس للناس وننظر في أمر الحاجات ! اتبعوني الى المضرب ولتستسلم النساء الى البكاء .

فتبعوه وجلسوا فقال : يطيب لي الآن ، ان احدث ذلك الغلام التغلبي الذي قتل مهران ، اني لم أره في خيمة انس مع عبدالله بن الفهر .

فقالوا : قد يكون مع قومه . قال : احضروه الساعة .

فخرج احدهم ليدعوه ، ثم قال المثنى لقرط بن جماح :
خبرني يا ابن جماح كيف قتلت صاحب خيل الفرس ؟
قال : أبصرت الرجل ، وعليه لباس المرازبة، فخيل اليّ انه مهران ..
– ولكن فرس مهران كان احمر ضارباً الى الصفرة .
– وانا قد رأيت فرساً احمر ايهـا الامير ، فلما قتلت الرجل ، وجدت منه رائحة المسك فقلت مهران ، ورجوت ان يكون اياه فاذا هو شهربراز فوالله ما رأيته ، اذ لم يكن مهران شيئاً ..

قال : لقد قاتلت العرب والعجم في الجـاهلية والاسلام فوالله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشدّ عليّ من الف من العرب ، والمائة من العرب اليوم أشدّ عليّ من الف من العجم ، ان الله أذهب هيبتهم ووهن كيدهم فلا يروعنكم زهاء ترونه ولا سواد ولا قسيّ ولا نبال طوال فانهم اذا أعجلوا عنها او فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت . ثم قال لشبث بن ربعي : وانت ماذا فعلت ؟

قال : لما رأيت ركود الحرب قلت لقومي : تترسوا بالمجان فانهم شادون عليكم فاصبروا لشدتين وانا زعيم لكم بالظفر في الثالثة فأجـابوني والله فوفّـى الله كفالتي . – وانت يا ابن ذي السهمين ؟

قال: قلت لاصحابي: «اقتدوا برايتكم وليحمِ راجلـَكم خيلـُكم ثم احملوا فما لقول الله من خلف فانجز الله وعده وكان كما رجوت » .

فقال لعرفجة الأزدي : اما انت فقد بلغني بلاؤك فخبرني عنك .

قال : حزنا كتيبة منهم الى الفرات ورجوت ان يكون الله تعالى قد اذن في غرقهم وسلّى عنابها مصيبة الجسر ، فلما دخلوا في حـــد الاحراج كروا علينا فقاتلناهم قتـالاً شديداً حتى قال بعض قومي لو أخّرت رايتك ، فقلت : عليّ اقدامها وحملت بها على فارسهم فقتلته فولوا نحو الفرات فما بلغه منهم احد فيه روح.

وقال ربعي بن عامر بن خالد : احصي لك ايهـا الأمير مئة رجل من العرب قتل كل رجل منهم عشرة رجال من الفرس » !

فجعل يقول : أجل ، لقد كان هذا وانا قد رأيت بعض هؤلاء الرجال .

ثم اقبل الغلام التغلبي وهو لم يجاوز العشرين ، وليس في بردتيه شيء من الخيلاء . فقال المثنى : مرحباً بك يا بني ، اجلس .

فجلس ويسراه لا تفارق قبضة السيف، فقال الامير: صف لنا مقتل صاحبك.

قال : مهران ؟ — أجل .

فقال : لو أردت يا ابن حارثة لوصفت لك مقتل مئة رجل أصابهم من هذا السيف في غزوات تغلب ما أصاب مهران الفارسي .

قال : قتلت مئة رجل وأنت في هذه السن ؟ ! بارك الله فيك .. وكيف انتهيت الى قائد الفرس ؟

فأجابه وهو هادىء : لقد دلني عليه عبدالله ، وطلب رأسه ، قبل ان تثب الخيل فقلت والله لاحملنّ اليه هذا الرأس أو أخسر رأسي وجعلت أخترق الصفوف واحداً بعد واحد وانا اشعر بالاسنة تلامس وجهي حتى دنوت منه وجهاً لوجه فصحت: يا لتغلب، فو الله لم يلتفت اليّ حتى تناولت جبينه بسنان الرمح فأثبتُ السنان فيه ثم ثنيت بالسيف فقطعت رأسه وحملته ودمه يكتب للعرب ، على الارض ، سطور النصر .

فاستدناه وجعل يقبل رأسه ويقول : ولكنك لم تأخذ شيئا من سلاحه فقد جعلنا منطقته وسلاحه والسوارين لرؤساء قومك وهذه هي عادة العرب في الحرب! قال: ما حملت السيف لأغيّر عادات العرب واحتفظ بالاسلاب..

— ولأي غرض حملته إذن ؟

— لأشتري بدمي ودماء اخواني ، هذا المجد الذي تتقلب الفرس في أسبابه !

قال : اسمعوا كلامه ايها القواد واحفظوه .. ثم قال له : ولا تأخذ مالاً ؟

فابتسم بأنفة قائلاً : لقد كفى الله قومي ايها الامير فأنا لا اطمع بالمال .. وهل تجود بمالك على كل رجل يقتل رجلاً ؟

— بل نجود به على كل فتى يفعل مثل ما فعلت .

قال : حسبي ان الله يقوّي ساعدي لأضرب بهذا السيف رقاب الاعداء ..

قال : لقد خسرت العرب الليلة ساعداً مثل ساعدك .

– بل كان انس بن هلال اعظم مني شأناً وأبعد همة ولو كان في الجيش الف رجل مثل انس لبلغ الامير المدائن بعد شهر واستولى على عرش الفرس .

فتمتم قائلاً : سيكون هذا العرش للاسلام بعد حين ان شاء الله قل الآن ، هل لك رأي ؟ قال : سل ما تشاء ايها الامير .

قال : أترى ان نلحق بالفرس قبل ان يجتمع شملهم أم نمكث بالبويب ريثما يزحف الينا جند آخر ..؟ – بل نلحق بهم فلا يمكث الا الجبان ..

– ونفعل ذلك في هذا الليل .

قال : الليل يبلغ الرجال .. وتضيع الامال .. نصبر حتى يطلع الصباح .

فقال لرجاله : الا تظنون ان الفرس سينتهون بفرارهم الى السيب ؟

فقال جرير بن عبدالله : ليس لهم ملجأ سواه .

– اذن من يتبع القوم حتى ينتهي الى ذلك المكان ؟ – انا لها ايها الامير .

– وترضى بجيلة بذلك ؟ – نعم ، ولها في ذلك ربع الخمس .

قال : هذا وعد امير المؤمنين لا نعرض له . سنعطيك ما وعدك به ، فادعُ قومك واندبهم الساعة .

قال : انهم خارج هذه الخيمة فسأندبهم كما امرت .

وخرج جرير فقال : يا معشر بجيلة : انكم وجميع من شهد هـــذا اليوم ، في الفضيلة والبلاء سواء ولكن ليس لأحد منهم ، من الغنيمة ، مثل الذي لكم منها، ان لكم ربع خمسها فلا يكونن احد اسرع الى هذا العدو ولا أشد عليه منكم فانما تنتظرون احدى الحسنيين الشهادة والجنة ، او الغنيمة والجنة، فانظروا في امركم الآن وتهيأوا غداً للحاق بالفرس ، حتى تبلغوا الموضع الذي يقال له السيب »

فقالوا جميعهم : سنفعل ؛ وسنبيت الليلة على ظهور الخيل .

فأشرق جبين المثنى ، ثم حول وجهه الى الذين أرادوا ان يستقتلوا ، ستراً لفضيحة يوم الجسر ، وقال للمستبسل سيد بني عجل :

« واذهبوا انتم في آثار القــوم الى السيب ، وابلغوا من عدوكم ما تغيظونه به فهو خير لكم واعظم اجراً واستغفروا الله ان الله غفور رحيم » .

فقال القوم : الى السيب فسيمحو السيب عار الجسر ان شاء الله .
ثم قال المثنى للغلام التغلبي : وانت ماذا تصنع ؟
– اما انا فأمكث ما طاب المكث لك ولقومي ، وارحل يوم ترحلون .
قال : لقد خطر لنا ان نبعث بك مع الجماعة فيكون لك حصة .
قال : اذهب اذا ذهب سيد تغلب .
فقال لغلامه : تجد عبدالله بن الفهر في خيمة انس بن هلال فادعه اليّ .
فأجابه التغلبي قائلا : لقد ترك عبدالله خيمة انس . – الى اين ؟
– الى ما وراء المعسكر يسأل عن هند خطيبة المنذر .
فابتسم وقال : أضاعت حسناء طيء ؟!
– أجل ، وقد قيل انفتى طويل القامة سألها ان تتبعه الى الناحية الاخرى من الجيش ، ليعطيها دواء للجرح ، وهي لم ترجع الى الآن . – وأبو زبيد ؟
– مع ولديه وعبدالله يطلبون هنداً .
قال : ويلك أيخسر المنذر اباه وخطيبته في ليلة واحدة ، من خبّرك ذلك ؟
– خبرني عبدالله نفسه قبل ان يركب فرسه وكان يقول لبني تغلب : اذا وقعت العين على كليب بن خالد فاقبضوا عليه .

فوضع المثنى يده على رأسه وجعل يقول : اي والله، انه كليب بن خالد وقد فعلها تشفياً ؛ اذهب يا بني واحمل اليّ اخبار هند في كل ساعة ولا تنس ان تطلب كليباً ؛ وقال لمن حوله : ورأس امير المؤمنين ، لئن كان كليب بن خالد هو الفاعل لأجعلنه عبرة لكل عربي .

وأومأ بيده فانصرف القوم وبات يروح ويجيء في خيمته حتى انقضى معظم الليل والغلام التغلبي لم يرجع ولم يسمع خبراً جديداً عن هند .

وبينا هو يفكر في امره ، وقد كثرت خواطره ، وامتدت أحلامه حتى انتهت الى المدائن ، أقبل رجلان من بني عبد القيس يقولان : مات مسعود بن حارثة وثلاثة من الجرحى منذ ساعة . فأطرق ملياً ثم قال :
لا حول ولا قوة الا بالله والله انه ليهوّن عليّ وحدي ان شهدوا البويب

قدموا وصبروا ، ولم يجزعوا وان كان في الشهادة كفارة لتجوز الذنوب .

وصبر حتى تنفّس الصبح ، فخرج وصلى عليهم وعاد الى خيمته ليعالج كآبته .

ولم تكن غير ساعة ، حتى دخل عصمة بن عبدالله الضّبي فقال : لقد أصبنا غنماً ودقيقاً وبقراً تكفي الجيش كله شهراً كاملاً .

– واين كان ذلك كله ؟ – وراء الساحة التي عسكر فيها مهران .

قال : ابعثوا ببعضه الى نساء المسلمين اللواتي قدمن من المدينة مع أزواجهن وهن ينزلن بالقوادس والحيرة . – ومن يحمله اليهن ؟

وكان عمرو بن عبد المسيح ، بن بقيلة قد أقبل في تلك اللحظة ، فقال المثنى: يحمله ابن عبد المسيح ، ويحميه .

ثم دخل جرير والمستبسل فقالا : سنخرج في آثار القوم فأوصنا بما تشاء .

قال : لينطلق معكما في طلب الفرس ، كل جسري . وهو يعني كل رجل فر يوم الجسر .

فلم يبق جسري الا خرج في الخيل ، وقام المثنى ينظر الى ذلك الجيش الزاحف الى السيب والآمال تملأ صدره الرحب .

وكان القوم قد دفنوا مسعوداً وأعلام المسلمين الذين اختطفهم الموت ، ولم يسأ المنذر وبنو النمر ، ان يدفن انس ، الا بعد ان يعود ابو زبيد وعبدالله .

وقد استولت رهبة الموت في ذلك الصباح ، على فِرق الجيش ..

٣

مدّ الليل رواقه ، وسادت الوحشة والصمت ، شاطيء الفرات الشرقي من الشمال الى الجنوب .

فدبت قشعريرة الخوف في قلب هند ، وأحست وهي وراء عامر بن مذعور ، ان الفتى سيقذف بها الى هوة بعيدة الغور .

وكانت قد جاوزت خط القتال كله ، واحتجبت عن عينيها خيام الجيش .
فقالت للفتى وشفتاها ترتجفان : اين هي امك ؟
فمدّ يده الى الامام قائلاً : فيْ هذه الخيام التي سنصل اليها بعد لحظة .
– ولكني لا أرى خياماً ..
– بل ترين انواراً .. انظري .. انها قيد مئة ذراع .
وتعجلّ في مشيه وهو يقول: امشي يا هند فستحملين الحياة الى انس بن هلال الذي نزفت دماؤه .. هذه هي الخيام التي ذكرت .. انها خيام الفتيان الصعاليك الذين يلحقون بالجيش ليتذوقوا حلو العيش .. ولكنها لا تشبه خيام بني طيء .. هي اكواخ من القصب .. وجلود الغنم ، والصوف ..بينها خيمة امي التي جعلت سقفها القبة الزرقاء .
وقهقه بوقاحة ثم جعل يمد صوته في ضحكه كما يفعل السكران ..
وكانت تلك القهقهة علامة بينه وبين كليب .
فوقفت هند .. ثم نظرت الى ما حولها وقد هالها مظهر الفتى الغريب ، وخيّل اليها ان هنالك اشباحاً تروح وتجيء ، من الامام ، وعلى الجانبين .
فشعرت عندئذ بالخطر ، بل لمسته بيديها الاثنتين .. وأيقنت بأنها أمست في قبضة ذلك العربي الوقح الذي يضحك ضحك المجانين ..
ثم صاحت صيحة ذعر ، وارتجفت ركبتاها فكادت تسقط على الارض ..
لقد ذكرت في تلك الساعة كليباً ، وقام في ذهنها انه هو الذي اخترع حكاية الدواء ليدفعها الى ذلك الجانب الموحش ، لغاية له .
ولكن صيحتها ضاعت في الفرات .. وكادت تجنّ ، عندما سمعت من الناحية الاخرى، الناحية القريبة ، قهقهة مجنون آخر ، تحمل جميع معاني الاستبشار .. والاستخفاف . انها قهقهة كليب بن خالد نفسه .. لا زيادة ولا نقصان ..
فتراجعت المسكينة خطوتين ، وأرسلت صيحة اخرى تستعين بالنمر وطيء ثم همّت بأن تستغيث باهل ذلك الحي ..!! فامتدت اليها الأيدي الخفية وحملتها الى هودج ، على ناقة بيضاء ، زمامها بيد رجل على فرس له !

وأحاط بالناقة اربعة فتيان ، تدلُّ وجوههم على الشراسة المتغلغلة في الصدور، ثم سار القوم وصاحبة الهودج لا تقول كلمة بعد ذلك الصياح !!

فقال عامر : لقد سكتت سكوت الأموات ..

فأجابه الفارس صاحب الزمام : اتركوها فقد أغمي عليها من الخوف ..

وكان الصوت صوت كليب ..

٤

انتهى القوم في طوافهم ، الى الجانب الشمالي من المعسكر ، وهم يسألون عن هند ، وعن الفتى الطويل القامة ، الاحمر الوجه ، وكأنهم كانوا يسألون عن شيء لا وجود له . كان الناس يقولون : لم نرَ وجهاً للاثنين اللذين تذكرون .

والليل مضى نصفه ، وقد تعبوا من الطواف وملّوا السؤال .

وضاق صدر ابي زبيد وفضحت صبره الدموع .

فقال عبدالله بن الفهر : ان الظلام يخفي الأسرار ، فلنرجع الآن على ان نعود عند الصباح . فنتبين الوجوه ، وندخل هذه الخيام واحدة واحدة .

وجعل يستحلف ابا زبيد ان يرجع .

ولكن غلاماً يحمل بعض الاسلاب ، أقبل في تلك الساعة على القوم وهو يريد كوخه ، فاستوقفه زياد قائلاً : ماذا تحمل ايها الغلام ؟

— أحمل ما تراه ، رمحاً مكسوراً ، ودرعاً ضاعت حلقاتها الا القليل منها ، وثياباً مزقتها حوافر الخيل .. — ومن انت ؟

فابتسم وقال : من انا ؟!. أنا عليّ بن ابي طالب ! بل أنا عمر بن الخطاب امير المؤمنين !!.. أتسألني عن اسمي ايها الفتى وانا أكاد لا أعرف اسماً لي ؟ اني صعلوك من صعاليك العرب الذين يطوفون في ظلام الليل ، بين الجثث المهشمة في الميادين علهم يعثرون على عمامة او قلنسوة يبيعونها بدرهم!! — ومن هو أبوك؟

– اما ابي فلا أعرف من هو ، واما امي فقد ماتت وانا في الشهر الثامن .
– وعشيرتك ؟
– عشيرتي هؤلاء الصعاليك الذين غرسوا أكواخهم في هذه الناحية البعيدة عن الجيش ..   – اذن انت من سكان هذه الخيام .
– قل اني من سكان هذه القبور .
– أتعرف رجلاً من بني النمر يقال له كليب بن خالد ؟
– لم تسمع أذناي هذا الاسم من قبل .
قال : احذر فانت تتجاهل كل ما أسألك عنه كأنهم علموك ذلك من قبل .
قال : أقسم لك اني لا أعلم شيئاً مما تسأل ..
– وذلك الفتى الذي يرافق كليباً ؟   – من هو ؟
– قيل لنا انه من اهل هذا الحي ..   قال : صفه لي لأذكر لك اسمه .
قال : فتى طويل القامة ، برّاق العينين ، احمر الوجه ..
فخفض صوته قائلاً : عرفته والله هذا عدوي الذي يسلبني ما أحمله من الساحات .. انه فتى شرير قاس لا يرحم أحداً ولا يبالي بشيء .
فترجل القوم وأحاطوا بالغلام ليسمعوا حديثه.   فقال زياد: وماذا يدعى؟
فندم على كلمته ، وتردد قليلاً في الجواب ثم قال :
اخشى ان أعترف لك باسمه فيكلفني اعترافي ما لا طاقة لي به .
قال اتخافه ؟   – اي والله اخافه فهو لا يخاطب القوم الا والخنجر في يده!
قال : أعدك اني لا ابوح لأحد بما تقوله لي .
– ويعدني هؤلاء الثلاثة بمثل ما تعدني انت ؟
فقال عبدالله : قل ما تشاء فليس فينا من يفضح الأسرار .
فنظر الى زياد كأنه مذعور لا يستأنس بسواه وقال : اسمه عامر بن مذعور.
– وهل رأيته الليلة ؟
– رأيته عند الصباح قبل ان تتلاحم الصفوف وخيّل اليّ انه يحادث فتى آخر اسمر الوجه يلمع الشر في عينيه .   – واين كان ذلك ؟

ـ في الجهة التي تقابل نهر بني سليم . فقال زبيد : هذا والله كليب بن خالد !
ـ لا أعرف من هو ، ولم أجسر على الدنو من عامر خوفاً من ان يظن بي الظنون.
قال : بقي ان تدلنا على الكوخ الذي يلجأ اليه .
ـ ادلكم وانا بعيد عنه ثم تبتلعني الأرض ..
قال : وهل له أهل يقيمون بكوخه ؟
ـ ليس له غير أم عجوز هي شرُّ النساء .
فتمتم القوم يقولون : قتلها الله انها صاحبة الدواء ..
ثم قال زياد : الكوخ .. الكوخ .

فقادوا افراسهم ، والايدي على السيوف ، وتقدمهم الغلام الى ساحة تجاور الأكواخ وأومأ بيده الى موضع قريب قائلاً : هذا كوخ الفتى وسترون بالقرب منه ناقة لأمه ، وهمّ بالانصراف والخوف يملأ قلبه .

فمدّ زياد يده قائلاً : استعن بهذه على قضاء الحاجات .

وناوله ديناراً من دنانير كسرى ، ثم قال : قد نجد كوخاً آخر تقوم النوق حوله ، فنضيع ..

فضحك وقال : ليس في حي الصعاليك من النوق غير ناقة ام عامر التي ذكرتها الآن . ـ ومن جاد بها على المرأة ؟
ـ لقد هبطت هذه الناقة من السماء ..

وجعل يلمس الدينار ويقول : لقد مرّت حياتي كلها وانا لم أرَ واحداً مثل هذا فمن أنت بارك الله فيك ؟ قال : أتثق بي لأقول لك من انا ؟
ـ بل أهب لك حياتي منذ الآن .
ـ إذن فامشِ أمامنا الى كوخ صاحبك ونحن نحميك . نحن بنو طيء .

فرمى الغلام بأسلابه ومشى ، وهو يقول : لقد أكل جميع صعاليك الحي من طعام بني طيء . وكان الدينار قد جعله بطلاً .

ولم تمر لحظة ، حتى وقف القوم عند الناقة التي كان جسمها جداراً لذلك الكوخ ، واذا العجوز بالقرب منها ، وهي تغط غطيط النائم المطمئن .

٥

عرف عبدالله بن الفهر أن الناقة من نوق بني النمر، بل عرفانها من نوق كليب ابن خالد ، فقال لأبي زبيد : لقد أصاب هذا الغلام ، فالناقة لكليب !

فمسح الوالد دموعه الصامتة ، وقبل ان يقول كلمة ، فتحت المرأة عينيها فأبصرت القوم ، فجعلت تنظر اليهم وقد عقد لسانها الخوف .

فقال الغلام : انهضي يا ام عامر فهؤلاء اشراف العرب ؟

فأجابته وهي لا تنظر اليه : متى تعلمت ايها اللعين ان تجالس الاشراف ؟!

وكانت قد عرفت صوته وقد بدأت تستعيد رباطة الجأش ..

فقال : لقد أمسيت منهم بفضل ولدك .. انهضي وأجيبي القوم .

وجلس عبدالله على الارض يتولى امر سؤالها فقال : أين عامر أيتها المرأة ؟

فجعلت تتفرس فيه ثم قالت : قل أولاً من انت ؟

– أنا أحد قواد الجيش الذي يحارب الفرس . – أين ولدك ؟

قالت : تعودت ان أرى وجه ولدي مرة كل شهر ، اني لا أعلم أين هو !

– وهذا الكوخ ؟!

– هو له ، وقد يأذن لي في الاقامة به ، يوم يغيب عن المعسكر .

قال : ألم يشترك اليوم في القتال ؟ – لا أعلم .

- ومتى غادر هذا الحي ؟ – لا أعلم . – ومن أعطاك هذه الناقة ؟

– تركها لي زوجي وهي كل ما بقي لي بعده !!

قال : ولكنها من نوق أحد العشائر النازلة في هذا المكان .

– بل هي لي ، وقد تكون العشيرة التي ذكرت ، عشيرة مذعور ..

قال : ما اسم عشيرته ؟ – ان لها اسماً غريباً لا أذكره الساعة .

– واذا أعطيتك درهمين ؟

– احتفظ بدراهمك للسائل المستعطي الذي يمدّ اليك يده ..!

فضاق صدر ابي زبيد ، فقال : لقد أوصوها بالكتمان فهي لا تقول شيئاً ..

احملوها الى المعسكر لينظر المثنى في الامر .

قالت : اذا فعلتم ملأت الحي والمعسكر صياحاً ..

قال : احذري ان تخرج من فمك كلمة واحدة ، وأومـــأ الى ولديه قائلاً : اجعلاها على هذه الناقة ولنرجع الآن، فحاولت ان تصيح ، فوضع زبيد يده على فمها وقال : اقسم برأس ابي، لئن ارتفع لك صوت لأقذفن بك الى الفرات .

فسكتت مكرهة وقد استولى عليها الذعر .

وكانت تقول في نفسها : سأعترف بكل شيء عندالصباح وليلحقوا بابن خالد اذا استطاعوا ! وأحاطت الخيل بالناقة، وهي على ظهرها ، وقد ساد السكوت.

* * *

عرف معظم الجيش ، بعد طلوع الصبح ، ان ابا زبيـد الطائي ضيّع ابنته ، فأقبلوا يسألون القوم ، ولكل واحد من رؤساء العشائر ، ظنٌ ورأي .

وكان المسلمون قد دفنوا مسعوداً ورفـــاقه كما قرأت ، وزحف المستبسل وجرير الى السيب ، في اثر الفرس .

والمنذر ؟.. أما المنذر فلم يكن يرى غير الغشاوة السوداء ، تحجب كل شيء عن عينيه ، اللتين جف فيهما الدمع ..

بلى .. كان يرى جثة أبيه المكفنة بدمه، وصورة هند التي اختطفتها الجنّ .

وكبشة والزهراء مستسلمتان الى النحيب والبكاء ...

فبينا القوم على ما رأيت ، دخل عبد انس يقول للمنذر :

لقد أقبل ابو زبيد يا مولاي . فرفع الفتى رأسه وقال : وهند ؟

— لم أرَ هنداً، بل رأيت امرأة عجوزاً على ناقة لها من نوق كليب ابن عمك.

فتنهد .. ثم أرسل نظره الى الخارج وقلبه يضطرب .

وفعلت الفتاتان مثله وهما لا تكفان عن البكاء ، حتى دخل القوم .

فقال المنذر لأبي زبيد : هل ضاعت آثار هند ؟

— نعم ، ولم يبقَ لنا غير الامل الضعيف تبعثه الى الصدر هـذه المرأة

العجوز ، الجالسة عند الباب . - وما هي حكايتها ؟
فقص عليه ما سمع ، وأرسل يسأل المثنى ان يجيء .
ثم اقبل المثنى فقال : ماذا صنعت يا أبا زبيد ؟
- لم أصنع شيئاً وأنا لا أعلم أية ارض طوت هنداً. - ومن هي هذه المرأة؟
- ام عامر بن مذعور الذي اخترع حكاية الدواء .
قال : لقد خبرني الغلام التغلبي هذه الحكاية ..
وجعل يردد : عامر بن مذعور .. !! عامر بن مذعور !! اني لا أعرف هذا الفتى ولم اسمع به . من هو رئيسه ؟
- لا عشيرة له فهو من الصعاليك وأعاد عليه ما رواه له الغلام ثم قال : وانا اسألك الآن ان تستخرج السر ، اذا شئت ، من صدر هذه المرأة .
وكان المنذر قد عاد الى ذهوله ، فقال له :
قم يا بني فقد كدت تنسى نفسك .. ان اباك قد مات الآن فافعل ما تفعله الرجال!.. فلا حيلة لك في رد الحياة إلى الاموات !.. قم وانظر في امر الفتاة التي جعلها ابوك خطيبة لك .
ثم رفع رأسه قائلاً : لقد كان انس بن هلال من ابطال العرب ، فلندفنه كما ندفن الاعلام من هذا الجيش، ولتكف النساء على البكاء فدموعهن تضعف عقيدة الرجال وتبعث الوهن الى الصدور .. احفروا لابن هلال قبراً عند قبر مسعود ، وليسق الفرات تراب هذه القبور ما بقي الفرات .. انهضوا لنحمل جثة البطل الذي كان مفخرة قومه .. وكان هذا الخطاب القصير أبلغ رثاء لزعيم النمر .
فنهض المنذر ، وتبعته كبشة والزهراء ، وتسابق القواد والامراء الى حمل النمري الجبار، الذي مزقت صدره أسنة الرماح ، وقبل ان يخرجوا من الخيمة ، دخلت ام زبيد وهي تقول : ويلي .. لقد مات انس ، واختطفوا هنداً ، وانا لا أعلم ؟! اين ابو زبيد ؟ اين هند يا ابا زبيد ؟.
فخنقت الرجل الدموع ولم يجب، وكان الناس قد خبّروا ام زبيد في تلك الساعة.
لقد باتت ليلتها والقوم يقولون لها : ان هنداً وفتاتي النمر يطفن في الميدان

لينقلن الجرحى الى الخيام، ولم يقل لها احد ان هنالك مصيبتين يتفطّر لهما القلب.
فقال المثنى : اما انس فسيرقد الآن على الشاطىء مع أعلام المسلمين الذين حصدهم السيف ؛ واما هند فسننظر في امرها بعد ان يضجع هذا البطل في قبره
قالها ولم يزد ، لانه لم يشأ ان يفضح جلده وصبره ، امام عاطفة الأم التي لا تعرف الجلد والصبر ؛ فقالت له : ابنتي يا ابن حارثة .
فارتجفت شفتاه قائلاً : سأعيدها اليك ولو جعلها كليب بن خالد فوق الغمام.
قالت : ويل الشقي كليب بن خالد .. أهو فعل ذلك ؟
– اجل وهذه ام الفتى الذي كان عوناً لـكليب .
وأومأ الى العجوز .. ثم خرج وراء الجثة التي يشيعها القوم بالدموع وكان يخاف وهو مطرق ، ان تفضحه عيناه .
حتى انتهوا الى الشاطىء ، فأنزلوا ذلك العربي البـــار الى حفرته، وأسدل الستار على الفصل الأول من الفاجعة المزدوجة !..
ولم يلبث القوم حتى عادوا ليسمعوا حكاية المرأة التي اختطف ولدها فتاة طيء.

٦

ـ كفّوا عن البكاء الآن فنحن في حرب ، واذا اراد احدكم ان يبكي، فليبكِ داخل الجدر .
قالها المثنى ، وهو يريد ان يضع حدّاً لمظاهر اللوعة التي تبدو على الوجوه .
وكان جالساً على الأرض عند خيمته ، ثم قال : احضروا ام عامر وناقتها .
فلما مثلت المرأة بين يديه، جعل يتفرس فيها كأنه يستطيع ان يقرأ اسرارها قبل ان تبوح هي بهذه الأسرار ، وكانت هي تنظر اليه بعينين تلمع فيهما الوقاحة والاستهزاء ..
لقد اضمحلّ ذلك الخوف الذي أحسّت به من قبل ، وقامت مقامه الشراهة

والطمع بالمال ، الذي سيبذله لها أهل هند !!

اجل فقد علّمها عامر قبل رحيله ان تعدّ الدنانير قبل ان تعترف للقوم بما فعله كليب ، وهي لم تنسَ وصيته الغالية .

على ان المثنى كان خبيراً بوسائل الاطلاع على ما في الصدور .

أمرها بالجلوس بين يديه ، ثم أومأ الى جندي ضخم الجسم ، بان يقف وراءها والسيف في يده ، كأنه جلاد ينتظر امر مولاه ، ليفصل الرأس عن الجسد .

ثم فاجأها بقوله : نبدأ الآن بأمر الناقة ، لمن هي ؟ — هي لي .

— ومن اعطاك اياها ؟ — ورثتها من مذعور .

قال : كان مذعور من صعاليك العرب والصعاليك لا يملكون نوقاً .

— ومع ذلك فقد استطاع ان يترك لزوجته هذه الناقة التي ترى .

قال: يزعم رجل من النمر انها له ، وان عامر سرقها من نوقه في الليل الماضي!

قالت : اين هو هذا الرجل الكاذب الذي يتهم الأبرياء ؟

فأشار الى رجل بين القوم قائلا : أهذه هي ناقتك ايها الرجل ! — نعم .

قال : خذها وانصرف ..

فأخذها الرجل ومشى بضع خطوات وهي تصيح قائلة : ناقتي .. لا تسلبوني كل ما املك ايها المسلمون !

ولكن المثنى أعاد كلمته وكان يقول : انصرف بالناقة الى حيث تشاء فهي لك ، وهي تولول وتستغيث والمثنى لا يسمع !

حتى اختنق صوتها ، فجعلت تلطم خدها وتندب ناقتها التي احتجبت وراء الخيام ثم قال وهو لا يبالي :

ويزعم رجل آخر من بني خثعم ان عامراً سرق ماله وانت تحتفظين ببعض هذا المال ، فكانت تقول : ردّوا اليّ ناقتي ايها المسلمون .

قال : سنفعل عندما تردين المال المسروق ، اين انت يا ام زبيد ؟ أدخليها الى هذه الخيمة وخذي مالها لنعيده الى صاحبه .

فأقبلت بعض النساء يدفعنها الى الداخل ثم لم يلبثن حتى سلبنها الدينارين

وطرحن بها عند قدمي المثنى .

والمرأة تشتم وتصيح، ثم استبدلت شتمها بالاستعطاف ، فقد رأت ان ثروتها ستتلاشى كما يتلاشى الظل !. وذلك القائد الحكيم لا يلين ، بل كان يقول : لم يبق الآن إلا ان نعمد الى الجزاء .. سيفك ايها الجندي !!

فجرد الرجل سيفه وهمّ بأن يضرب ، فجثت على ركبتيها تسأل المثنى ان يعفو وهي تبوح له بكل شيء .

فقال : نعفو اذا لم تعمدي الى الأكاذيب . من أعطاك هذين الدينارين ؟

ـ عامر ، وقد جاد عليه بهما فتى من فتيان هذا الجيش .

ـ واسم هذا الفتى ؟

فترددت في الجواب ثم قالت : أعطني ديناريّ لأذكر لك اسمه .

قال : اضرب ايها الرجل فهي تستحق الموت !!

قالت : لا لا .. لا تضرب !.. اذكر ان اسمه .. كليب بن خالد !

فخرجت من أفواه الرجال ألفاظ اللعنة .

ورفعت ام زبيد رأسها الى السماء كأنها تسألها القضاء على النمري الغادر .

أما كبشة فأرخت نظرها الى الارض ، وارتسمت على جبينها آثار الذل .. والعار ..!! واستطرد المثنى قائلاً : وهل تعرفين كليباً ؟

ـ رأيته مرتين .. امس ، ومنذ ليلتين . ـ ومتى جاد بناقته ؟

ـ يوم عرف عامراً .. أفتريد الآن ان تعيد اليّ ناقتي ؟

ـ سأنظر في ذلك بعد ان تنتهي حكايتك .. خبريني الآن ماذا جرى بين عامر وكليب .. قولي فالتردد يقذف بك الى الموت !

قالت : لقد تعاهد الاثنان على الوفاء. ـ وعلى ان يختطفا فتاة تدعى هنداً.

ـ اجل ، وقد بلغا الغاية التي ذكرت . ـ وكيف حدث ذلك ؟

ـ جعل الاثنان هنداً في هودج ورحلا امس ، وانا لا أعلم كيف استطاع عامر ان يخرج الفتاة من المعسكر . ـ اما هذا فقد عرفناه .. الى أين رحلا ؟

ـ الى موضع يجاور دجلة لم يذكراه لي . قال : لقد عدت الى الأكاذيب .

ـ بل اقسم لك اني أعيد عليك ما سمعت ولا غرض لي .

فالتفت الى القوم قائلاً : وماذا يصنع كليب في ضواحي دجلة والى من يلجأ فيها ؟ فقال عبدالله بن الفهر : أتراه يقدم على اختطاف هند ثم يقيم مع جنود العرب على هذا الشاطىء ؟ انه مكره على الفرار الى الناحية الاخرى ليكون بعيداً عن الجيش . ـ ولكنه سيمسي قريباً من المدائن !

ـ بل يقيم شرقي الحيرة بين العشائر النازلة هناك .

قال : ومن بقي من العشائر في ضواحي دجلة ؟ ـ بعض افخاذ بني تغلب .

ـ أم عشيرتك يا عبدالله ؟

ـ نعم فهؤلاء لم يندبهم أحد الى القتال ويظهر انهم آثروا الاستسلام الى الراحة والهدوء ، على النزول الى الميادين .

فقال ابو زبيد : لقد عرفت القوم ولي فيهم أنصار لبني طيء .

ـ وهل تظنون ان كليباً يلجأ الى هؤلاء ؟

فقال عبدالله : أعتقد انه سيفعل فليس على دجلة غير تغلب وبينهم وبين النمر صلة ولاء .

قال : أخشى ان يفر الى البادية ثم ينتقل منها الى الشام ، فيضيع في ذلك القطر الواسع الذي يغص اليوم بجنود العرب والروم .

ـ أتعني بادية الجزيرة ايها الأمير ؟

ـ أجل وقد يسير الى دومة الجندل ثم يلحق بقضاعة ومنها الى ارض غسان .

قال : لا أظنه يمر ببادية الجزيرة وفيها عنزة ، وهي تعرفه .

ـ اذن يتجه الى الجنوب الشرقي حيث تمتد بادية العراق ثم يذهب من هناك الى حيث يشاء .

قال : لا تنسَ أننا نحن بني تغلب نقيم بالبادية التي ذكرت ، فاذا جعلها كليب طريقاً له فسيترك لنا أثراً في كل بلد يمر به .

ففكّر قليلاً ثم قال: لتعد هذه المرأة الى حيها فقد انتهى أمرها الآن .

قالت : وناقتي ومالي ؟

قال : لقد وهبنا لك الحياة وهذا يكفي ، اذهبي والحقي بولدك الذي علمته وعلمه كليب ان يسرق النساء !؟

فحاولت ان تجيب فدفعها الجندي برمحه فخرجت من بين الخيام وهي ترثي ناقتها ودينارها باللعنات .. والدموع .

ولم يشأ المثنى الا ان ينظر بأمر هند الى النهاية ، فقد لمس بيديه يأس المنذر ولوعة بني طيء .

٧

ماذا ترى يا أبا زبيد ؟

ـ ليس لي غير رأي واحد هو ان أطوف في بلاد العرب والروم باحثاً عن هند حتى يظفرني الله بعدوي او أخسر حياتي !

فقال عبدالله : بل الرأي ان تبقى وأذهب أنا ، فالبلاد بلادي وانا أعلم من أمرها ما لا تعلمه انت .

فقال المثنى : هذا هو الرأي فابو زبيد لا يترك الجيش . ولكن عبدالله لا يذهب وحده بل يكون معه رفاق من قومه يعرفون هذه الارض .

قال : لقد اخترت هؤلاء الرفاق منذ ساعة . — من هم ؟

— المنذر وزبيد وزياد ، وثمانية رجال نصفهم من تغلب والنصف الآخر من النمر ، بينهم شيخان يعرفان البوادي وقبائل العربان .

قال : خير للمنذر ان يمكث حتى تعودوا ..

فأجابه المنذر قائلا : لو عرفت ايها الامير اني أؤثر الموت اليوم على البقاء في الجيش لما قلت كلمتك .. اني سأذهب غداً بل الليلة !

قال : طب نفساً يا بني فستعود خطيبتك اليك . فرفع رأسه وقال :

أقسم بتربة ابي الراقد على هذا الشاطىء ، انه لم يخطر لي ان أبحث عن

تطيبتي لأرضي فؤادي الذي يخفق على الحب ، بل خطر لي ان أبحث عن فتاة من بني طيء ، يقال لها هند ، تركت معسكر العرب في ظلام الليل ، مع فتى صعلوك لا تعرف من هو ، لتحملَ دواءً الى جريح بني النمر وسيدهم ، ثم هي لم ترجع !! اني أفعل ذلك لأرضي شرفي !! وأعيد الى ابي زبيد وزوجته ، تلك الفتاة التي لم تعبأ ، في سبيل المروءة ، بالاخطار التي تكتنف الميادين !

وسقطت دمعة على خده ، هي دمعة الشبل على الاسد الذي صُرع في مواقف العز .. فنظر اليه المثنى نظرة اعجاب وهو يقول :

افعل ما تشاء فليس في الجيش من ينسى فضل ابيك ، ولكن أترى يا عبدالله أنكم ستبلغون الشام ؟

– من يعلم فقد ينتهي طوافنا في أطراف بادية العراق ، عند الحفير ، او عند بني عمنا الآخرين ، في ضواحي دجلة .

قال : قد يصبح كليب بن خالد جاراً لأحدهم فيمنعكم من الوصول اليه .

قال : نسأله ان يردَّ الينا هنداً وليمنع جاره .

– ولكنه لا يفعل فالعربي النبيل لا ينكث عهده .

– اذا لم يفعل ، لجأنا الى امير آخر وسألناه ان يكون عوناً لنا على بلوغ الغاية . – اذن ستستعر نار الحرب في الناحية الاخرى !

قال : لا نشهر سيفاً الا اذا اذنت لنا في ذلك .

قال : هذا ما اريد ان اقوله لك ، فاذا كان لا بدَّ من الحرب ، فارسل الى المعسكر من ينقل اليَّ ذلك .

وكان ابو زبيد ساكتاً فقال له : سيعيد الله اليك ابنتك يا ابا زبيد .

قال : اني ضيّق الصدر وكنت أؤثر الذهاب على البقاء .

قال : لم يبقَ من سبيل الى ذهابك فقد انقضى الأمر الآن ، وقام فخرج ليجلس للناس في ذلك اليوم ، كما هي عادته .

اما القوم فمكثوا يتحدثون ، وكان الحديث مزيجاً من لوعتين : الحزن على البطل الذي صرعه القضاء ، ولوعة الحب بل لوعة الفراق ..

وكان زبيد يعزي الزهراء ، وزياد يعزي كبشة، ثم يهوّنان على والديهما الامر ويعدانهما بانقاذ هند من يدي ذلك اللعين .

والمنذر لا يعرف العزاء قلبه ، ولا ينظر الى الحياة الا من ناحية الشؤم ..

٨

أقبلت الخيل على القوادس ، ووراءها النوق التي تحمل نصيب النساء من المؤونة وقائدها عمر بن عبد المسيح ، بن بقيلة .

فلما رأت النساء الخيل ، تصايحن ، وحسبنها غارة .. ثم عمدن الى الحجارة والعمد ، يحمين بها أطفالهن !!

فقال عمرو : هكذا ينبغي ان تفعل نساء هذا الجيش .

وأرسل فبشرهنّ بالفتح .

ثم جعل على الخيل رجلاً يدعى النسير ، فأقام في خيله حاميةً لهنّ ، ورجع عمرو الى الحيرة فبات بها ، على أن يعود الى المعسكر ، بعد بضعة ايام .

ومرّت الايام والمسلمون لا يرون اثراً لجيوش الفرس .

كانوا يرون النعم فيأخذونها ثم يبعثون بها الى المثنى فيقسمها بينهم مؤثراً اهل البلاد من جميع القبائل ، على الآخرين .

وقد عاد جرير والمستبسل من السيب ، و قد أصابا من السبي والغنائم الشيء الكثير ..

فأعطى المثنى بجيلة يومئذ ، ربع الخمس، وبعث بما بقي الى امير المؤمنين .

وألقى الله الرعب في قلوب اهل فارس ، حتى اصبح الواحد منهم ، يخاف ، وهو في ارضه ، ان تقع عليه عين عربي ، وقد عرف المثنى ذلك ، ولمس بيده خوف الفرس ، بدليل هذه النعم التي ترد عليه ، من رجاله ، في كل يوم .

فلم يشأ ان يضيع الزمان، بل جعل يطوف معرجاله سواد العراق ، ويرسل

رجاله الى القرى القائمة بالضواحي يسلبون أهلها ما يطيب لهم سلبه ، من الاشياء والأموال ، بعث بجرير الى ميسان ، وبهلال بن علفة التيمي الى دست ميسان وأمر عصمة الضبي ، وعرفجة البارقي وغيرهما من قواد المسلمين ، بالنزول في الثغور ، التي تكثر فيها طوائف الفرس ، وطوائف الماشية ..

وبدأ هو فنزل بلداً صغيراً ، في ناحية الأنبار ، يقال له أليّس ، نزله غازياً –ويدعى هؤلاء الغزاة غزاة الانبار– وكان معه في تلك الغزوة رجلان ، واحد من الانبار ، والآخر من الحيرة يدلّه كل واحد منهما على سوق تجتمع فيه العرب.

دلّه الانباري على موضع يدعى الخنافس ، تفد اليه تجار المدائن والسواد ، والقوم على حراسته طوائف من قضاعة وربيعة ، ودله الحيري على سوق بغداد ، في موضع المدينة التي بناها المنصور ، فيما بعد. فقال لهما : اية سوق قبل الاخرى؟

قالا : بينهما ايام . – وايهما أعجل ؟

– الخنافس ، يأتيها التجار قبل أن يأتوا الاخرى ، وتجتمع فيها الوفود مرة كل سنة ومعها الاموال وهذه ايامها ؛ فإن أنت قدرت ان تغير عليهم وهم لا يشعرون، أصبت فيها مالاً يكون فيه غنى، ويستقوي به المسلمون زمانهم كله.

فركب المثنى قائلاً لقومه : الى الخنافس ! وزحف اليها فأتى القوم صبحاً وهم في السوق ، فانتهب ما فيها ؛ وقد دافع عن القوم رومانس بن وبرة سيد قضاعة، والسليل بن قيس سيد ربيعة، ولكن ذلك الدفاع انتهى بالفشل، ولم يستطع اهل السوق الا ان يعمدوا الى الفرار ؟ .

ثم رجع ليلاً الى الانبار فتحصن أهلها منه ، ولكنهم عندما عرفوه ، نزلوا اليه ، حاملين المؤونة والزاد وأتوه بالادلاء يسيرون في طليعة جيشه الى بغداد .

ولم يلبث حتى أغار ، والتوفيق يمشي في ركابه ، والحظ يبسم له الى ان كان بينه وبين موضع السوق خمسة فراسخ ، فقال لاصحابه : اقيموا واطعموا ، وتوضأوا وتهيأوا ، فقد تمر الساعات والرجل منا لا يستطيع ان ينزل عن ظهر فرسه ! ثم ارسل الطلائع فجسوا الناس ليسبق الجيش الاخبار ، فلما فرغوا مشى اليهم آخر الليل فصبحهم وهم غافلون ووضع فيهم السيف يقتل ويسلب ماطاب

له السلب والقتل ، ثم جعل يقول : لا تأخذوا الا الذهب والفضة ولا تحملوا من المتاع الا ما يقدر الرجل منكم على حمله !..

وهرب أهل السوق وملأ المسلمون أيديهم من المال ثم انثنى راجعاً حتى ينزل بنهر السيلمين بالانبار ؛ وكانت جراحه قد انتقضت من جديد وهو يتألم ويحمل من الاوجاع ما لا نطيق حمله الرجال، ومع ذلك فقد رآه الناس ضاحكاً والابتسامة لا تفارق شفتيه .

وقد أراد أن يستريح جيشه بالقرب من النهر فقال :

« أيها الناس ، انزلوا ، واقضوا اوطاركم، وتأهبوا للسير واحمدوا الله وسلوه العافية » . ففعلوا ، ولكنه سمعهم يتهامسون قائلين :

سيطلبنا أهل المدائن في هذا الليل. فقال: «تناجوا بالبر والتقوى ولا تتناجوا بالاوهام ؛ انظروا في الامور كما ينظر اهل الرشد ثم تكلموا بعد ذلك .. تقولون ان القوم سيطلبونكم في هذا الليل والنذير لم يبلغ مدينتهم بعد ، ولو بلغها لحال الرعب بينهم وبين طلبكم .. ان للغارات روعة ، ولو طلبتكم الفرس ما أدركتكم وانتم على الخيل العراب حتى تنتهوا الى المعسكر ، ولو أدركوكم ، لقاتلتهم لاثنتين : التماس الأجر ، ورجاء النصر ، فثقوا بالله ، واحسنوا به الظن فقد نصركم في مواطن كثيرة » .

وأقبل بهم، بعد يومين ، ومعهم أدلاؤهم يقطعون بهم الصحارى والانهارحتى انتهى بهم الى الموضع الذي خرجوا منه .

ولم يرد الا ان يجعل مال السواد ونعمه كلها في ايدي المسلمين ، فدفع الخيل الى جميع النواحي يغزو اصحابها كل بلد ، وكل بيت ، حتى استقام له الامر في المواضع التي يصل اليها سيفه ، واكتنفت جيشه من كل جانب بركات الله .

* * *

٩

بلغت اخبار ظفر المسلمين ، مدائن كسرى ، وكاد مقتل مهران ، يضيع رجاء الفرس .

المسلمون ، ينتقلون من نصر الى نصر ، ويثبون من قمة الى قمة !.. بل هم كالنسور يحلقون في هذا الجو ، ثم يسبحون في فضاء المجد ، الى الجو الاخر ، وأهل فارس ، واثقون بقوادهم ، ومستسلمون الى لذة الاحلام .

ورستم والفيرزان ، سيدا القوم ، نعم عيشهما وطاب ، وتمتعا بعظمة السلطان وأبهته يجران أذيال العز ، في ظل العرش ..

وكلما فشل جيشهما في ساحة القتال ، بعثا اليها جيشاً آخر ، لا يحمل الاثنان سيفاً ، ولا ينقلان الى الحرب قدماً !. وقد اكتفت بوران ، بنت كسرى ، بالتاج لعصب جبينها به ، وسلمت أمر الملك الى ذينك الرجلين اللذين يدفعان الجنود الى الميادين .

وكان في فارس رجال اخلاص ، يضنون بالعرش الفارسي العظيم ان يحطمه الفاتحون ، وبتاج كسرى ، الذي نشر هيبته في المشرق ، ان يسقط تحت الاقدام ، فتنادوا ، ثم دعوا عقلاء الامة وسادتها الى الدفاع عن الشرف ، ومشوا ، بعد ان تعاهدوا على الوفاء ، الى قصر بوران ، لينظروا في امر الدولة ، مع رستم والفيرزان ، وعهدوا الى رجلين ، بعيدي النفوذ والصوت ، في اختيار النهج الذي تمشى عليه فارس ، في حرب المسلمين .

فاستأذن الرجلان ودخلا القصر ، وهما يعلمان ان الامة وراءهما .. وطلبا ان يقابلا الوزيرين ، بل الملكين ..

فلما مثلا بين أيديهما قال احدهما : ننقل اليكما كلاماً باسم اهل فارس فهل تأذناني فيه ؟ فتولى رستم أمر الجواب فقال : نأذن !

قال : أتعرفان الى أي بلد وصل المسلمون ؟

فتجاهل الامر قائلا : لم يجاوزوا البويب ، وقد بسم لهم الحظ هذه المرة

فقتلوا مهران ولكن سيأتي يوم لا يبقى فيه ، في العراق مسلم .
قال: لقد تركوا البويب وطافوا في قرى السواد كلها ولم يبق بلد الا دخلوه .
فقال وهو يتمادى في تجاهله : ومن قال لك ذلك ؟
ـ تحدثت به الوفود التي لجأت الى المدائن .
ـ لم يذكر لنا أحد من قبل ما تذكره انت الآن !!
ـ وكيف تردد الأفواه أخبار الفشل الذي أصيب به الجيش الفارسي ،وسيد الفرس غافل في قصره لا يعلم شيئاً من هذا ؟!
ـ قد تكون هذه الاخبار أخباراً كاذبة ! ـ وبغداد ؟
ـ وما شأن بغداد ؟
ـ نهب المسلمون سوقها ، وأخذوا مالها ، واستولوا على كل شيء فيها !
ـ وهذا ايضاً لم نسمع به .
قال : والخنافس ، وتكريت ، وساباط ، وجميع البلاد التي حولها ألم تصل أخبارها الى هذا القصر ؟ ـ وهل فتحت تكريت وساباط ؟
ـ هكذا يقولون ولم يبق الا المدائن فقل لنا ايها القائد الى أي بلد نلجأ وأين نفرُّ من سيف الاسلام ؟
فتظاهر بالتفكير ثم قال : سننظر في الامر مع الملكة .
فابتسم الرجل ابتسامة الاستهزاء وجعل يقول : وأين هي هذه الملكة التي لا نرى لها وجهاً ؟
ـ انها في هذا القصر ، وهي تجلس للناس من وراء الحجاب !
قال : حسبت انها ليست موجودة فيه .. متى تسألها رأيها فيما سمعت ؟
ـ أفعل ذلك صباح غد . ـ ولماذا لا تفعله اليوم ؟
ـ لأنها لا تأذن لنا اليوم في ذلك .
ـ أما نحن فنريد ان تراها انت والفيرزان في هذه الساعة !
فاستغرب رستم هذه اللهجة يخاطبه بها فارسي ، فقال : أتعلم في أي مكان انت ؟ ـ أعلم اني في قصر الملكة ! ـ ومن هو الرجل الذي تحدثه ؟

– هو وزير الملكة بل هو صاحب الأمر في بلاد الفرس !

قال : تعرف هذا وتجترىء عليّ ؟

قال : والله لو كان كسرى حيّاً لخاطبته بمثل ما اخاطبك به ، ويلك يا رستم، لفرّق انت والفيرزان بين اهل فارس ، وتطمعان بهم عدوهم ، وتعرّضان امة الفرس للهلاك ، وتكرهان ان يرفع الفارسي صوته وانتما حاضران ؟! والله لولا ان في قتلكما هلاكنا لعجلنا لكما القتل الساعة ، ولئن لم تنتهيا لنبدأنّ بكما قبل ان يشمت بنا شامت ثم نهلك وقد اشتفينا منكما !

فحاول الفيرزان ان يجيب فأسكته قائلاً :

لا تقل كلمة ، فأهل فارس يحيطون بالبلاط وكلمة واحدة أقولها لهم تكفي ليقذفوا بكما وبالفتاة التي تدعى بوران ، الى ساحة القصر !

فرأى رستم ان اللين خير ما يلجأ اليه ، فقال : وماذا تريدان ؟

– نريد ملكاً من أبناء كسرى يعيد مجد الفرس !

قال : ليس في ذرية كسرى ولد ذكر ، فقد قتل شيشرى الذكور جميعهم حين جمع امهاتهم في القصر الأبيض .

قال : لتكتب بوران اسماء نساء كسرى وحظاياه ونساء آله !

– وما هي الغاية من ذلك ؟

– ان ندعو نساء كسرى ونسألهن عن أولادهن .. ادخلا الآن واحضرا الأسماء .

فدخلا ، ولم تتردد بوران في كتابة ما طلباه ، ثم خرجا ودفعا الاسماء الى المندوبين . فقالا : ارسلا في طلبهن ..

فلم يبقَ منهن امرأة الا أتوا بها ، فوضعوا عليهن العذاب يستدلونهنّ على ذكر من أبناء كسرى وهنّ يقلن ليس بين اولادهنَّ ولد ذكر ، حتى قامت احداهن فقالت : بقي غلام يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى .

فقال رستم : ومن هي امه ؟

قالت : انا . – وأين هو الغلام ؟ – عند أخواله .

فأرسلوا اليه فأقبل ، وهو في الحادية والعشرين من العمر .

وكان قد مرّ بضع ساعات والقوم حول القصر .

فلما جاء يزدجرد، أذن للناس فدخلوا،ثم قام رستم الداهية فجثا على ركبتيه عند قدمي الغلام قائلاً له : لقد أمسيت الآن يا مولاي ملك الفرس فالبس تاج كسرى .

وتناول التاج بيديه ووضعه على رأسه ، ثم قال : وهذا هو الصوجان الذي كان هذا الشرق يخضع لصاحبه .

وأقبل العلماء والأشراف يرفعونه الى العرش، ويتبارون في طاعته والخضوع له ، واطمأنت اهل فارس واستوثقوا ، وجعلوا يعدون عدتهم ويجمعون الجنود من جميع النواحي ، حتى ملأ جيشهم الكثير ، عاصمة الملك .

وتناقل الناس اخبار الحديث الجديد ، حتى انتهت الى المثنى والمسلمين وهم في ضواحي الانبار ، وقد بعد صوتهم ، ووفر مالهم ، كما مرّ .

١٠

كتب المثنى الى عمر بن الخطاب، يذكر له ما جرى في واقعة البويب وبعدها، ويقص عليه خبر جلوس يزدجرد على عرش الفرس .

وارسل اليه الكتاب يسأله رأيه .

فعل ذلك وهو يحس ان جواب امير المؤمنين لا ينتهي اليه وهو حي ! ان جراحه التي انقضت كانت داءً يذيب جسده ، وحراباً تمزق احشاءه .

ويظهر ان جلوس يزدجرد على العرش ، شدّ أزر أهل السواد وقوّى ايمانهم فقد خرجوا عن طاعة المسلمين واصبح من له عهد منهم كمن لا عهد له .

وبلغ ذلك المثنى والحمى تنهك قواه .

فرأى ان يصبر على الامر وينتقل بجيشه الى موضع آخر ينتظر فيه جواب امير المؤمنين .

واختـــار الموضع الذي يقال له ذو قار وهو وراء القادسية بين تنوخ واياد فأقام به يعالج جراحه ، ريثما يرد عليه كتاب الخليفة .

فلما وصل كتابه الى عمر رضي الله عنه قـــال : والله لأضربنّ ملوك العجم بملوك العرب ، وكتب الى عماله على القبائل : « لا تدعوا احداً له سلاح او فرس او نجدة او رأي الا انتخبتموه ثم وجهتموه الي .. العجل العجل!.. »

وكتب الى المثنى :

أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الفرس ، وتفرقوا في الميـاه التي تليهم على حدود ارضكم وارضهم ، ولا تدعوا في ربيعة ومضر وحلفائهم أحداً من اهل النجدات الا أحضرتموه فان جاء طائعاً والا أكرهتموه !.. احملوا العرب على الجد اذا جدّ العجم !..

ولم يدع هو لا رأساً ولا ذا رأي وشرف ، ولا خطيبـاً ولا شاعراً الا رمى الفرس به ، رماهم بوجوه النـاس وغررهم ، وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ثلاث عشرة ، وعمر خارج الى الحج .

فلما عاد ، أقبلت القبائل وفرسان العرب على المدينة يسألون اميرالمؤمنين ان يشرفهم بأمره ، وانضمّ من انضمّ منهم الى المثنى ، في ذي قـــار ، وشراف ، وغضّى ، حيال البصرة ، نازلين على ميـاه العراق من أولها الى آخرها ، فكانوا في ذلك سلسلة تقاربت حلقاتها ، ينظر بعضهم الى البعض الآخر ، وتغيث الطائفة منهم الطائفة الاخرى اذا قضت الحاجة بذلك .

وكان عمال عمر في تلك السنة ، نخبة من وجوه العرب ، يطيعون خليفتهم طاعة عمياء لا يسألونه عن غرضه ، ويوجهون اليه الخيل ، يقودهـــا الابطال المجربون ..

عامله على مكة : عتاب بن أسيد ، وعلى الطائف : عثمان بن ابي العاص ، وعلى اليمن: يعلى بن منية ، وعلى عمان واليمامة : حذيفة بن محصن ، وعلى البحرين: العلاء ابن الحضرمي ، وعلى الشام : ابو عبيدة بن الجراح : وعلى العراق وما فتح منه : المثنى بن حارثة .

فلما اجتمع النـــاس ، خرج الخليفة من المدينة ، في اليوم الأول من المحرّم ، سنة اربع عشرة ، واستخلف عليها علياً ، رضي الله عنه ، حتى نزل على مـاء يدعى صراراً ، والناس لا يعلمون ماذا يريد بخروجه ، أيسير الى العراق ام يقيم؟

وكانوا يلجأون الى عثمان بن عفان ، او الى عبد الرحمن بن عوف ، اذا أرادوا ان يسألوه عن شيء ، فقالوا لعثمان : ماذا يريد امير المؤمنين ؟

فسأله عثمان .. فنادى عمر : الصلاة جامعة .

فاجتمع الناس اليه فاستشارهم في المسير الى العراق ، فقال العامة :

سر وسر بنا معك .

فقال : استعدوا وأعدّوا فاني سائر، الا ان يجيء رأي هو أمثل مما رأيت .

ثم بعث الى اهل المشورة ، فأتاه وجوه اصحــاب النبي صلـّى الله عليه وسلم وأعلام العرب ، بينهم طلحة بن عبيدالله وكان قد جعــله على مقدمة جيشه ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكانا على الجنــاحين ، وعلي بن ابي طالب وقد استدعاه من المدينة فقال لهم : اني سائر الى العراق فماذا ترون ؟

فأجمع القوم على ان يبعث رجلاً من اصحاب الرسول،فان استقام له امر الفتح فهو الذي يريد ويريدون ، والا أعـــاد رجلاً وندب جنداً آخر وفي ذلك ما يغيظ العدو .

فقال : « ان الله عز وجل قد جمع على الاسلام أهـــله فألـّف بين القلوب وجعلهم فيه اخواناً وامرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي ، يا ايها الناس ، اني انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج الى العراق فقد رأيت ان أقيم وأبعث رجلاً فاختاروا انتم هذا الرجل .

وكان سعد بن ابي وقاص في نجد ، على صدقات هوازن .

وقد كتب اليه عمر ، يوم كتب الى عماله ، يأمره باختيار ذوي الشدة والبأس ممن له سلاح او فرس .

فورد جواب سعد، وعمر يستشير الناس، وهذا ما جاء فيه : « لقد انتخبت لك الف فارس كلهم ذوو نجدة ورأي ، وأصحاب حيطة يحفظون حريم قومهم

ويمنعون ذمارهم ، اليهم انتهت احسابهم ورأيهم فشأنك بهم » .

فلما قرأ عمر الكتاب ، قال : أوجدتم الرجل ؟

فقال عبد الرحمن بن عوف : أجل وجدناه يا أمير المؤمنين .

قال : من هو ؟

– هو سعد صاحب الكتاب الذي وصل الآن ، ففكر قليلاً ثم قال : وأنتم ماذا تقولون ايها الناس ؟ – خير الآراء رأي عبد الرحمن .

فانتهى عمر الى قولهم وأرسل الى سعد يستقدمه اليه فلم يلبث الرجل حتى ترك نجداً وأقبل على المدينة ، فقال له : لقد جعلناك قائداً لجيش العراق ، الأمر والنهي في يدك . قال : اني طائع .

– « ولكن يا سعد سعد بني وهيب ، لا يغرنك من الله ان قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحوالسيء بالحسن ان الله ليس بينه وبين احد نسب الا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ ، يلزمه منذ بعث الى ان فارقنا فالزمه فانه الامر . هذه عظتي اياك ان تركتها ورغبت عنها حط عملك وكنت من الخاسرين »

وكان سعد من بني زهرة بن كلاب وهم رهط آمنة ام النبي .

فهو « سعد بن مالك بن وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة بن كلاب وآمنة ام النبي بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب فيلتقي نسبه معها في عبد مناف ابن زهرة ، ويلتقي مع النبي في كلاب بن مرة » .

وهو رضي الله عنه من السابقين في الاسلام ومن أبطال العرب المجرّبين وهو أول من أراق دماً في سبيل الله ، وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله وأبلى في غزوة أحد بلاءً عظيما وقد توفي رسول الله وهو عنه راض ودعا له ، وشهد له بالجنة .

أوصى امير المؤمنين سعداً بهذا ، ومجلسه يغص بالصحابة والانصار وسعد يردد قوله ويعده بالخضوع لكل ما يأمره به ، ثم قال له عمر : تمكث بالمدينة

ثلاثة ايام، وترحل في اليوم الرابع ، فخرج سعد، ينظر في أمر جيشه ويعدعدته.

حتى انقضت الايام الثلاثة، والجيش قد تهيأ ولم يبق الان يأذن عمر في الرحيل.

فخرج عمر ، وقـــام يوصي سعداً مرة ثانية ، امام جيشه ونحن نلفت نظر القارىء الى وصيته قال :

« أجل، لقد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فانك تقدم على امر شديد كريه لا يخلص منه الا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به ؛ واعلم ان لكل عادة عتاداً فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على مـا أصابك او نابك يجتمع لك خشية الله! واعلم ان خشية الله تجتمع في امرين : في طاعته واجتناب معصيته ، وانما اطاعه من اطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئها الله انشاء منها السر ، ومنها العلانية؛ فاما العلانية فانيكون حامده وذامه في الحق سواء، واما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه وبمحبة الناس . فلا تزهد في التحبب فان النبيين قد سألوا محبتهم وان الله اذا احبّ عبداً حببه واذا ابغض عبداً بغّضه ، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى ، بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في امرك » .

ولم يشأ إلا ان يشيع جيشه الى موضع يقال له الأعوص ، ثم قام فيهم خطيباً يأمرهم بالعدل والزهد والطاعة للرؤساء ، وهذا بعض قوله :

« وأما الزهد فتأدية الحق الى كل احد له حق ، ولا تصانعوا في ذلك احداً واكتفوا بما يكفي من الكفاف فان من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء! اني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد فارجعوا الينا في كل امر » .

وأمرهم بالمسير ، فمشوا وهم واثقون بالظفر ، في ظل خليفتهم العظيم .

وكانوا ثمانية الاف جميعهم رجال بأس، وقد نزلوا في اول الشتاء موضعاً يقال له زرود ، وتفرقت الجنود حوله في مياه بني تميم واسد ، واقام سعد به ينتظر اجتماع الناس وأمر أمير المؤمنين .

* * *

١١

مكث سعد بزرود شهراً لا ينتقل منها والناس يفدون اليه من جميع النواحي وفرضهم الحرب .

وكان قد بث العيون وفرق الجنود كما مر ، واختار من بني تميم والرباب وأسد بضعة الاف رجل ،وأمرهم بالنزول ، بين « الحزن والبسيطة » اي بينه وبين المثنى بن حارثة .. فعل ذلك لتكون السهول والثغور في يده لا يصل اليه منها عدوه الفارسي .

فبينا الناس كذلك وسعد يرجو ان يقدم عليه المثنى أقبل رسول من ذي قار يستأذن على سعد . فأذن له وفاجأه بقوله : ما وراءك ايها الفتى ؟

فقال : لقد سقط ركن من أركان المسلمين . — ويلك من مات ؟

— مات المثنى بن حارثة !

فاهتز جسم سعد ، وجعل يتمتم قائلا : انا لله وانـّا اليه راجعون .. اي والله كان ركناً من اركان المسلمين !.. وكيف مات ؟

— كانت فيه جراح ، تنتقض ، ثم تبرأ ، ثم تنتقض حتى صرعته منذ بضعة ايام ، وكان يرغب في ان يراك قبل ان يموت .

— وهل أوصى؟ — أجل،أوصى اخاه المعنى بن حارثة بكلام ينقله اليك.

— ومن استخلف على الجيش ؟

— عهد الى بشير بن الخصاصية في القيادة والولاية ، ريثما ينضم جيش ذي قار الى جيش زرود . — ومن بقي مع بشير ؟

— وجوه اهل العراق من بكر بن وائـل وسائر ربيعة ، وطوائف من بجيلة وخثعم ، وقضاعة ، وطيء ، والنمر ، وغيرها من العشائر .

— وماذا سمعتم عن الفرس وملكهم الفتى ؟

— لم نسمع عنهم شيئاً الى الآن .. انهم في المدائن يتحفزون للوثوب ، وقد استبشروا بجلوس يزدجرد على العرش ، والتفوا حوله يسألونه ان يستعيد عظمة جده كسرى انو شروان .

ـ والعرب التي كانت خاضعة لكسرى ؟ ألم تزل خاضعة للفرس ام انضمت الى بني قومها الذين يدافعون عن الحرية والشرف ؟

قال : انك لتجد بين العرب طوائف تمشي وراء قبيصة بن اياس الطائي،عامل العجم على الحيرة ، وطوائف اخرى تماشي ذرية الملوك المناذرة .

ـ وهل حاربت هذه الطوائف المثنى تحت لواء الفرس ؟

ـ لا وانما كان يلحق بها الى الشواطىء والثغور فيقتل ويسبي ثم يفر منها من يفر الى بلاد قومه .. ولكن هذه الطوائف قليلة ايها الامير وليس فيها من يثبت في وجه الجيش العربي .

قال : سيشتركون في القتال مع أهل السواد الذين نكثوا العهد .

ـ وهل بلغك هذا ايها الامير ؟

ـ أجل فقد عرفت ذلك وأنا في المدينة يوم عرفه أمير المؤمنين .. ان اهل السواد كثار ، وهم رجال حرب على ما قيل لي .

ـ ولكن لا نظام لهم في حربهم ولا يمشون في صفوف الجيش وانا واثق بانهم سيخضعون لك ويعودون الى الطاعة يوم تغير على السواد .

ثم قال : متى تنتقل ايها الامير من زرود . قال : وماذا ترى انت ؟

ـ أرى ان تغادرها الى شراف فيكون الجيش أقرب الى جيش بشير بن الخصاصية ثم تسأل امير المؤمنين ان يمدك برأيه .

فدعا سعد في تلك اللحظة وجوه قومه وقال لهم :

أي الموضعين أقرب الى القبائل التي تجيء ؟ زرود أم شراف ؟

فقالوا : لقد اجتمع من اجتمع منها في زرود فخير لجيشك ان يمشي الى الامام.

قال : اذن الى الامام فاستعدوا .

وكتب الى عمر يخبره انه سيترك ذلك المكان في صباح اليوم الثاني ، ثم رحل عند الصباح ومشت طلائع الجيش في ذلك السهل وهي لا ترى فيه رجلاً واحداً من رجال الفرس . حتى انتهوا بعد بضعة ايام الى شراف ولم يمر يوم على وصول سعد اليها حتى أقبل الأشعث بن قيس على رأس الف وسبعمائة رجل من رجال

اليمن المغاوير ، الذين قضوا حياتهم كلها على ظهور الخيل .

ثم أقبل غيره من أبطـال العرب حتى أضحى جيش سعد ، بضعة وعشرين الفاً ما خلا جيش ذي قـار ، وكان قد مرّ على وجوده في شراف شهر آخر تهيأ فيه لكل شيء .

وبينـا هو ينتظر جواب امير المؤمنين وصل رسوله يحمل ذلك الجواب وقد ورد فيه :

اذا جاءك كتابي هذا فعشّر النـاس اي « اجعلهم عشرات » وعرّف عليهم اي «اجعل لهم رؤساء يدبرون امورهم» وأمّر على أجنادهم وواعدهم «القادسية» واضمم اليك المغيرة بن شعبة النـازل في الأبلة واكتب اليّ بالذي يستقر عليه أمر الرؤساء والقواد .

فنهض سعد يفعل ما أمره به الخليفة دون ان يتردد فيه ، بعث الى المغيرة بن شعبة فانضم اليه وكتب الى رؤساء القبائل والى جيش ذي قار يأمرهم بان يتعجلوا في المجيء الى شراف او الى القادسية مع كل من ينتمي اليهم من الرجال .

ولم يلبث حتى أمّر الامراء ، وعرّف العرفاء ، فجعل على كل عشرة رجال رجلاً وأمّر على الرايات أبطالاً لهم ماضيهم الابيض ومعرفتهم بالحرب ، وجعل على المقدمات والمجنبـات ، والساقة ، والطلائع ، اصحاب الشدة والبأس ، من جميع القبائل التي اجتمعت تحت رايته .

وهذه اسماء بعض الرجال اصحاب الشأن في جيشه :

جعل زهرة بن عبدالله بن قتادة اميراً للتعبية ، واستعمل على الميمنة عبدالله ابن المعتم وكان من اصحاب النبي عليه السلام ، وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وكان غلامـاً شاباً وقد قاتل اهل الردة ، وجعل خليفته على الجيش ، خالد بن عرفطة ، وعاصم بن عمرو التميمي على الساقة ، وسواد بن مالك التميمي على الطلائع ، وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة ، وحمال بن مالك الاسدي على المشاة ، وعبدالله بن ذي السهمين على الفرسان . فكان نظام الجيش كما تقرأ :

امراء التعبية يلون القائد العـام ، وامراء الأعشار يلون امراء التعبية ،

وأصحاب الرايات يلون امراء العشائر ، ورؤوس العشائر يلون اصحاب الرايات والقواد ؛ ولم يولّ سعد ، وذلك بأمر عمر ، احداً من اهل الردة .

وكان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، الذي يقال له ذو النور ، على القضاء ، أي أنه كان قاضي الجيش ، وقد ولاّه هذا الامر ، ابن الخطاب نفسه ، وجعل اليه قسمة الغنائم ، وكان الترجمان هلال الهجري ، والكاتب زياد بن ابي سفيان .

فلما فرغ سعد من تعبيته ، وأعدّ لكل شيء من امره ما أعدّ ، وكتب بذلك الى امير المؤمنين ، قدم شراف المعنى بن حارثة لينقل وصية أخيه المثنى الى سعد ، قبل ان يزحف الى القادسية ، فعرف ابن ابي وقاص مقام الرجل ، فاستدناه ، وجعل يسأله عن حال المسلمين في ذي قار ، ويذكر له أخاه المثنى ويعزيه ، ثم قال : بلغني ان المثنى أوصى قبل موته ، وأمر من حوله بان يعجلوا بوصيته اليّ وانا في زرود ، فما هي وصيته ؟

قال : لقد حفظت كلماته رحمه الله فهي هذه :

« قولوا لأمير جند العراق ألاّ يقاتل أعداء المسلمين في عقر دارهم بل يقاتلهم على حدود ارضهم على ادنى حجر من ارض العرب، فان يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وان كانت الاخرى، فليرجع سعد ثم يكون أعلم بسبيلهم واجرأ على ارضهم الى ان يردّ الله الكرة عليهم » .

هذه هي وصيته ايها الامير والرأي لك .

فقال : احسن الله عزاءك سنصنع ما أوصانا به المثنى وقد يكون رأي امير المؤمنين مثل رأيه ..! ولم يشأ ، لأدب في نفسه ، الا ان يجعل المعنيّ قائداً من قواده ، وأوصى بأهل بيت المثنى خيراً ، وقد اصاب فيما قاله عن امير المؤمنين، فقد ورد عليه كتاب منه بمثل رأي المثنى قال فيه :

اما بعد،فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين،وتوكل على الله واستعن به على أمرك ، واعلم انك تقدم على قوم عددهم كثير وعدّتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلدٍ منيع وان كان سهلاً، فاذا انتهيت الى القادسية ، والقادسية باب فارس في الجاهلية، فالزم مكانك لا تبرحه فانهم اذا أحسوك رموك بجموعهم؛ فان انت

صبرت لهم واحتسبت لقتالهم ، ونويت الامانة ، رجوت ان تنصر عليهم ، واذا فشلت ، انصرفت من أرضهم الى ادنى حجر من ارضك ؛ ثم كنت عليهم اجرأ وبها اعلم ، وكانوا عنها اجبن وبها اجهل ، حتى يأتي الله بالفتح !.. ارتحل بالناس يوم كذا حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات ، وعذيب القوادس ، واكتب اليّ حين تأتيك جموعهم ، واذكر لي اسم قائدهم ، وصف لي منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني انظر اليها واجعلني من امركم على الجلية ، وخف الله وارجه ، واعلم ان الله قد وعدكم ، فتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له واحذر ان تصرفه عنك » .

وكتب عمر في الوقت نفسه الى ابي عبيدة بن الجراح ، في الشام ، يأمره بأن يصرف اهل العراق ، وهم ستة آلاف ، الى العراق ، ومن اشتهى ان يلحق بهم فليفعل ، وورد على سعد كتاب آخر جاء فيه :

لقد امددتك بألفي رجل ، عمر بن معديكرب ، وطليحة بن خويلد ، فشاورهما في الحرب ، ولا تولهما .

وانما قال لا تولهما ، لما يعلم فيهما من شدة الإقدام بالجيش وعدم التأني ؛ وكان كل منهما يُعدُّ بألف فارس لشجاعتهما وشدتهما .

وكان قبيصة بن اياس الطائي ، عامل الفرس على العرب ، قد سمع بمجيء سعد فسأل عنه ، وعنده عبدالله بن سنان الاسدي ، فخبره عبدالله ان سعداً رجل من قريش ، فقال قبيصة : ان قريشاً عبيد من غلب !

فغضب ابن سنان من قوله وأمهله حتى دخل قبته فقتله ولحق بسعد ، فلما مثل بين يديه قال له سعد : من انت ؟

قال : عبدالله بن سنان من بني اسد . — وأنت في الجيش ؟

— لا فقد قدمت المعسكر اليوم . — وما هي حاجتك ؟

— قتلت ملكاً من ملوك العرب ثم لحقت بك بعد قتله .

— ومن هو هذا الملك . — قبيصة بن اياس عامل العجم على الحيرة .

— وفي اي شيء استحق القتل ؟

ـ لقد أهان قريشاً وانا اعلم ان قريشاً سادة العرب .

وجعل يقصُّ عليه حكاية قتله في تلك القبة وحكاية فراره .

فقال سعد لمن حوله : لقد كان قبيصة عدواً لنا وحليفاً للفرس وقد قتل الآن .. انها فاتحة خير ان شاء الله ، وقال لعبدالله : وانت ماذا تفعل الآن ؟

ـ افعل ما يفعله كل عربي في جيشك وانا ارغب في الاسلام .

ثم أسلم ، وكان له شأن بالحرب التي استعرت نارها في العراق .

وبعد بضعة ايام ترك سعد شراف زاحفاً الى القادسية ، وهي في موضع قريب من موضع الكوفة ، وقد تقدمه اليها زهرة بن عبد الله قائد المقدمة .

فلما بلغ زهرة ، عذيب الهجانات ، وفيه حصن للفرس يضعون فيه السلاح وتقيم به الرجال ، خيّل اليه والى رجاله ان على الابراج وبين الشرفات ناساً !

فأمر بأن تقف الخيل ، ثم رأوا رجلاً يخرج من الحصن ، وهو الذي كان يتراءى لهم بين الشرفات وعلى الابراج .

فطلبته الرجال ، فأعجزهم ، ولكن زهرة لم يرد ان يتراجع فقد كان يقول : اذا أفلت هذا الفارسي أتاهم الخبر .

وهمز فرسه حتى كاد يطير به ، فلحقه وهو بالخندق، يريد القادسية ، فطعنه فخرَّ صريعاً وكان ذلك الخندق قبراً له ، وقد عجب المسلمون لشجاعة هذا الرجل ودهائه وكانوا يقولون : لم ترَ عين قوم قط أثبت وأربط جأشاً من هذا الرجل ، ولولا بعدُ غايته لم يستطع زهرة ان يلحق به .

ثم دخل المسلمون حصن العذيب، فوجدوا رماحاً ونشاباً واسفاطاً من جلود وغيرها انتفع بها الجيش .

وأراد زهرة ان يثبت وجوده في تلك النواحي ، قبل ان يقدم سعد، فوجّه في ظلال الليل ثلاثين رجلاً الى الحيرة وأمرهم بان يغيروا عليها ، وجعل بكير بن عبدالله الليثي سيداً لهم ، وفي القوم ، الشمّاخ ، الشاعر القيسي .

فساروا حتى جازوا السيلحين وقطعوا جسرها يريدون الحيرة ، فسمعوا اصواتاً تعكر صفو الليل وهدوءه.فنهاهم بكير عن الاقدام وأقاموا حتى يتبينوا

اصحاب تلك الاصوات . ثم أقبلت الخيل ، فاذا اخت مرزبان الحيرة تزفّ الى صاحب حصن الصنين وهـو من اشراف الفرس وعظمائهم ، فحمل بكير على شيرزاد بن المرزبان فجندله بالسيف ، وطارت الخيل على وجوهها فأخذ المسلمون اثقالهم ، وسبوا اخت المرزبان ، ومعها ثلاثون فتاة من بنات الاشراف ، ومئة من الجواري والعبيد والغلمان معهم ما لا تعلم قيمته !!

أجل، كان المسلمون يطوفون في العراق، ويجمعون جموعهم ليحاربوا اصحابه ويفتحوا أرضهم ، وكان الفرس ، الذين هم اصحاب البلاد ، يحتفلون في جبهة الحرب .. في منطقة القتال .. بزفاف الحسان !

وعندما كانت نساء المسلمين ، يرافقن ازواجهن الى الميادين ، ويطرحن بانفسهن الا الاتون المضطرم ، كانت نساء الفرس ، يحملن الازاهير ، ويجعلنها اكاليل لبناتهنّ ..

ان الله كان مع الجيش العربي الفاتح ، الذي نسي كل شيء في سبيل قوميته وايمانه .

وعاد بكير فصبح سعداً بالعذيب، ومعه الاسلاب والنساء ، فكبّر المسلمون تكبيرة شديدة ، فقال سعد : اقسم بالله لقد كبرتم تكبيرة عرفت فيها العز ..

ثم قسم ذلك عليهم ووضع بالعذيب رجالاً لحراسة النساء وأمّر عليهم غالب ابن عبد الله الليثي أخا بكير ، وزحف، فنزل بقديس، ونزل زهرة قائد المقدمة ، في مكان يقال له قنطرة العتيق ، في موضع القادسية اليوم ، وبعث بخبر بكير وبنزوله قديساً الى امير المؤمنين ثم بث عيونه ، واقام ينتظر بشير بن الخصاصية ومن معه من القواد ، الذين شغلتهم بعض الحادثات ، عن التعجل في المجيء .

* * *

أقبل بشير ، مع جميع الذين بقوا معه ، بعد مرور سبعة ايام ، على نزول الجيش بالقادسية، ومثل الجميع بين يدي سعد، فقام سعد يصافح الامراء والقواد وبشير والمعنى بن حارثة يذكران له اسماءهم حتى انتهيا الى ابي زبيد ، فقال :

أهذا الذي ثبت مع المثنى يوم الجسر ؟

فقال المعنى : بل هذا الذي حمى الناس ايها الامير .
وكان ابو زبيد ساكتاً وآثار الهم على جبينه والكآبة في عينيه ..
فقال سعد : ان الرجل الذي يحمي قومه في ساحات الوغى، يتيه عزاً، تكلم يا أبا زبيد !. قال : طلقني العز وخانني الدهر فلم يبق ما أقوله .
قال : أخسرت بنيك في الحرب ؟
ـ خسرت فتاة لي بعد ان ظفر المسلمون في البويب وقتل مهران .
ـ اي انها قتلت بعد الظفر .
قال : لو كان ما أصابها قتلاً لهان الامر !! ان الذي يخوض المجال مع اهل بيته ، لا يخاف الموت ولكنهم سرقوها مني كما يسرق المتاع وانا لا أعلم الى أي بلد قذفت بها الأقدار . ـ قل سبتها الفرس ؟
ـ بل سباها عربي تشفياً من ابن عمه ! ان الفاعل كليب بن خالد النمري .
قال : قصّ عليّ ما جرى لك ولا تنسَ كلمة .
ـ بل يقصّ ذلك المعنى فانا لا أطيق ان اذكر الحادث بشفتي .
فجعل المعنى يروي له ما يعلم من يوم الربدة ، الى اليوم الذي اختطف فيه كليب هنداً ووجه سعد يتغير ، والغضب يبدو على جبينه .
فلما انتهى قال سعد : لقد أراد اللعين ان يعزي ابن عمه يوم قتل ابوه فسرق منه خطيبته !! اني لم أرَ في كل ما رأيت فتىً اكثر لؤماً وغدراً من كليب .. ثم قال : وأين عبدالله بن الفهر ورفاقه اليوم ؟
ـ انه لم يبعث الينا باخباره ، ونحن لا نعلم في أية قبيلة هو .
قال : صبراً يا أبا زبيد ريثما يعود القوم ثم ننظر في الامر بعد ذلك .
قال : لقد منعني المثنى من الذهاب مع ولديّ للبحث عن هند فارجو ان تأذن لي انت في ذلك ، وتبقى ام زبيد وكبشة والزهراء في ظل الامير .
قال : لقد مضى ما مضى الآن فليس من الرأي ان تترك الجيش ..
ـ وهند ؟! ـ اصبر فسيعيدها الله اليك بعد حين .
قال : أخشى ان يخونني جلدي وأضيع صبري !

ـ مثلك من ينظر الى الحياة بالهدوء والرشد ، ان الضيق يعقبه الفرج ان شاء الله ..

ولم يشأ ان يزيد كلمة ، بل جعل يحدث رجاله بشأن الحرب فقد كره ان ينغص على الرجل عيشه من جديد ..

١٢

مرَّ شهر آخر على جيش المسلمين وهو بالقادسية ، ولم يأته أحد من الفرس وخيل سعد تغير على الاطراف وتأتي بالغنائم الكثيرة حتى أخصب المسلمون وكثر المال بين أيدي القواد .

ولم يكن في قوم سعد بن ابي وقاص ، رجل جبان او غدار ، كانوا جميعهم أبراراً أتقياء لم يرَ قط أزهد في دنيا منهم وأشد بغضاً لها .

يحملون الغنائم الى الجيش ، ثم هم يرضون بما قسم لهم لا يراجعون في ذلك أميرهم ولا يقولون كلمة كأن المال عندهم عرضٌ زائل لا يبالون به .

وهم سادة الحرب اذا ثار غبارها ، واضطرمت نارها .. يقتحم الواحد منهم العشرة والعشرين وقد يقتحم المئة وهو لا يرجع الا اذا سقى سيفه من دم الأعداء.

حتى لتظن ، ان ذلك القضاء الرهيب ، الذي يقال له الموت ، لم يكن له وجود في نظر العربي الغازي ، الزاحف الى بلاد الأكاسرة ينتزعها من أيدي اصحابها جبابرة الزمان .

في كل يوم غزوة !! وفي كل يوم ظفر !! فكأن أيديهم لا تتعب ، وكأن سيوفهم لا تفل ، حتى ملأ الخوف قلوب اهل السواد ، واستولى عليهم الذعر .

ولم يبقَ إلا ان يستغيثوا بيزدجرد ، فكتبوا اليه :

ان العرب نزلوا بالقادسية ولم يبقوا على شيء .. خرّبوا ما بينهم وبين الفرات ، ونهبوا الدوابّ والاطعمة ، وسلبونا كل ما نملك من نعم واموال ، فان

أبطأ الغياث أعطيناهم ما بأيدينا .

فلما انتهى كتابهم الى يزدجرد ، قال لرستم وعنده وجوه الفرس ..

اني اوجهك في هذا الوجه ، فأنت رجل فارس اليوم ، وانت ترى ما حلّ بالفرس مما لم يأتهم مثله من قبل .

فأظهر رستم الخضوع وقال : دعني يا مولاي فان العرب لا تزال تهاب العجم ما لم تضربهم بي ، ولعل الدولة تثبت بي ان لم احضر الحرب .

قال : لقد رأيت ان أبعثك هذه المرة لنستريح من هؤلاء العرب الاجلاف .

قال : الرأي في الحرب أنفع من بعض الظفر ، والتأني خير من العجلة ، وقتال جيش بعد جيش ، أمثل من الهزيمة التي لا يرتفع لنا بعدها صوت ، وأشدّ على العدو . فأصرّ يزدجرد على رأيه ، ولم يشأ الا ان يبعث به .

قال : أسألك سؤالاً آخر يا مولاي هو ان توجه الجالينوس وابقى ، فان تمّ لنا الظفر فذلك ، والا بعثنا غيره حتى اذا لم نجد بدّاً صبرنا وقد أتعبناهم ، فاني لا أزال مرجواً في أهل فارس ما لم أهزم !! فلم يبالِ بقوله، وأبى الا ان يسير .

فخرج من مجلسه وهو خائف ، وبدأ يعدّ جيشه ..

جعل الجالينوس على مقدمته ، في أربعين الفاً ، وكان هو يقود ستين الفاً ، وأمر الجالينوس بان يعسكر « بساباط » التي تلي المدائن .

وكان سعد قد أرسل عيونه الى ما وراء الحيرة ، ليستطلعوا أخبار الفرس ، وقد عرفوا ان الجيش الفارسي نزل بساباط ، فعادوا اليه فخبروه ، فكتب الى عمر ، فورد عليه جوابه :

« لا تبالِ بما يأتيك عنهم وما يأتونك به، استعن بالله ، وتوكل عليه ، وابعث الى يزدجرد رجالاً من أهل الرأي والجلد يدعونه الى الله فان الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم ، واكتب اليّ في كل يوم » .

وانـّا لننشر لك أيها القاريء ، رسائل امير المؤمنين ، لتستطيع ان تلمس بيديك الاثنتين تلك الروح الكبيرة وذلك الايمان القوي الذي يتغلل في صدر عمر بن الخطاب .

فعمد سعد الى اختيار الرجال ، الذي أمره عمر بارسالهم الى الملك ، دون ان يتردد في الامر .

اختارهم جميعهم من أهل المهابة والمظهر والرأي ، وبعث بهم وعددهم أربعة عشر رجلاً وليس لهم رئيس . كل واحد منهم يمثّل سعداً ، كما يمثل المجموع !

وانه ليطيب لك ان تعرف اسماءهم قبل ان يمثلوا بين يدي يزدجرد ، النعمان ابن مقرّن ، وبسر بن ابي رهم ، وحملة بن جوية ، وحنظلة بن الربيع ، وفرات بن حيان ، وعدي بن سهيل ، والمغيرة بن زرارة ، وعطارد بن حاجب ، والاشعث ابن قيس ، والحارث بن حسان ، وعاصم بن عمرو ، وعمرو بن معديكرب ، والمغيرة بن شعبة ، والمعنى بن حارثة .

هؤلاء هم الرجال الذين جعلهم سعداً وفداً له وبعثهم دعاةً الى الملك الفارسي.

فخرجوا من المعسكر ، ولم يمروا بجيش رستم حتى انتهوا الى باب يزدجرد فوقفوا على خيولهم واستأذنوا .. فبعث يزدجرد الى وزرائه ووجوه دولته يستشيرهم فيما يصنع فحضروا ينظرون اليهم ، وعليهم البرود ، وفي أيديهم السياط ، وفي ارجلهم النعال ! فلما اجتمع القوم اذن لهم فأدخلوا عليه .

وكان يزدجرد مستخفاً ، فلما دخلوا ، أمرهم بالجلوس ، واحضر الترجمان فقال له : سلهم ما جاء بكم وما دعاكم الى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل انّا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فقال النعمان بن مقرن : ان شئتم أجبت عنكم .

قالوا : تكلم ، وقالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا جميعاً .

فقال النعمان : ان الله رحمنا فأرسل الينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا عن اجابته ، خير الدنيا وخير الآخرة ، فلم يدع قبيلة ، الا قاربه منها فرقة وتباعد عنه منها فرقة ، ثم أمر ان نبتديء بمن خالفه من العرب ، فبدأنا بهم فدخلوا معه وعرفنا جميعنا فضل ما جاء به ، على الذي كنا عليه من العداوات والضيق ، ثم أمرنا بان نبدأ بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسّن الحسن ، وقبّح القبيح ، فان أبيتم ، فأمر من الشرّ ، اهون من آخر شرٌ منه ، الجزية فان أبيتم ، فالمناجزة ، فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم

فحمله عاصم على عنقه وخرج به من الايوان والدار حتى اتى راحلته فوضعه عليها وركبها وكان يقول : ابشر يا سعد فقد أعطانا الله مقاليد ملكهم ..

وجعل يرددها حتى دخل على سعد .. والمسلمون يزدادون في كل يوم قوة ويزداد عدوّهم في كل يوم خوفاً ..

واشتد ما صنع المسلمون، في مجلس يزدجرد ، على وجوه فارس، وترك رستم ساباط الى المدائن يسأل الملك عما كان من امره وأمرهم ، فقال الملك : ما كنت ارى ان في العرب رجالاً يدخلون عليّ مثل ما دخلوا ، ما انتم بأعقل منهم وأحسن جواباً .

واخذ يعيد عليه كلام النعمان والمغيرة ثم قال : علي اني وجدت اشرفهم احمقهم حيث حمل التراب على رأسه وخرج به ..

فقال رستم : بل هو أعقلهم ايها الملك .

وخرج كئيباً ، فلقي رجلاً من رجاله فقال له : إلحق بوفد العرب ، فان أدركتهم تلافينا ارضنا ، وان أعجزوك سلبكم الله أرضكم وابناءكم . اذهب الساعة .

فذهب الرجل ، ثم رجع من الحيرة وقد سبقوه ، فقال رستم : لقد ذهب القوم بأرضكم وانتهى الامر .

وكان سعد ، بعد ذهاب الوفد الى يزدجرد ، وقد وجَّه سواد بن مالك التميمي الى «النجاف والفراض» موضعين يكثر فيهما الماء ، فأصاب ثلاثمائة دابة، بين بغل وحمار وثور ، حملوها سمكاً ، وصبَّحوا الجيش ، فقسم سعد السمك والدواب بين الناس ، وسمي ذلك اليوم يوم الحيتان .

وسار مالك بن ربيعة في فرقة اخرى فأغار على بلد يقيم به بعض العرب الذين لم يدخلوا في الطاعة ، فسلبهم نوقهم وساقها حتى غدا بها على سعد ، فنحرت الابل في الجيش فأخصب .

وأغار عمرو بن الحارث على النهرين فأصاب مثلما أصاب مالك بن ربيعة ، فاستقوى المسلمون وأيقنوا بالظفر، وجعل اهل السواد يطلبون الغوث من جديد.

فأرسل يزدجرد الى رستم يقول له: اترك ساباط وامش بجيشك الى «كوثى» وابدأ القتال .

فأمر القائد الفارسي عندئذ ، قائد مقدمته الجالينوس ، بان يسير الى الحيرة، وزحف هو الى الموضع الذي ذكره له مولاه ، ثم كتب الى الملك كأنه يشجعه : ان فتح الله علينا توجهنا الى ملكهم في دارهم الى ان يقبلوا المال !! وكتب في الوقت نفسه ، الى أخٍ له ، والى وجوه القوم يقول :

استعدوا ، ورمّوا حصونكم ، فكأنكم بالعرب قد قارعوكم عن ارضكم وأبنائكم وقد كان من رأيي ان أطاولهم وأدافعهم حتى تعود سعودهم نحوساً فأبى الملك .. ثم أرسل الى الجالينوس ومرزبان الحيرة ، ان يصيبا له رجلاً عربياً من جند سعد ، ويبعثا به اليه، فركب الاثنان في طليعة لهما فأصابا رجلاً من العرب، جالساً وراء قناطر القادسية ، فاختطفاه ، وأرسلاه اليه .

وكان الرجل ، قصير القامة ، حسن الوجه ، تبدو عليه مظاهر الاستخفاف والازدراء . وقد أراد رستم ، ان يطلع ، من وراء حديث الرجل ، على أسرار الجيش العربي ، ثم يرى رأيه فيه ، بعد ذلك – ولم يذكر المؤرخون اسم هذا الرجل – فقال له رستم : ما جاء بكم ، وما تطلبون ؟

قال : جئنا نطلب ما وعدنا الله به . – وما هو ؟

– أرضكم وأبناؤكم ودماؤكم ان أبيتم ان تُسلموا . – فان قتلتم قبل ذلك؟

– من قتل منا دخل الجنة ، ومن بقي أنجزه الله ما وعده به فنحن على يقين.

– اذن فقد وضعنا في أيديكم !

قال : ويحك يا رستم ان اعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرّنك ما ترى حولك فانك لست تحاول الانس انما تحاول القضاء والقدر !!

فاستشاط الفارسي غضباً ، ونسي الجيش العربي وأسراره ، وقال لحراسه : اضربوا عنقه .

فقتل المسكين على مرأى من القوم ، ونهض رستم، وقد هيجه الدم المسفوك ، فأمر جيشه بالسير الى « البرس » ثم الى النجف عند الحيرة .

ولكن الجيش عندما نزل البرس، غصب الناس أبناءهم، وأموالهم، ونساءهم، وجعلوا يشربون الخمر حتى ملأت عربدتهم وسكرهم ذلك القطر، فضجّ القوم ولجأوا الى رستم، فقال لرجاله: يا معشر فارس، والله لقد صدق العربي والله ما اسلمنا الا اعمالنا والله ان العرب مع هؤلاء وهم لهم حزب أحسن سيرة منكم ان الله كان ينصركم على العدو، ويمكّن لكم في البلاد بحسن السيرة، وكف الظلم، والوفاء بالعهود والاحسان، فاما اذا تحولتم عن ذلك الى هذه الأعمال فلا أرى الله الا مغيراً ما بكم، وما انا بآمن ان ينزع الله سلطانه منكم.

وعمد الى السيف فضرب بعض الأعناق، كما فعل بذلك العربي، ثم ركب ونادى في الناس بالرحيل الى النجف، ونزل عند الخورنق الى الغريين.

« الخورنق قصر مشهور للملك النعمان والغريّان، قبرا نديمين له، وقد ذكرنا سبب قتلهما في روايتنا: النعمان الثالث ملك العراق ».

وكان قد ضرب سرادقه الى جانب الدير الذي يقال له « دير الأعور » فدعا اهل الحيرة وهو يظن بهم الظنون، وقال لهم:

يا اعداء الله، فرحتم بدخول العرب علينا، وكنتم عيوناً لهم علينا، وقويتموهم بالاموال.. فنظر اهل الحيرة الى رجل منهم يدعى ابن بقيلة قائلين له: كن انت الذي تكلمه.

وكان الرجل فصيحاً جريئاً، وهو سيد القوم، فتقدم فقال: اما قولك انا فرحنا بمجيئهم فماذا فعلوا وبأي شيء من امورهم نفرح؟ انهم ليزعمون انّا عبيد لهم وما هم على ديننا، واما انا كنا عيوناً لهم فما الذي يحوجهم الى ان نكون كذلك وقد هرب اصحابكم منهم وخلّوا لهم القرى فليس يمنعهم احد من وجه ارادوه، ان شاءوا أخذوا يميناً او شمالاً! واما انّا قويناهم بالاموال فانا صانعناهم باموالنا عن انفسنا، اذ لم تحمونا انتم، مخافة ان نسبى وان نقتل وقد عجز منكم من لقيهم نحن اعجز ولعمري لأنتم أحب الينا منهم وأحسن عندنا بلاء فامنعونا منهم نكن اعواناً فانما نحن بمنزلة علوج السواد عبيد بن غلب!

فجعل اهل المجلس يتفرسون في قائدهم وقد قام في اذهانهم ان ابن بقيلة انتهت حياته.

على ان القائد ابتسم قائلاً · لقـد صدقكم الرجل فاحفظوا مثالته يا معاشر الفرس وتعلموا ان تحموا الناس الذين يعيشون في ظل التاج الفارسي .

واخذ ينظر ، مع اهل الحيرة، واركان حربه ، في امر الحرب ، التي لم يكن له فيها رغبة ، وقد اكرهه يزدجرد على خوض غمارها ..

وكان من رأيه ان يتجنبها اصحـــابه ما استطاعوا ، ريثما تبعث السماء اليهم بفرجٍ قريب ...

* * *

بـين خروج رستم من المدائن ، وزحفه من ساباط الى ان لقي سعداً اربعـة اشهر لا تنقص .

وهو لا يقدم ، ولا يبرز الى الساحة ، رجاء ان يضجروا بمكانهم ، ويجهدوا ، فينصرفوا الى الحجاز ، فعل ذلك، مخافة ان يلقى ما لقي زملاؤه من قبل، وقد طاولهم ما طابت له المطاولة وهو يظن ان الملل سيتولى على سعد ! ولكن ملكه لم يكن من رأيه فقد كان يستعجله ، ويدفعه ، برسائله ورسله ، الى الامام ، وهو واثق بقوة الأفيال وكثرة الرجال .

وكان هنالك مانع آخر ، لم يبلغ رستم معه ، غايته من المطاولة ، فان عمر ابن الخطاب ، كان يعلم، بما له من حكمة وخبرة ، وبما عنده من رأي ، ان القوم سيطاولون المسلمين ، فأمر سعداً كما قرأت بان ينزل حـدود ارضهم ويطاولهم كما يطاولونه ، حتى يجد مخرجاً ، مما عهد اليه فيه .

فمن اجل هذا رأيت المسلمين ينزلون بالقادسية، ورأيتهم معتصمين بالهدوء والصبر، مطمئنين الى القوى التي لا تتزعزع، والايمان الراسخ رسوخ الجبال، كما انك رأيت امير المؤمنين ، يمدهم بالرجال والنعم ، وينفخ في صدورهم، وهو في المدينة روح التضيحة والوثوق بالله .

فلما عرف يزدجرد حـال القوم وبلغه عنهم ما يفعلونه في القطر الذي نزلوه لجّ في طلبه ولم يشأ الا ان يزحف رستم الى النجف لينقذه من هؤلاء المتمردين ،

الذين غزوا بلاده الآمنة ، وعاثوا فساداً في أرض الفرس !

وكان ما اراده الملك ، فان رستم بلغ النجف ، وضرب خيامه على طول الخط بين العتيق والسيلحين فكنت ترى مئة وعشرين الفاً من الرجال يشغلون ذلك السهل الرحب من نواحيه الثلاث الا الناحية التي تنتهي الى القادسية .

على انه لم يتصدَّ للمسلمين وجهاً لوجه كما كان يظن بل كان ينتظر ان يتصدوا له ليقف في وجوههم موقف دفاع ! وسعد صابر على ما يراه ، تغير فرق جيشه على الأرض التي حوله ثم تعود دون ان تنقل قدماً الى معسكر الاعجام .

حتى أراد أخيراً ان يلهو ويعبث بهم .. بل رأى خيراً ان يوقد النار ، فالفتح لا بد منه ، وخير له ان يدفن في أعماق الفرات ، من ان تبقى بلاد الفرس للفرس !

فقال لفارسين من فرسان العرب ، يقال لأحدهما سواد ، وللآخر حميضة : اخرجا غازيين ، في مئة من الرجال ، ولا تمعنـــا ، فأغار الرجلان على النهرين وأمعنا .. وبلغ رستم خروجهما ، فارسل اليهما خيلاً ، ثم بلغ سعداً ان خيله قد أوغلت ، فدعا عاصم بن عمرو ، وجابراً الاسدي فأرسلها في آثار الرجلين وقال لعاصم : اذا جمعكم قتال فانت أميرهم .

فلقيا سواداً وحميضة ، بين النهرين ، وخيل فارس تحيط بهما ، وسواد يقول لرفيقه اختر اما ان تقيم لهم وأسوق الغنيمة ، او أقيم وتسوقها انت ؟

فقــال حميضة : أقم انت وانا أذهب بالغنائم ، وانثنى يسوقها الى المعسكر العربي ..

فلقيه عاصم بن عمرو فكان له عوناً على عمله ، ورأت الأعاجم عاصماً فهربت صفوفهم وأتى القوم سعداً بغنيمتهم وهم يكبرون ، على عـــاداتهم في كل غزوة يكتب لهم فيها النصر .

ثم خطر لسعد ، ان يرسل عمرو بن معديكرب وطليحة الاسدي طليعة في عشرة من الرجال، ونهاهما كما نهى سواداً وحميضة، عن الدخول في جيش الفرس.

فلم يسر الرجلان فرسخاً وبعض آخر ، حتى رأيا صفوف جيش الجالينوس

ورستم تملأ السهل ، وقد تهيـــأ القوم ، فتردد عمرو في امره ، وآثر الرجوع الى المعسكر ، ولكن طليحة أبى الا ان يتقدم وحده ويطوف بين خيام العدو .. ثم أقبل قيس بن هبيرة، وقد بعثه سعد في آثار الرجلين وجعله سيد القوم اذا هو لقي قتالاً .. فلما أبصرا عمراً سأله عن طليحة فقال : لا علم لي به !

قال : اذن نعود فليس في التقدم خير .

– بل نغير على الصفوف النازلة في آخر المعسكر !

قال : في هؤلاء الرجال يا عمرو ؟ – نعم ، وسنظفر ان شاء الله .

– ولكني لا أرضى بهذا ، أتعرض المسلمين لما لا يطيقون ؟

فكبر على ابن معديكرب ان يسمع مثل هذه الكلمة وهو أعز قومه، فقال: ألا ترضى يا ابن هبيرة ؟ قال : لا . قال : ومن انت حتى تقول هذا ؟

– أنا أميرك وقد عهد اليَّ سعد في هذه الامــارة ، وشهد له الاسود بن يزيد ان سعداً قد أمّره .

فقال عمرو : والله يا قيس .. ان زماناً تكون علي فيه اميراً لزمان سوء !. والله ان الرجوع عن دينكم هذا الى ديني الذي كنت أقاتل عليه أحب اليَّ من ان تتأمر عليَّ مرةً ثانيةً ، ولئن عاد سعد الذي بعثك الى مثلها ، لنفارقنه ولا نبالي.

قال : ذلك اليك في المرة الثــانية . ورجعا الى سعد ، فجعل قيس يشكو عصيان عمرو ، وعمرو يشكو غلظة قيس ، فقال سعد :

يا عمرو .. الخير والسلامة أحبّ اليَّ من مصاب مئة من العرب ، بقتل الف من الفرس .. أتعمد الى جيش الاعجام فتصادمه ببضعة رجال ؟ لقد كنت والله أظن أنك أعلم بالحرب مما رأيت ..

فرأى ابن معديكرب ان الصواب فيما يقوله الامير ، فنسي غلظة قيس وقال: ان الامر لكما قلت .

فابتسم قائلاً : انك في هذه الطاعة خير الامراء ، ماذا فعل طليحة الاسدي؟

قال : سألتــه قبل وصول قيس ، ان يعود الى المعسكر فلم يشأ الا ان يسير الى الامام وكان يقول : أريد ان أحدث حدثاً او أهلك .

وكان طليحة قد صبر حتى ادبر الليل ، فلما آنس الهدوء في جيش رستم ، خرج يطوف بين البيوت ، فاذا فرس لم يرَ في خيل القوم مثله ، وفسطاط أبيض كبير تحيط به ، من الجهات الاربع ، مظاهر العظمة والعزّ ، فعرف انه لسيدمن سادات الفرس . فانتضى سيفه فقطع مقود الفرس ، ثم ضمّه الى مقود فرسه ثم همز فرسه فخرج يعدو به .

فشعر به صاحب الفسطاط والناس الذين حوله ، فتنادوا ثم خرجوا في طلبه فأصبح وقد لحق به فارس من الجند ، فلما غشيه وهمّ بان يطعنه من الوراء ، عدل طليحة فرسه وكرّ عليه فقصم ظهره بالرمح. ثم لحق به فارس آخر ففعل به مثل ذلك، ولم يضرب ضربته حتى أبصر رجلاً ثالثاً مقبلاً عليه، وقد رأى مصرع صاحبيه وازداد حنقاً وغيظاً .

فلما دنا منه ، استقبله برمحه ، فعرف الفارسي انه قاتله ، فاستأسر ، وامره طليحة بان يركض بين يديه حتى جاوزا المعسكر وأحجم عنهما القوم ، ولم يلبثا حتى مثلا بين يدي سعد . قال لطليحة : ويحك ما وراءك ؟

قال : فعلت ما فعلت وما أدري أصبت أم أخطأت وها هوذا الرجل فليقصّ عليك ما رآه .

فقال ابن هلال الهجري نجعله ترجماناً بيننا وبين هذا الفارسي ؟

فدخل هلال فقال له : سل هذا الرجل عما فعله طليحة في هذا الصباح ولا تنسَ أن تسأله عن قومه . فقال الرجل : أتؤمنني على دمي ان صدقتك ؟

قال : نعم فالصدق في الحرب أحب الينا من الكذب !

قال : اخبركم بما فعل صاحبكم هذا قبل أن أقصّ عليكم اخبار قومي .. لقد باشرت الحرب وغشيتها، وسمعت بالابطال ولقيتها منذ انا غلام الى ان بلغت، فما رأيت ولا سمعت ان رجلاً يجترىء على جيش فيه الوف الرجال ، يخدم الرجل منهم الخمسة أو العشره ، ثم هو لا يرضى ان يخرج منه كما دخل بل سلب فارس الجند فرسه، وهتك اطناب بيته، وقتل اثنين من أشجع الناس وكاد يلحقني بهما.

— ومن أنت ؟

– أنا الثائر بالقتيلين وهما من ابناء عمي ، وقد أردت ان أطلب بدمها ، فرأيت الموت ، فاستأسرت !! قال : ما هو عدد الجيش الذي يقوده رستم ؟
– جند رستم عشرون ومئة الف ما عدا الاتباع .
قال : صدقت فقد قيل لنا ان عددكم هو ما ذكرت ، ثم قال : لقد أصبحت الآن اسيراً ايها الفارسي ، فخذوه ..
– بل أصبحت مسلماً فلا حاجة لي الى فارس !! قال : أتفعل ؟
– أجل ، وسترى اني من أصدق الناس الذين دخلوا في الاسلام .. انكم لا لا تهزمون ما دمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والصلاح .
وأسلم الرجل ، في تلك الساعة ودعاه سعد مسلماً ، ولزم طليحة ، وكان من أهل البلاء في تلك الحرب .

١٣

صحت هند من اغمائها بعد بضع خطوات ، فخيل اليها ، وهي في هودجها على ظهر الناقة، انها تعالج جرحى الحرب، في ساحة القتال، وان الارض تهتزّ، تحت حوافر الخيل ..
ثم ما لبثت حتى ذكرت كليباً ، وجرح انس بن هلال ، ودواء عامر بن مذعور .
بل ذكرت قهقهة ذلك المجنون .. وتلك الأشباح التي كانت تروح وتجيء ، في حي الصعاليك .. والأيدي الحديدية التي امتدت اليها ثم رفعتها الى الهودج ..
فذعرت ، وجعلت تنظر ، من وراء الستر الى النواحي الاربع ، فلا ترى الا الظلام الباسط جناحيه الاسودين.. وقد عرفت في تلك الساعة انها أسيرة كليب، وان ذلك الخوف الذي كانت تحسه، منذ رأت وجهه ، أمسى الآن حقيقة تلمسها باليدين .

فبكت بكاء اليائس ضيع الامل ، ولكن لم يسمع لبكائها صوت ، ان نفسها المتألمة كانت تبكي ، دون ان تذرف عيناها الدموع !!

واليأس آخر مرحلة من مراحل الخوف ، وآخر مرحلة من مراحل القوة ، لأجل ذلك كانت هند، في ذلك الموقف الرهيب ، لبوءة مضطربة ، ترى بعينيها الموت ، وتستعين بجميع قوى الجسد والنفس لتنجو منه !!.

لم تكن تطمع بشيء من الرحمة يجود عليها بها كليب بن خالد ، ان صدر اللئيم لا يتسع لمثل هذا.. وليس في ذلك الاختطاف، مظهر واحد من مظاهر العاطفة.

أراد النذل ان يثأر لكرامته ، ولا كرامة للانذال .. فحمل هنداً في ذلك الليل كالذئب يحمل فريسته الى حيث لا تراه العيون ، ليزرع الكآبة في كل قلب، ويعكر صفو العيش على رؤساء العشيرتين : النمر وطيء .

وليس في الناس أصغر نفساً ، واكثر لؤماً ، من فتى يرى عمه مضرجاً بدمه ، فيغض طرفه كأنه لا يراه ، ثم يعمد في الوقت نفسه ، الى خنجر ذي حدين يطعن به صدر الابن الذي خسر أباه !!

أجل ، لقد رأى كليب مصرع انس ، في ساحة الوغى ، فقد كانت عيناه تنظران اليه والى المنذر ، فعمد الى الحيلة يدفع بها هنداً الى ما وراء الجيش ، بدلاً من ان يحتضن الجريح الذي نشأ في ظله ، وتقلّب بفضله ، في أحضان الدلال والعز !!

وليس هنالك أبلغ من هذه النذالة يرضي بها نفسه الثائرة !

كانت هند تفكر فيما قرأت ، وقد قام في ذهنها ان أبا المنذر قد جرح ، وجراحه قاتلة ، حتى خيل اليها انها شهدت سقوطه عن فرسه ، والدم يتفجر من جسده !!

ولولا هذه الجراح ، بل لو لم يكن الموت فاتحاً ذراعيه لابن هلال ، لطاف المنذر بين خيام المعسكر كلها باحثاً عن حبيبته !

ونسيت هند نفسها ، في تلك اللحظة ، وجعل قلبها يخفق خفقان اللوعة والشوق ، الى ذلك الحبيب الذي جار عليه الزمان ، وهو في فجر عمره ، وفجر غرامه ..

ثم ضاق صدرها ، فرفعت الستر وأرسلت أصوات الاستغاثة ، ثم جعلت تسأل اهل المروءة ان يرحموا فتاة طيء !!

ولكنها لم تسمع للمروءة صوتاً .. بلى سمعت تلك القهقهة الجافة التي سمعتها من قبل ، ورأت ، على نور النجوم ، عيون الذئاب الخاطفة ، تحدق اليها ، من الامام ، ومن الجانبين !

ثم رأت ذلك الفارس الذي يقود الناقة يتراجع في مهل حتى دانى الهودج وجعل يقول : لقد نام الشرف الآن يا هند ، وسدّت المروءة اذنيها فهي لا تسمع نداءً . وكان المتكلم كليباً . فقالت : انت !

– نعم انا كليب بن خالد ابن عم المنذر الذي تحبين وقد أمسيت لي !!

فصاحت قائلة : أتجسر على ان تقول هذا ايها اللعين وانا ابنة طيء ? اني للمنذر أو أموت !! قال : لم يخطر لي ان أجعلك زوجة .. بل .. جارية !

– وهل تظن ان الزمان سيصفو لك حتى تجعل بنات الامراء جواري في بيتك ? – وماذا يفعل هذا الزمان يا هند وانت كما ترين ?

قالت : ستفاجئك خيل النمر وطيء الليلة وستعلم ..

فضحك قائلاً : اما النمر فهي تبكي الآن سيدها الذي مزقت جسده أسنة الفرس .. واما طيء ، فانا لا أبالي بطيء وبجميع العشائر التي تجاور طيئاً .

فأخفت المسكينة وجهها بيديها واستندت الى هودجها وهي تضطرب .

لقد صدقت الظنون ، ومات انس ، فكيف يستطيع ذلك الحبيب ان يعالج الجرحين ، ويصبر على المصيبتين !

ثم رفعت رأسها فجأة وقد خطر لها ان تحاسن الفتى وتداريه ، فقد يكون في صدره ، بقية شرف ، حجبتها ثورة نفسه ، فقالت له وفي لهجتها شيء من الاستعطاف : أمات انس بن هلال ?

فأجابها قائلاً : أجل مات النمري المتكبر المستأثر بكل شيء !!

فارتجفت يداها وشفتاها ، عندما سمعت ذلك الرثاء .. ثم قالت : انك من أشراف العرب فلا تعبث بي ..

قال : اقسم اني رأيت الاسنة تغوص في جسم الرجل ثم رأيته يسقط تحت حوافر الخيل ؟ — ولكنه لم يمت ؟. — ان لم يمت الليلة مات غداً ؟

— اذن لم يبق لك ثأر فقد بلغت الغاية ..

قال : كنت اريد ان اطعن عمي بهذا الرمح طعنة تتحدث بها العرب ثم ارحل عن النمر وانسى اني منها ، ولكن المثنى بن حارثة وعبدالله بن ذي السهمين ارادا غير ما أردت .. — ثم جاء الموت نفسه فتولى أمر عمك ، كما تقول .

— ولكنه لم يمت من يدي وهذا ما لا يطيب لي !! — وماذا بقي لك ؟

— بقي ان أقهر المنذر الذي آثر فتاة طيء على كبشة وهي ابنة عمه ... أسمعت الآن ؟! بقي ان احمل هنداً بنت ابي زبيد الى موضع لا تعرفه الجن ، ليبكي المنذر أباه وخطيبته في وقت واحد ، ويمر العمر كله وهو في عمر من الشقاء والكآبة الدائمة .

ثم ضحك ثانية وجعل يقول : وانك الآن يا هند بين يديّ فابكي هذا الغرام الذي خنقته يدا كليب ابن خالد، ولا تنسي ان تبكي الزمان الذي مضى ، والعز الذي عبر ..

ولو سمعت هذا الخطاب البليغ، فتاة غير هند ، لجنّت من الذعر .. ولكن هنداً ارادت ان تتمادى في المداراة ، لتستطيع ان تضع المنهاج ، الذي تتمشى عليه في هذه الرحلة الغريبة !!

وقد بذلت جهدها كله لتخمد النار المتأججة في الصدر ، ثم قالت له : اذكر يا كليب ان المنذر ابن عمك !

قال : وانا لولا هذه الذكرى المؤلمة لما فعلت ما فعلت ..

— ولكنه بريء كما تعلم ولم يكن له رأي فيما صنعه أبوه ..

قال : السكوت خير من الكلام ايتها الطائية ، فوالله لئن خطر لك بعد الآن ان تدافعي عن المنذر لأقذفن بك الى الفرات فيحملك تياره الى معسكر المسلمين.

فأرسلت عيناها لذكر الفرات ، شعاعاً غريباً ما لبث حتى انطفأ وجعلت شفتاها تتحركان كأنها تهامس الفضاء .. ثم مسحت دمعةً سقطت على خدها

هي دمعة الفتاة النبيلة يسببها نذل ، بل هي دمعة الذل بعد العز ..

وانصتت قليلاً الى هدير النهر العظيم الذي يعكر على الليل هدوءه ثم غمرت ثغرها ابتسامة الاستهزاء والاستخفاف بالحياة ..

على ان كليباً لم يسكت بل خطر له ان يستبد بالضعف ، ويعبث بالشقاء ..

فقال وهو شامت : هند ! قولي الآن اين هي كبرياء انس بن هلال ؟

فظلت ساكتة .. فقال : والى اي قبر انتهى به استخفافه بابن اخيه ؟

فعولت عندئذ على تنفيذ تلك الفكرة الهائلة التي خطرت لها فأجابته قائلة : لقد نسيت الآن من ذكرت ! — ولكنك لم تنسِ المنذر !

— ونسيت المنذر الذي تظن اني اذوب شوقاً اليه !!

قال : أتهزئين بي يا ابنة طيء ؟ وكيف تنسين الفتى الذي أراد أبوك ان يجعلك زوجةً له ، بعد الحرب ؟

قالت : أطعت ابي على رغم هذا القلب . الذي لم يخفق على حبه ..

اما انا فقد رأيت هذا الحب في عينيك السوداوين ، وكدت اسمع ، ونحن في الربدة ، همس الغرام !

قالت : كان يصف لي العيش في عشيرة النمر ، فلم استطع الا ان أصغي اليه ..

فاراد الفتى ان يمعن في عبثه فقال . ومن تحبين اذن ؟

قالت أتسألني مثل هذا السؤال وانا في قبضة يديك وبين عبيدك وغلمانك .. اني أحب الفتى الذي لا يصبر على أذى ، ولا ينام على ذل ..

وكانت لهجتها لهجة صدقٍ خدع كليباً وصرفه عن عبثه . !

هي تقول انها لا تحب المنذر ولم تشأ الا ان تجاري اباها في أمر الزواج .. أفليس في هذا الاعتراف ما يوحي الى الفتى خاطرة اخرى من خواطر الانتقام ؟

انه اختطفها ليضرب المنذر ضربتين لا يرتفع له بعدهما رأس.. ولكن حزن المنذر ينمو ، ولوعته تشتدّ ، عندما ينتهي هذا الاختطاف . الى غرامٍ جديد يبسط جناحيه فوق فتاة طيء ، وكليب النمري !

ثم يمسي كليب الثائر زوجاً لهند !!

فكرة عذبة استلذها الفتى المغرور الغدّار !

سيقول للمنذر : سلبتني الزهراء فسلبتك هنداً، فانظر الى غرامك يختنق في صدرك .. والى قلبك العاشق يذيبه الجفاء !!

وحسب كليب ، أن يشقى المنذر ويرافقه الألم والكآبة الى الابد ..!

وكان يردّد كلمات هند : احب الفتى الذي لايصبر على أذى ولاينام على ذل.

ثم قال : ألا ترين اني من اولئك الفتيان الذين لا يصبرون زمانهم كله على ما يدعى ذلاً . قالت : ليس لي أن أصف الناس بما لا أعلم .. اني لا أعرف عنك الا انك كليب بن خالد من أشراف النمر ، وقد قضيت أيام الحرب كلها ، وأنت بعيد عني وعن بني طيء ، لا تنظر الينا جميعاً نظرة رضى واحــدة فكأننا اعداء لك ! فأعجبه عتابها .. وأحسّ اللعين ان له قلباً ..

ثم التفت الى عامر قائلاً : تراجع مع غلمانك فأنا ارافق هنداً .

فهامس عامر رجاله قائلاً : سباها ليقهر ابن عمــه فاذا هو يسقط في شرك الغرام .. وتراجع زهاء مئة ذراع وكان يقول :

ان صاحبنا النمري مجنون ، فقد اهتزّ فؤاده لكلمة قالتها هند ..

وكان كليب يقول : لنتحدث الآن ، فرعاة النوق امامنا وعامر بن مذعور وقومه لا يجسرون على الدنو من الهودج .. قولي .. أتحبين الفتى الذي يخاطبك الآن ؟ فهمّت بأن تقول له : يا غدّار .. ولكنها رأت ان الحظ بدأ يبتسم لها ، فقالت بهدوء :

لا أستطيع ان أحب الرجل الذي اختطفني في ظلام الليل ، وأنا لا أدري الى أي قطر من أقطار العرب ، يقذف بي .

قال : اختاري البلد الذي تشائين الا طيئاً والنمر، وهذه الناحية من العراق.

— ولكني لا أعرف من العراق غير الحيرة والنجف ، وكربلاء التي لا تبعد كثيراً عن الحيرة !

قال : نسير اليها، ثم نعبر الفرات الى حي من بني تغلب يقع بين الفرات وبين دجلة . — واذا لحقت بك فتيان النمر وطيء ؟

– نعود فنعبر الفرات الى عين التمر، وتحجبنا بادية الجزيرة عن عيون القوم، حتى ننتهي الى تدمر، ثم الى الشام.

– ولكنك تتخلى عني عندما تسدّ منافذ الفرار..

قال: أقسم بهذه النجوم التي تتلألأ في السماء، اني سأطعنك بهذا الخنجر، ثم أطعن نفسي، عندما أضيّع الامل بالنجاة.

فقالت دون ان تتردد: اذن فاعلم اني أحبك.

فجعل المغرور ينظر الى عطفيه، وطاب له، وهو على ظهر فرسه، ان يرقص رقص الخيلاء. ثم جعل ينظر الى الهودج نظرات العاشق برّح به هواه.. كأن الحب يتغلل في صدره، منذ عامين. وكانت هند تتنهد وترسل الزفرات.

ثم قال: لقد طابت الحيـاة لي بعد هذا الاعتراف فليفعل المنذر ما يشاء.. ونادى عامراً فقال له: اعطني الفرس الذي تركبه واحتفظ بناقة الهودج.

ففعل الفتى ما أمره به وهو ساكت، ولكنه كان يضحك في سرّه، ضحك الهازىء. ثم ساعد كليب هنداً في النزول من هودجها، والناقة قائمة، ولم تلبث الفتاة، حتى استوت على ظهر فرسها، وجعل الاثنان – العاشقان الجديدان – يتخاطبان بلغة الغرام، ويبتسمان للغد الضاحك، والحياة الهادئة!!..

وكانت تقول، كلما ذُكرت النمر وطيء: خير للقوم ألاّ يلحقوا بنا فانا لا أريد ان أموت! وكان هو يقول: إي والله سنموت نحن الاثنين، عندما تحيط بنا الخيل. وقد أيقنت هند، بأن الموت لا بدّ منه، في الحالتين...

١٤

انقضى الليل، والسكينة تشمل الفرات وشاطئيه، وما يجـاوره من جبل وسهل، وموكب «الاختطاف» الذي غفلت عنه العيون، يستظل بظل الطمأنينة والهدوء.

وعندما كانت هند ، في طريقها الى كربلاء، وقد جاوزت المرابع التي كانت لبني لخم ، كان الجيش العربي ، يشيّع جثة انس بن هلال، الى قبره على الشاطىء ، وعيون القواد والرؤساء تذرف عليه الدموع .

حتى انتهى القوم الى كربلاء، فلم يشأ كليب ان يبيت فيها ليلته بل أراد ان يعبر الفرات ، قبل ان يجن الليل .

وأقبلوا على الجسر ، والجسر سفينتان، فقالت هند : ليعبر القوم ثم نعبر نحن بعد ذلك . ففعلوا ومعهم الخيل والنوق .

ثم مشى العاشقان ، الواحد وراء الآخر ، حتى توسطا الجسر .

فوقفت الفتاة ، ثم جعلت تنظر الى عباب الماء ، وارتفاعه وشدة انحداره ، كأن في تلك المياه الثائرة ، وذلك التيّار الجبّار ، شيئاً يجذبها اليه ..

وكانت تبتسم ابتسامة لا لون لها ، وفي عينيها نور غريب يبدو ثم يختفي .. وعلى شفتيها ظل اسم عذب تردده نفسها المضطربة وقلبها الخفاق ..

ثم قالت وعيناها تنظران الى اللجة : ايه كليب بن خالد !! أهذا هو التيار الذي يحملني الى معسكر العرب اذا قذفت بي اليه ؟!

فراع الفتى تلك اللهجة الهادئة وقال : لقد خرجت من فمي هذه اللفظة عندما سمعتك تقولين انك للمنذر ..

وجعل يحدق اليها ، فلم يرَ جمالاً يشبه جمالها في تلك الساعة ..

قالت : والآن ؟ — اما الآن فأنت لي .. وسأبذل من أجلك مالي ودمي.

قالت : كذبت .. فانا للمنذر ، وسيحملني الفرات اليه جثة خرساء ..

ووثبت فجأة الى الماء كأنها تثب في رمال الربدة .. ففتح الفرات شدقيه ، وأهوى بها الى جوفه الجائع .. فاختنفت فتاة طيء الحسناء .. في الأعماق ...

واحتجبت الشمس في الوقت نفسه ، وراء الأفق ..

فصاح الجبان صيحة ذعر ، وجعل يستغيث باولئك الرعاة الراجعين الى كربلاء ولكنهم كانوا يسخرون منه ، وينظرون الى المياه المضطربة نظرات الخوف والرعب .

وأي رجل في العراق ، يجسر على ان يتصدى للتيـــار الهائج المجنون الذي ترقص فوقه سفينتا الجسر ؟

بحر عجاج ، ينحدر صخاباً مما يلي كربلاء .. حتى ينتهي الى مـا وراء ذي قار .. ثم ينساب هادئاً كما تنساب الأفعى حتى يجاوز منازل بني اياد .. والناس في حالتيه ، في صخبه وهدوئه ، لا يطيب لهم ان يداعبوا مياهه المستبدة الظالمة التي لا تقبل الشفاعات ..

استغاث كليب فلم يصغوا اليه .. وهو يتفرس في المـــاء فلا يبصر ظلًّا لهند فمكث لحظة ، يندب في سوء حظه ، ويبكي انتقامه وغرامه ، اذا كان هنالك غرام .. ثم لحق بقومه، كالنذل يفرّ من واجبه .. وهو يقول في نفسه : حسبي، ان نار الحقد المتأججة في الصدر قد خمدت الآن !

وقال لعامر عندما سأله عن هند :

لقد آثرت الرقاد الابدي في جوف الفرات ، على الحياة بعيدة عن المنذر !

وقصَّ عليه حكاية ذلك الموت العجيب الذي رأته عيناه ، وكأنه كان يقصُّ خبراً قديم العهد لا يعنيه !

وقد اضمحلت من صدره تلك العاطفة الكاذبة التي ظنّها غراماً ..

١٥

أمير التغلبيين النازلين بين الفرات ودجلة ، عتيبة بن قيس .

وهو رجل مضياف، وذو مروءة وشرف وعز ، في تلك الناحية من العراق.

ينزل عليه الضيف فلا يسأله عن أمره ، وينظر اليه ، ولو مكث بالحي عاماً كاملاً ، كما ينظر الى الرجل من قومه ، ومن لحمه ودمه .

ولكنه يسأله عن اسمه ، وعن البلد الذي خرج منه .

فلما اقبل كليب على الحي ، استقبلته غلمان عتيبة يقودون نوقـــه الى موضع

جعلوه لنوق الضيف ، ولم يلبث عتيبة نفسه حتى هشّ لضيفه ورحب به ، ثم دعاه الى خيمته وسأله قائلا : ممَّن انت يا أخا العرب ؟

– من النمر .   – النمر النازلة في بادية الجزيرة ؟   – اجل .

قال : انتم حلفاء ابناء عمنا الذين يقيمون ببادية العراق .

– نعم ، وسيد تغلب في تلك البادية عبدالله بن الفهر .

قال : ان عبدالله يحارب الفرس اليوم مع المسلمين .

– وانا قادم من ساحة الحرب وقد اشتركت في القتال .

فاستوى عتيبة في مجلسه وقال : اذن تقصّ علينا أخبارها فقد انتهى الينا ان النصر يرافق الجيش العربي في جميع الميادين .

– الا يوم الجسر فقد قتل فيه قواد المسلمين وخسروا نصف الجيش .

– عرفنا ذلك من ابناء قومنا الذين يفدون الى الحيرة ، وماذا جرى في البويب؟

– فرَّت الفرس من البويب كما فرَّت من السواد وقد قتل مهران الفارسي ، من يد غلام تغلبي .

فأشرق جبينه قائلاً: بارك الله في تغلب فهي رحى القتال . نحن نحب المسلمين الذين يسترجعون مجد العرب ونبغض الاعجام ، ولكننا لم نشأ ان نخوض المجال ، ولم يشأ المسلمون الا أن يسلبوا بعض رجالنا نوقاً لهم اشتروها من الحيرة .. هذه هي عادة العربان .. يغزون ويأخذون ما تقع عليه العين لا يبالون بأصحابه ... ونحن لا نطيق ان نسعر النار بل لا نريد ان نحارب قومنا وان نكن على غير دينهم وانّا لنتمنى والله ان تنتهي خيل العرب الى المدائن ويجلس امير العرب على عرش كسرى ..

ثم قال : وانت ! لماذا تركت الحرب ؟

– تركتها لأن عمي اراد ان يستأثر بحصتي من الغنيمة .

– ومن هو عمك ؟   – انس بن هلال سيد العشيرة .

قال : اسلاب الحرب للأمراء الا اذا ارادوا ان يهبوها لقومهم .

– ولكني من هؤلاء الامراء وانا ابن اخيه .   – وهل قدمت وحدك .

لا ، فقد تركت القوم مع غلماني ونوقي على امل البقاء في ربوع الشام .

قال : اتعبر الفرات الى هذه الناحية من الارض ثم تعود منها لتسير الى ذلك القطر البعيد الذي تغص سهوله برجال العرب والروم ؟

– نعم فلم يبق لي ما أصنعه في النمر بعد الحادث الذي جرى بيني وبين انس.

– وتكون عوناً ، في الشام للمسلمين دون ان يكون لك فيها سيد يسلبك الغنائم .

– اجل وسأجد بين صفوف العرب ، فتياناً مثلي ، لا عشائر لهم في ذلك الجيش ، وليس لهم فيه رؤساء .

قال : ألا تصف لي المثنى بن حارثة الذي خلف أبا عبيد في القيادة ؟

– وماذا أذكر لك من صفات المثنى ؟ انه رجل شدة ودهاء وحرب ، كثير الجلد في ساحات القتال ، ولكنه خبيث ناعم يأخذ منك ولا يعطيك ..

– سمعتهم يقولون انه من صحابة النبي محمد بن عبدالله .

– انه منهم ، وقد سيّره خليفة محمد ، ابو بكر ، الى العراق ، وهو الذي أطمع أبا بكر والمسلمين في الفرس . قال : ومن أي قوم هو ؟

– من بني شيبان . – وهل يجود على جيشه بجميع الغنائم ، كما يزعمون ؟

– لم يعطني شيئاً من غنائمه ، ولم يهب لي ديناراً من ماله .

فعرف عتيبة ان الفتى يبغض المثنى فقال : يخيل اليّ ان بينك وبين المثنى شيئاً تؤثر كتمانه . قال : لقد آثر عمي عليّ وهذا يكفي .

– وما رأيك في الحرب ؟ أنشارك قومنا فيها ام نبقى على ما تراه ؟

– خير لك ان تبقى في بلاد قومك من ان تخسر المال والرجال ..

– وهذه الغنائم الذي تكثر بين أيدي الجنود ؟

– لا تستحق أن تبذل من أجلها الدماء .

فقال في نفسه : ثائر على عمه ، وعلى المثنى ، وعلى المسلمين ..

ولم يرد ان يسيء الى كرامة الضيافة ، بكلمة يقولها له ، فقد كان يحب المسلمين كما قرأت ، ويهم بان يتقدم قومه ، حاملاً سيفه الى ساحة القتال ، لتكون له يد

في استرجاع المجد المفقود .. ولكي ينقذ هذه الكرامة ، نهض قائلاً لغلمانه :
اجعلوا خيمة ضيفنا بالقرب من هذه ، وأعدّوا له ما تعدونه للأمراء .
وخرج ليرى بعينيه نزول النوق ، والغلمان .
فلما انتهى الى ذلك الموضع ، لفت نظره فتىً طويل القـامة برّاق العينين .
وكان ذلك الفتى عامر فقال له : أأنت من غلمان النمري ؟
قال: مرّ عليّ وانا من غلمانه، بضعة ايام. - وماذا كنت تصنع قبل ذلك؟
- اني من صعاليك العرب ايها الامير ، وليس للصعـــاليك ما يصنعونه غير اللحاق بالجيوش والنزول على أبواب الامراء .
- وكيف تركت جيش العراق، وقد وضع يده على أنعامالسواد كلها يستعين بها على حرب الفرس ؟
- تركته لأني رأيت مع كليب بن خالد الذي هو ضيفك ، دنانير من الذهب لم أرَ مثلها زماني كله . قال : ويلك ومتى كان الامراء يهبون دنانيرهم للغلمان ؟
فجعل الفتى ينظر الى جانبيه ثم قال : لا والله لم يهبها لي ، ولكني قلت اني رأيتها .. في .. جرابه ...
وكأنه خـاف ان يبوح بالسر فيخسر رأسه .. وقد بدا التردد على وجهه ، وفي عينيه .. ورأى عتيبة تردده، فقال : احتفظ بسرك يا بني ولا تخن مولاك ، فانت في حي تصان فيه الكرامات وتحفظ الأسرار ..
وحوّل وجهه عنه كأنه لا يريد ان يسمع حكايته ..
ثم أقبل كليب ، فمشى عتيبة ينظر الى حال النوق ، وجلس الاثنان ، كليب وعامر في ظل احدى الخيام ، يتحدثان بامر الرحيل .
وكان عامر يرغب في ان يحدّث رفيقه بقضية واحدة ، هي قضية الدنانـير التي لم يتناول منها ديناراً واحداً بعد ..

* * *

نمكث بهذا الحى يومين اثنين ، ثم نرحل ، فقال عامر : الى الشام ؟

ـ اجل الى الشام ، فالعيش فيها طيب ولا يعرفنا فيها احد ، ـ والدنانير
ـ اما الدنانير فسأعطيك منها الشيء الكثير يوم نضع اقدامنا في تلك الأرض
قال : لقد كنت في الشام فانا لاأريد الرجوع اليها وخير لي ان اعود الى البوبب
ـ ولكنك كنت ذاهباً اليها قبل ان يبتلع الفرات هنداً .
قال : كنت تحتاج اليّ قبل ذهاب هند.. أما الآن فلم يبقَ الا ان تجود عليّ بالدنانير وتأمرني بالرجوع .
ـ بل تذهب فسأحتاج اليك في البلد الذي نرحل اليه ، وسيكون لك هنالك ما تطمع فيه ، من خير ومال .
قال : ما خلقت لأعيش في غير العراق .
وكان كليب يخـــاف ان يعطيه ماله فيعود الى معسكر المسلمين ويدلّ عليه القوم فتطلبه الخيل ، فقال : أعطيك الآن دينارين اثنين على ان تعيش معي العمر كله ، فقال في نفسه : انك والله ستقتلني قبل الوصول الى الشام ، ثم قال له :
اجعل الاثنين خمسة لتشتد بي الرغبة في الذهاب ..
فغضب كليب قائلاً : لا تلجّ في طلبك فقد قلت كلمتي الآن وسترحل ..
فابتسم الفتى وقال : لقد رضيت وسأفعل ما تامرني به ..
فناوله كليب دينـــارين أخرجهما من حزامه ، وكانت يده ترتجف وهو يجود بهما عليه .. فأخفاهما عامر في موضع لا تصل اليه الأيدي ، وقام فقال :
ـ خير لنا ان نرحل عند الصباح فقد يدركنا القوم .
قال : اني جار عتيبة بن قيس فلا أخاف .
ـ وهل يطيب لك ان تشتعل النار بـين عشيرتين ، من أجل ليلة تقضيها في هذا الحي . فأطرق ملياً ثم قـــال : أصبت فقل للغلمان ان يتهيأوا للرحيل عند طلوع الشمس وسأستأذن عتيبة الليلة ، وانصرف الاثنان والواحد منهما يهزأ بالاخر.
يريد كليب ان تضيـع آثاره فلا يهتدي اليه القوم الذين يطلبونه .. ولا تضيـع هذه الآثار الا اذا قتل عامراً .. ويريـد عامر ان يترك كليباً عند الصباح وهو راضٍ بذلك النصيب القليل الذي وهبه له .

وهكذا تنتهي المعاهدات عادةً .. بين اللئام الانذال ..

* * *

طلع الصباح ، فلم يجد كليب خيالاً لعامر ولرفاقه الصعاليك .

لقد تركوا حي تغلب عند نصف الليل ، دون ان يشعر بهم القوم .

وكان عامر يقول لهم : لم أرَ قط في كل من رأيت ، رجلاً اكثر لؤماً وغدراً من كليب بن خالد .. وليتنا أنقذنا هنداً ..

والصعاليك يلعنون الرجل ويوجهون اليه كلمات الثناء والشكر ..

أما كليب ، فلم يستطع الا ان يتعجل في رحيله ، قبل ان يلحق به القوم .

فودع عتيبة ، وساق نوقه ماشياً على شاطىء الفرات ، وهو يريد ان يعبره الى عين التمر ، ثم يسير منها ، في بادية الجزيرة ، بعيداً عن قبائل عنزه حتى يبلغ تدمر ثم ينتقل الى الشام .

ولم يكن يعلم أي بلد في الشام يقيم به ، بل لم يكن يعلم في أي بلد يصارع المسلمون الروم .

وكان غرضه ان يتغلل بين صفوف الجيش العربي، فيضيع في ذلك الجيش أثره ، ثم يجعل بلاد الشام ، وطناً له ، بعد ان تخمد النار .

وهو قد نسي العراق واهله، بل نسي كبشة التي هي من لحمه ودمه واذا مرّت في خاطره الذكريات ، ذكريات الزهراء ، وهند ، والفرات .. فانما هي تمرُّ كما يمرُّ النسيم العليل !!

بلى ! كان يذكر عمه ، والحقد يملأ صدره ، ويرى بعين تصوّره ، ابن عمه المنكود الحظ يبكي الفتاة التي أحب، فيبتسم لما يراه، وذطيب نفسه لهذا التصور الغريب الذي يغذّي حقده الوحشي !!

وقد رأى ان يغير اسمه وينتسب الي عشيرة غير عشيرته ، فأوصى غلمانه بان يكتموا عن الناس ما يعرفونه، ودعي منذ ذلك الحين ، حيان بن زيد ، من أرض نجد ، ولد في احدى البوادي ، وهو لا يعرف قومه !!

وكان يخيل اليه ، وهو سائر على الشاطىء ، ان اغصـــان النخيل المتدلية ، فرسان طيء والنمر ، وان تحت الرمال المحرقة يكمن الموت ..

حتى بلغ عين التمر بعد ثلاثة ايام وثلاث ليال ، فاطمأنت نفسه ، واستطاع ان ينام في الليلة الرابعة ملء جفنيه ..

١٦

يقرأ العربي آثار عدوه على الرمل فيتبعه من موضع الى آخر حتى تقع العين على العين .

وذلك ما فعله عبدالله بن الفهر والفتيان الثلاثة الذين يطلبون هنداً .

وكان الرجال الثمانية ، الذين اختـــاروهم من النمر وتغلب ، يعرفون العراق وبواديه كما قرأت ، ولهم خبرة بالطرق التي تسلكها طوائف العربان .

خرجوا من البويب ، بعد انقضاء الليل الأول ، على دفن انس بن هلال ، وهم يتمنون ، كما يقولون ، ان تكون لأفراسهم ، أجنحة الطير ، وكانوا يريدون بني تغلب النازلين بين دجلة والفرات .

وقد قام في ذهن عبدالله ، ان كليباً لجأ الى تلك الناحية الهادئة ، البعيدة عن عيون الجيش ، وان ام عامر العجوز ، كانت صادقة في قولهـا ان ولدها رجـل مع القوم الى موضع يجاور دجلة .

وكانوا يصفون كليباً لكل من يرونه من العرب ، ويسألونه عنه ، ولكنهم لم يسمعوا ، في كل ما سمعوه ، جواباً فيه لون من ألوان الامل .

على انهم كانوا يرون آثار نوق ، بينها أثار خيل ، فيمشي الخبيران الى الامام وهما يقولان : نوق كليب ، وخيل كليب ! والهم يملأ صدور الفتيان ، زبيد وزياد والمنذر ، وهم لا يصدقون الآثار التي تبدو للعيون .

حتى انتهى بهم السير ، في صباح اليوم الثاني الى ما وراء الحيرة ، فهمّوا بأن

يعبروا النهر من ذلك الموضع ، دون ان يمروا بكربلاء .
وكان الرمل كثيراً على ذلك الشاطىء تضيع فيه الآثار .
ولكن الشيخين الخبيرين أراذا كربلاء ، وكان النمري منهما يقول لأصحابه :
هذا والله حافر فرس كليب يغوص في الرمال !
فلم يرَ القوم الا ان يعدلوا عن العبور من ذلك المكان، ويسيروا وراء الشيخين الواثقين بما يعلمان .
فلما توسطوا الطريق ، أبصر زبيد ، وهو في المقدمـــة ، بضعة عشر رجلاً يستظلون بظل النخيل الجبار .
وأمام كل واحـد منهم جرابه واشياء له ، ثم ابصرهم القوم فصاحوا قائلين : طـائفة من الصعاليك.. وأركضوا افراسهم ثم أحاطوا بهم من النواحي الاربـع وجعلت العيون تتفرس في الوجوه ..
ثم قال زبيد وقد جرَّد سيفه : هذا والله عامر بن مذعور !
فتراجع عامر المسكين الى الوراء ، وهو ينظر الى جـانبيه كأنه يفتش عن مكان يفر اليه ، فسدت السيوف منافـــذ الفرار .. ووثب المنذر الى الأرض ، والسيف في يده والدموع في عينيه ، وهو يقول : ماذا فعلت بهند ايها الشقي .. قل اين هند ؟! فارتجفت ركبتا المسكين وعقد الخوف لسانه فلم يقل كلمة .
فقال عبدالله بن الفهر : دعوني فقد رأيت في المعسكر وجه هذا الفتى ولكني لا أعرف اسمه .. وابتسم له قائلا : انت عامر بن مذعور ؟
فرأى في تلك الابتسامة شيئاً من الانس . فقال : نعم انا هو .
ـ ومن هم هؤلاء ؟ ـ اخوان لي من صعاليك العربان .
ـ وأين كنتم ؟ ـ في كربلاء نطلب قوتاً !
ـ أجل ففي كربلاء قوت العراق كله ..
قالها هازئاً وهو يحدق اليه ، ثم هامسه قائلا : كذلك كان كليب بن خالد يطلب فيها قوت قومه .. قل اين تركت كليباً .
فتظاهر الفتى بالاستغراب وقال: ومن هو كليب هذا ؟ اني لا أعرف الرجل

ولم يذكر هذا الاسم أمامي من قبل !

قال لقد عرفنا كل شيء ايها الفتى فلا تلجأ الى الكتمان .. أين كليب ؟

– لا أستطيع أن أدلـّك على رجل لا أعرفه ..

– ولكنك تعرف ان لك اما في معسكر المسلمين وهي التي قصّت علينا حكاية الناقة والدينارين .. وحكاية هند .. فأرخى الفتى نظره الى الارض ولم يجب، قال : خير لك يا ابن مذعور ألا تتردد في الجواب .

فتمتم قائلاً : ومن يضمن لي حياتي اذا بحت بما أعلم ؟

– قل فأنا حافظ حياتك. قال : تركت كليباً في حي عتيبة بن قيس التغلبي.

– ومتى تركت انت ذلك الحي ؟ – عند نصف الليل .

– وهل عوّل الرجل على البقاء في بني تغلب ؟

– كان يتهيأ للرحيل عن الحي ، صباح هذا اليوم وانا أظن انه رحل .

قال : ليس وراء تغلب غير دجلة ، ووراء دجلة بلاد الفرس ، أفتراه يلجأ الى الاعجام وهم أعداء العرب ؟

– بل يلجأ الى الشام وقد سألني الذهاب معه اليها فلم أرضَ .

فقال المنذر : يحمل اللعين هنداً الى الشام ، ونحن نبقى ؟؟ اركبوا أيها القوم فسأسترجع الفتاة ولو جعلها ابن خالد في قصر قيصر .

فخفض عامر صوته وقال لعبد الله : لقد ذهبت هند ..

قال : ويلك ، أتكذب والسيف فوق رأسك ؟

قال : ليس لك الا ان تضرب عنقي اذا رأيت اني كاذب ..

– واين تذهب هند وهي اسيرة اللعين الغدار ؟

فأشار الى الفرات البعيد قائلاً : حملتها مياه النهر الى حيث لا نعلم .. الى منازل اياد .. ام الى الابلة .. ام الى الخليج .. لا والله لا أعلم في أية حفرة من حفر الفرات ترقد هند .. فسمع زبيد هذه الكلمة فصاح قائلاً :

ماذا تقول ايها الشقي ؟ أتقول ان هنداً حملها الفرات الى الخليج ؟؟

– بل قلت اني لا أعلم اين هي .. ولم أرها عندما وثبت الى الماء ..

فقال المنذر وزياد : وهل وثبب هند الى الماء ؟ ..

فرأى الصعلوك تلك اللوعة البادية على الوجوه ، فجحظت عيناه من الخوف واستولى عليه الذهر الذي يستولي على الاشقياء يوضعون بين يدي الجلاد .

وسكت سكوت الاموات .

فجعل الفتيان الثلاثة يستعطفونه ليقول ما يعلم ، والقلوب تكاد تثب من الصدور .. اما عامر فقد ابصر الموت ، على شفار السيوف .. فلم يقل كلمة ..

فقال عبدالله : قصّ عليّ كل شيء ولا تخف .

– وكيف لا اخاف وانا ارى الموت بعيني .

فالتفت الى القوم وقال : ان الفتى في جواري ايها الأمراء .. ثم قال له .. لقد أمسيت في عهد عبدالله بن الفهر ؛ فقل الآن .

قال : كانت هند قد استسلمت الى اليأس واسمعت كليباً ما لا يحب . ولكنها لم تلبث ، حتى استبدلت يأسها ، بمظهر من مظاهر اللين .. بل بمظهر من مظاهر الحب ، وسألته ان يجعلها زوجةً له . – وصدق الرجل ؟

– اجل ، وكنت اعلم انها تهزأ به ، فلم أعرض لامره ، ولم اذكر له شيئاً عن هذه المظاهر الكاذبة . – وبعد ذلك ؟

– امرنا بعد ذلك ان نترك الهودج واعطى هنداً فرساً فركبته حتى بلغنا جميعنا الجسر الذي يقوم بعد كربلاء ، فدعانا الى العبور قبله ، مع النوق ، وهند هي التي سألته ان يفعل ذلك ، فساد الصمت عندئذ وحبست الأنفاس ..

ثم تنهد وقال : على اننا لم نخطُ منه خطوة ،حتى لحق بنا كليب وحده وهو يقود فرسيه، وجعل يقول: لقد خسرت هنداً .. فقد وثبت الى الفرات وغاصت في اللجة . – ولم يكن على الجسر احد ينقذ الفتاة ؟

– كان هنالك بعض الرعاة الراجعين الى كربلاء فلم يجسر أحد منهم على الغوص في الماء .. – وماذا حفظ كليب من كلام هند ؟

– سمعته يقول : لقد آثرت الطائية الموت في الفرات على ان تكون لغير المنذر . فوضع المنذر يده على جبينه وقال : ولكن اعلمي يا هند ، ان المنذر

الذي اثرتِ الموت على ان تكوني لسواه ، سيؤثر اللحاق بك الى الاعماق ، على كل ما في هذا العالم من لذة ومجد .

وجلس زبيد وزياد وجعلا يبكيان كما تبكي النساء .. ان ذلك النبأ الفجائي ، صيَّر الفتيان اطفالاً ..

ثم دنا المنذر من الصعلوك وقال له وهو يحبس الدمع : وهل بقي شيء تقوله أيها الفتى ؟ فقال : رحماك ايها الأمير فأنا لا ذنب لي .

ـ والدواء ايها اللعين ؟. كيف نسيت حكاية الدواء الذي تعالج بـــه امك العجوز ، جراح الرجال !؟ تخدع هنداً ، وتدفعها الى الهاوية .. الى الموت ، ثم تقول لا ذنب لي ! واي فتى استعان بـه كليب بن خالد على اختطاف هند ؟؟. انت ! عامر بن مذعور ! صعلوك من صعاليك العرب تمدّ يدك الى بنات الاشراف وتنسى ان وراءهن السيوف والرجال ! قل ماذا أعطاك ابن خالد وفي اي بلد من بلدان الله اراد ان يحتمي هو وتحتمي أنت .. قل ماذا اعطاك فأنت تبيـــع نفسك وتبيع امك نفسها بدينار واحد ..

فصاح قائلاً : والله ما أخذت غير دينارين وقد وعدني بان يعطيني ما أشاء اذا ذهبت معه الى الشام !

ـ إذن كان ثمن أحسن فتاة في العرب، دينارين اثنين .. والله سأجعل ثعالب الصحراء الليلة تكرع في دمك ، ورفع سيفه قائلاً : اذكر الآن الدنانير التي أخذت وهمّ بان يضرب عنقه .

فذعر عبدالله وقال : انه في جواري أيها الامير ! فارتجفت يـــد المنذر ، وسقط السيف من يده وهو يقول: إي والله انه في جوارك وقد نسيت . ويلاه. أيكون الفرات قبراً لهند ، ويعيش قاتلها في جوارنا لا تصل اليه الايدي ؟ قال: أراد الله ما لا نريد يا بني ، فاستبقِ الفتى فقد يكون عوناً لك على بلوغ غايتك من عدوك . فرفع المسكين يديه الى العلاء وقال :

لقد ندمت على ما فعلت وسأجعل حياتي من الآن ملكاً لك ... فاطلب ما تشاء ...

قال : وماذا أطلب أيها الشقي وقد ماتت هند ؟ أطلب ان أقف على ذلك الجسر لأرى الماء الذي غمر هنداً، وأتبين موضع القبر الذي قذفت بنفسها اليه..

والتفت الى أخويها قائلاً :

اتبعاني فقد نرى على صفحة الماء الصافي أثراً من آثار هند ..

واستسلم عندئذ الى عاطفته ، ورفع صوته في البكاء ، وبكى القوم .

حتى ان عامراً نفسه أحسّ بالدموع تجول في عينيه ..!!

١٧

كان رجل فارسي من الاهواز ، يعبر بزورقه الفرات ، قبل منازل بني اياد .

وهو ينقل في ذلك الزورق شيئاً من العاج ، وجلود الغنم والصوف .

وكانت منازل بني اياد ، على الضفتين ، من ناحيتي الشرق والغرب ، وقد حمل بعضهم السيف الى ساحة الحرب ، وبقي البعض الآخر مع طوائف من النساء .

والرجل الاهوازي ، من أصدقاء العرب ، في تلك النواحي ، ومن اولئك التجار ، الذين يبيعون أشياءهم ، بين القبائل النازلة على الشاطيء الآخر .

وفي الزورق ثلاثة من غلمانه ، وولد له يبلغ الثلاثين من العمر .

والاثنان ، الوالد والولد ، صاحبا مروءة ، وخلق طاهر شريف .

على انهما لم يكونا مقيمين بالاهواز ، بل كانت لهما ، في ذلك الجانب من الارض ، ضياع يقيمان بها ، ويقيم حولهما ، فريق كبير من الاعجام .

فلما بلغ الزورق الضفة الثانية ، وهمّ القوم بان يثبوا الى البر ، أبصر الغلمان ، على بعد بضع أذرع ، جسماً يضمه التيار بين ذراعيه ..

ولم يلبث هذا الجسم حتى انتهى الى الزورق ، ولامس جانبه .

فامتدت اليه أيدي الرجال الخمسة ورفعته ، فاذا هو جسم فتاة ، جسم هند الطائية التي يبحث عنها سادات العشائر الثلاث ..

وكان لصاحب الزورق ، علم بما يصيب اولئك الذين يسقطون في الماء ، وفي زورقه ما يعالج به امورهم . وقد عرف ، عندما وضع يده على جبين هند ، ان الروح لم تفارق ذلك الجسم الغضّ ، ولكن بينها وبين الموت ، قيد شبر ، فعمد الى علمه يصارع به هذا الموت ، وأمر فربط الزورق ، ثم قفز الغلمان الى البر يوقدون النار ، ويساعدونه في العمل الذي بدأ به ، ولم تمرّ ساعة ، حتى تنهدت هند ، ثم فتحت عينيها كالمحموم الذي تفقده الحمّى الرشد ، ثم أغمضتها ، فقال الاهوازي لولده . الى البر ، ولتنم الفتاة ساعة لتعود اليها الحياة .

وحملها الى مظلة في زورقه ، ثم وضع عليها غطاءً ، وراح فجلس مع غلمانه وولده يتحدثون بأمرها ، وهم يحسبونها من العرب المقيمة بذلك الجوار .

ثم انتقلوا الى ذكر الحرب ، فقال مهاتب سيد القوم :

سننضم الى صفوف الجيش بعد شهر ، فقد ندبت رجال الاهواز كلها لحمل السيف ، فأجابه ولده بهرام قائلاً : أيدعو القواد الناس من الاهواز ليحاربوا العرب بالقرب من الحيرة ؟؟ ان بين الاهواز وبين ساحة القتال مسير بضعة ايام .

قال : ليس من العدل يابني ان يدافع اهل المدائن وما حولها عن بلاد الفرس ، ويستسلم اهل الاقاليم الأخرى ، الى الراحة والهدوء .. نحن جميعنا جنود نذود عن الملك ونمنع الايدي من أن تصل الى التاج الفارسي ..

– ولماذا لم ندع الى الحرب قبل اليوم ؟

– لأن القائمين بامر الملك استهانوا بالفاتحين العرب ، في أول عهدهم ، فكتب النصر لهؤلاء ، الا في واقعة الجسر ، وتراجع الجيش الفارسي الى المدائن يتعثر بخيبته وفشله .. – يقولون اليوم ان النار ستشتعل في البويب .

– أجل ، وستبلغنا أخبار البويب بعد بضعة أيام ، غير اني اخشى أن ينتهي الامر غداً كما انتهى بالامس ويلبس قومنا ثوب العار .. اني احب العرب يا بني لأنهم رجال إباء وأهل وفاء ، ولي فيهم الخلان والاصدقاء ، ولكني لا أستطيع ان أوثر العرب على الفرس واتمنى لعدو قومي الظفر في الميادين ..

قال : لقد رأيت يا مولاي ان الفرس أنفسهم يساعدون المسلمين في تحطيم

عرش الاكاسرة واذلال فارس !! — وفي اي شيء رأيت ذلك يا بني ؟

— في هذا النزاع الذي يعمد اليه كبار القواد في المدائن . ! هـذا يريد ان يستأثر بالسلطان ، فيتصدى له الآخر طالباً حصته من السيادة والمجد ، فتغرق الدولة في هذا التنازع ، في بحر من الفوضى ، وتنحدر بعد ذلك الى هوة الفناء !!

— أصبت يا بني ، ان التاج الذي تمتد اليه الايدي الكثيرة لا يثبت على رأس صاحبه والويل للفرس ان لم يصفُ جوها ، ويجتمع شملها ، فان العرب ستزحف الى المدائن وتتخطف رؤوس القواد بالسيوف،ثم تدوس التاج الفارسي بالاقدام..

— وعندئذ نصبح في بلادنا غرباء !

فغيَّر لهجته قائلاً : ولكن من يعلم فقد تخلق الاقدار رجلاً يقود الجيش الى مواقف الشرف ، ويحفظ للفرس ، عظمة الماضي ، وبهجة الامس .

وسكت الرجـل .. فقد تململت هند عندئذ كما يتململ الجريح ، واستوت جالسة ، ثم جعلت تنظر الى الزورق ، والى الفرات نظرات الذهول ..

فقام مهاتب ، وهو يهشّ لها ويبتسم ابتسامة تظهر فيهـا عاطفة الحنوّ .. وتبعه ابنه ، وعلى ثغره ابتسامة تشبه ابتسامة أبيه ..

فقالت هند وهي تتفرس في الاثنين : أين أنا ؟

وكان مهاتب يحسن العربية ، فقال : انك في زورقٍ كما ترين ..

فذكرت وثبتها الى النهر قائلة : بل أنا في أعماق الفرات ..

قال : لا يبصر الذين في الفرات نور الشمس .. انك بيننا ونحن نحب العرب وان نكن من الفرس . فشعرت الفتاة بأنها تخاطب رجلاً تعرفه منذ أعوام !

لقد كانت لهجته لهجة أب يحـادث ابنته ، وكان وجهه طافحاً بالبشر .. والابتسامة العذبة لا تفارق شفتيه ، فتمتمت قائلة : إذن نجوت من الماء الذي غصت فيه ! — أجل ولم يبقَ الا ان تخبريني كل شيء .

وكانت ذاكرتها قد استيقظت ، فقالت في نفسها :

انه فارسي والفرس أعداء العرب فأنا أخشى ان يشمت بي في بادىء الامر ثم يعيدني الى الفرات الذي أخرجني منه ، ولكنه سيلجُ في طلبه فليس لي الا ان

أقصّ عليه ما جرى لي . لا .. سأقول له ان القدم زلّت بي عن الجسر فحملني الماء .. وكأن الرجل عرف ما يخطر لها في تلك الساعة ، فقال : أرجو ان تثقي بي الوثوق كله فسأكون لك أباً وأقسم لك بالالهة التي أعبد .

وقلب هند ، قلب طاهر يخفق في صدر فتاة ، الوفاء شيمة أبيها وقومها .

لقد أنقذها الرجل من الموت.. وقد يساعدها القضاء في الرجوع الى معسكر العرب ، فترى المنذر ، وتضمها امها وذووها الى الصدور .. وهي لم تؤثر الموت على الحياة ! بل آثرته على العيش مع كليب بن خالد ، وقد ذهب كليب الآن ، وأرسل الله اليها هذا الفارسي ، ليعيد اليها الامل الذي كاد يضيع .

اذن ليس من الشرف ان تكتمه ما جرى وتغمط نعمة الله ، فقالت : أتريد ان تعلم من أنا ؟ — نعم ، على ان تثقي بي كما قلت .

قالت : أنا فتاة من طيء ، خرجت مع قومي الى الحيرة ، بعد ان استعرت نار الحرب بين المسلمين والفرس .

قال : لا أعرف القوم الذين تذكرين، وما اسم أبيك ؟

— ابو زبيد الطائي وهو سيد عشيرته . — وأين أبوك وقومك الآن ؟

— تركتهم في البويب . — وشهدت حرب الجيشين ؟

— نعم ، وقد عالجت الجرحى من قومي وحملت الماء في ساحة القتال .

— وأي جيش ظفر بالآخر ؟

— كان النصر للعرب وقتل مهران قائد الفرس !!

فقال لولده بالفارسية : تهيأ للقتال يا بني فقد انتصرت العرب في البويب ، وقتلت مهران الفارسي ، وستزحف الى المدائن . ثم قال لها : وفرّ أهل فارس من الميدان ؟ — كانوا يفرّون عندما تركت المعسكر .

وجعلت تقصُّ عليه حكايتها ، منذ عرفت الحب ، الى ان ضيَّعت الرجاء ووثبت الى الفرات . واستسلمت الى البكاء ..

فقال : ان الاله الذي تعبده العرب هو الذي يمهّد لها سبل النصر في الميادين وهو الذي سيعيد حسناء بني طيء الى المعسكر العربي .. قومي نذهب فقد لا

يطيب لك النظر الى الفرات .. ولكن هنداً لم تكن تستطيع المشي، فأمر غلمانه بأن يحملوها وكان يقول : الخيل يا بهرام .

والخيل على الشاطىء ، يعدّها لهم أهـل الضياع لتحملهم الى المكان الذي يقيمون به فأحضرت الخيل ، غير انها لم تطق الركوب ، فوضعوا لها فراشاً على بغلةٍ لهم واحاط بالبغلة الغلمان ، ثم مشى القوم .

بهرام من الامام ، ومهاتب من الوراء ، والغلمان عن الجانبين ، وهند تفكر في ماضيها وحاضرها، وكلما ذكرت الفرات، تدب في جسدها، قشعريرة الموت .

وكان القمر يرسل نوره الى ذلك السهل الرحب ، الممتد من شاطىء الفرات الى شاطىء دجلة ، في أوسع بقعةٍ بين الشاطئين ، وكانت تظن منذ لحظة ، ان نور القمر هو نور الشمس ، وقد سمعت مهاتب ، وهي في الزورق ، يقول لها . ان الذين ينزلون الى اعماق الفرات لا يبصرون نور الشمس !!

فرفعت رأسها قائلة : نحن الآن في أول الليل أليس كذلك .

فركض الرجل فرسه حتى داناها وقال : أجل، ولكني ذكرت لك الشمس لأبعد عنك وحشة الليل .

فاستعادت موقفهـا على الجسر ، فذكرت ان الشمس كانت تحتجب عندئذ وراء الافق ، فقالت في نفسها : لقد غمرني هذا الفارسي بمروءته واحسانه حتى انه اراد أن يجعل الليل نهاراً ليبعد عن عيني اشباح الظلام ! .. وأملى عليهـا الوفاء ان تردد كلمات الشكر، فقال : نسيت ان أسألك عن الاسم الذي تحملين . قالت : هند .

قال : اسمعي يا هند .. اني الليلة أسعد أهل الارض .. — لماذا ؟

— لأني أنقذت نفساً من الموت . قالت : اظن انك لست من رجال السيف .

— بلى .. اني من رجاله ، ولم يندبني قومي لحمله مرةً الا حملتـه . ولكن الفرات لم يشهر عليّ سيفا .. وعندما لامس جسدك الزورق لم تكوني من اعداء الفرس .. بل كنت جثة تتململ بين ذراعي القضاء ..

— ولكني من العرب والعرب أعداء قومك ، وانت تستطيع أن تأمر غلاماً

من غلمانك ، فيضع خنجره في صدري ، وتتعزّى عن فشل الفرس في الحرب ، بانك سفكت دماً عربياً وقتلت فتاة من بنات الامراء ..

قال ؟ لو تصدّى لي أبوك وأخواك في الميدان ، وقدرت على أن أضرب رقابهم جميعاً ، لما ترددت في الامر ، واما ان اسفك دما بريئاً ، واقتل فتاةً طرحتها الاقدار بين يديّ ، فهذا ما لا تستطيع الجالسة على عرش الاكاسرة ان تكرهني عليه !

قالت : لقد انقذت حياتي ثم لم تشأ الا أن تحيطني بالفضل الى الابد ، فانا اذن اسيرة هذا الفضل ما بقيت .

وهمّت بان تسأله ان يعيدها الى البويب، ولكنها كرهت ان تفاجئه بمثل هذا السؤال، قبل ان تصل الى بيته، وقبل ان تستعيد القوى التي عبثت بها مياه الفرات .

فسكتت، وهي تفكر في المنذر المنكود الحظ ، وتذوب شوقاً الى الوالدين والاخوين ، الذين أبعدها عنهم جور الزمان .

فقال مهاتب : الليل طويل يا هند فلا تعمدي الى السكوت .

— اني افكر في احسانك ، ويخطر لي ان اسألك قضاء حاجة لي ..

— اما انا فقد عرفت هذه الحاجة .. تريدين ان ترجعي الى المعسكر !

— أجل ، وسأحمل اليه اخبار هذه المروءة التي لمستها بيديّ ..

ـ ولكنك لا تستطيعين اليوم ، الرجوع الى البويب ، وبينك وبينه السهل والفرات ، وقبائل من العرب تنهب وتسبي ، وطوائف من الفرس ، تروح وتجيء ، في ايديها السيوف ، وفي صدورها ظمأ الى الدماء .. !

قالت : ان شئت فابعث بي مع غلمانك .. قال : لا يحسن الغلمان الدفاع عن النساء . ـ ولكنك تحسنه أنت .

قال : خير لك ان تنزلي ، من جديد ، الى جوف الفرات، من ان تعودي الى البويب ، مع مهاتب الفارسي ، وفرسان قومه ! اني أخاف عليك وعلى نفسي ، الفرس والعرب .. قالت أضمن قومي فاضمن أنت قومك .

فقال : بين الشاطئين قبائل من العرب لم تشأ ان تشارك المسلمين في القتال ، فكيف تضمنين ياهند القوم الذين لاتعرفين؟! — انتسب الى طيء وهذايكفي.

— ولكن قد تجدين بين القوم عشائر بينها وبين طيء ، ثأر ودم.. اما الفرس .. فمن يستطيع ان يضمن الفرس في هذه الأيام ، يرونني ، وأنا سائر الى معسكر العرب مع فتاة من هؤلاء ، فتهيج النفوس الثائرة على كل عربي ، وتنوب السيوف عن الكلام .

فرأت هند ان الصواب فيما يقول ، فجعلت تذرف الدموع ، ولكنها لم تضيّع الرجاء ، بالرجوع الى قومها بعد حين .

وكان الرجل يقول : ومع ذلك فسننظر في الامر عندما ترد علينا أخبار رستم والفيرزان، فهما لا يسكتان على ذل، ولا يطيقان ان تخسر فارس العز الذي يتمتعان به .. ومن يعلم ، فقد ننتقل بعد ايام الى ضواحي الحيرة يحمينا الجيش ، ثم نبعث رسولاً الى بني طيء ينقل اليهم حكاية هند ..

قالت : ارى اني أستطيع الرجوع ، مع غلام واحد يعنى بأمر فرسي ، ويدلني على الطريق السهل البعيد عن الناس !! — واذا رأيت كليباً ؟

فذعرت قائلة : لا .. اني لا أطيق ان أرى صورة كليب ، وسأبقى في ظلك حتى يعيدني الله الى من احب .. وأغمضت عينيها لترى بين الجفون صورة الحبيب ..

وقد أحسَّت بشيء من العزاء تبعثه الى قلبها ، عاطفة الرجل الشريف .

١٨

لم يكن في بيت مهاتب ، غير فتاة له لا تجاوز العشرين ، وفتيين أكبرهما في الثامنة عشرة من العمر .

ولكن عنده طائفة من الخدم والغلمان ، شأن اولئك الملاك الذين يعيشون

في الحقول ، بين الفلاحين والزرّاع ، وقد ماتت زوجته واثنان من بنيه ، في سنة بسط فيها الوباء ظله الرهيب ، في ذلك الاقليم النائي ، من أدناه الى اقصاه .

وكانت ابنته بشتاسب ، ذات عقل ورأي .

فلما اقبل القوم ، ورأت هنداً ، قام في ذهنها انها جارية اشتراها ابوها بماله ، كما كانوا يفعلون في ذلك الزمان .

ثم لم تلبث حتى عرفت انها حورية قذف بها الفرات الى الشاطىء ، وان اباها من أشراف العرب ، الذين لهم منزلتهم في بادية العراق .

فاستقبلتها كما تستقبل الاخت اختها ، ورأت هند الى جانبها فتاةً مثلها تشكو اليها همها وما تلاقيه من ألم الفراق .

وكان الليل قد مضى نصفه ، فانصرفت هند الى المخدع الذي أعدوه لها ، لتناجي طيف المنذر ، وجلس مهاتب في بهو مطلّ على ذلك السهل ، ثم جلس بنوه حوله يتحدثون بأمر هند .

ومن رأي الرجل ، ان يبذل الجهد والحيلة ، في ارجاع هند الى البويب ، وكان يقول : سينتهي قريباً أمر دولة الفرس وسيخفق فوق هذه الربوع العلَم العربي ، فقالت بشتاسب : ان لي في هذا رأياً يا مولاي . قال : ما هو ؟

– ننتظر حتى نعلم ما يجري في البويب بين الفريقين .

قال : لقد ظفر المسلمون وانتهى الامر . -- ومتى عرفت ذلك ؟

– في هذا الليل فقد خبرتني هند وهي قد شهدت الواقعة .

– اذن سيبعث رستم والفيرزان رسلها الى الأقاليم ، وسيجمعان الجيش من جديد ، ليصارعا الفاتحين ، في واقعة اخرى تجري فيها الدماء كما يجري الفرات.

– أجل سيكون ذلك وستصل قريباً رسل القائدين .

– وستحمل انت السيف ، مع أخي بهرام ، كما يحمله سواك . – نعم .

– ولكن ألا يجوز ان تقع انت أو يقع اخي أسيراً في أيدي العرب ؟

– بلى .

– اذن تقضي عليك الحكمة بان تبقي هنداً في منزلك ، وبين ولدك ، ربما

تنتهي هذه الحرب ، وتوضع السيوف في الأغماد .

– أي انك تريدين ان نجعل هنداً فداءً لنا اذا كان نصيبنا الأسر .

– نعم يا مولاي ، اريد ما ذكرت ، وتملي عليّ الحال الحاضرة ، أن أفكر في أمر آخر تحفظ معه النعمة التي نعيش بها الآن . – قال : ماذا ؟

قالت : لنفرض ان المسلمين زحفوا بعد شهر أو شهرين الى المدائن ، وطردوا أصحابها منها ، ووضعوا أيديهم على العرش . – وبعد ذلك ؟

– ثم عمدوا بعد ذلك الى رجالهم يرسلونهم عمالاً الى كل اقليم من اقاليم فارس ، وينحّون أهل البلاد والأشراف الذين ورثوا الامارات .. أفلا يطيب لك عندئذ يا مولاي ان يجعلوك أنت عاملا لهم على الاهواز ، تجبي لهم الخراج ، وتستظل بظل خليفتهم الذي يهمّ بان يفتح هذا الشرق ، كما يقولون ؟

قال : يخيل اليّ انك تقصين عليّ حلماً من الاحلام !

– بل اقصُّ عليك حكاية تكتب يد القدر سطورها ، في فضاء العراق .

– ومن يرفعني الى كرسي الامارة ، وانا اعيش في هـــذه الناحية البعيدة ، أستثمر ارضي ، وأبيع صوفي وعاجي ؟ – هند !

فضحك قائلاً : لم يخطر لي ، ان هذه الفتاة ، التي انقذتها من الفرات ، تستطيع ان تجعل للناس عروشاً ، في الأقاليم .

– اما أنا فيخطر لي انها تقدر على اعظم من ذلك .. اسمع يا مولاي ، ان اباها من امراء العرب وأشرافها ، وله في قومه مقام يشبه مقام المرازبة ، في بلاط الاكاسرة ، أليس كذلك ؟ – هذا ما ذكرته لي .

– وهو اليوم ، يطوف في العراق مع قومه ، ومع الأمير الآخر الذي سيجعل هنداً زوجة له ، باحثين عن الفتـــاة ، التي حجبها عجاج المعركة في البويب عن عيون الجيش .

– ولكنهم سيضيّعون آثارها عندما ينتهون الى الجسر الذي يلي كربلاء ...

– وسيندب ابوها وذووها حظهم ، ويبكون فتاتهم التي اختطفتها الجن ... ولكنهم سيعلمون غداً ، عندما يفتحون المدائن ، ويستولون على عرش كسرى

ان هنداً باقية ، وقد كانت في حمى رجل فارسي ، عزيزة الجانب عزيزة المقام .. فقل لي يا مولاي : ماذا يقول ذلك الأمير العربي عندئذ لمنقذ ابنته ، وأية عاطفة تغمر نفسه ، عندما يرى هنداً بين ذراعيه ؟؟

فأدرك الرجل في تلك الساعة حكمة فتاتـــه ، فقال : لقد حمل الينا الفرات خيراً ونحن لا نعلم ، أجل سأحتفظ بهند كما تقولين وسأوصي الناس حولنا بان لا يفضحوا السر . — ولكن يجب ان تعلم هند انك ستجمعها بقومها بعد حين.

— سأقول لها ذلك غداً وستنسيها العناية والرفق لوعة الفراق .

وانصرف القوم الى مخادعهم ، وفي قلوبهم همّ الحرب ، وفشل الفرس في الميادين ، حتى يقابله من الناحية الاخرى ، ذلك الأمل الذي بُعثته بشتاسب الى الصدور .

١٩

— اجعل هؤلاء الصعاليك جميعهم غلماناً لي ، وتعيش انت في قومي يا ابن مذعور كأنك منهم ، اذا عرفت ان هنداً نجت من الفرات !

قالها المنذر ، وهو لا يكف عن البكاء .. وزبيد وزياد ساكتان ، وقد عقد لسانيهما ذكر الموت .

فقال عامر : سأمشي في كل يوم عشرين فرسخاً على شاطىء الفرات ، حتى انتهي الى منازل بني اياد ، ومنها الى ملتقى النهرين ، وانا اسأل عن الفتـــاة التي غدرت بها باغراء اللعين كليب بن خالد ، وركب القوم والصعاليك امامهم حتى بلغوا الجسر .

فوقف عامر قائلاً : امرنا كليب بالعبور ، وهو قائم عند هذه الجبال ، ومعه هند والفرسان ، وليس وراءهما احد .

فرأى الفتيان مـــاء النهر ينحدر بعنف ، تحت الجسر حتى ليزعزع الجبل الراسخ اذا عرض له ، والجسر يرقص جانباه ، ويتهادى فوق الماء كالسكران لا

لستقر قدماه .. وخشبه الذي تنفجر المياه من عيونه .. يئن من ظلم التيـــار الصخاب ، وقساوته وجوره .

رأوا بحراً ، تضطرب امواجهُ ، ويثور عجاجه .. يضيق عنـــد الجسر ، وينفرج بعده طاغيا على ضفتيه .! وتمثلوا هنداً ، يرفعها التيار ويخفضها كالقوي يستبد بالضعيف ويعبث به ! فخنقت القلوب من الذعر ، وبدت اللوعة بمظهرها البليغ ، على الوجوه وفي العيون ..

هنا سقطت هند .. في الهوة المظلمة البعيدة الغور .. وفي الهوة المظلمة يرقد الجسد الغضّ والشباب النضير ..! لا . ان الاجساد الضعيفة لا تثبت في الاعماق بل يحملها الماء الى حفرة بعيدة يخور عندها قواه .. او يظل يدفعها ، بوحشيته وعتوّه ، الى ذلك الحوض الواسع الذي يقال له البحر ..

وبينا القوم يستعيدون في اذهانهم، هول الفاجعة ، كما يصوّرها القلب الخفاق وهم ينظرون ، بالعيون الباكية ، الى الشاطئين ليتبينوا اثار هند ، أقبل رعـــاة كربلاء ، يعبرون بنوقهم وغنمهم على عاداتهم كلما غربت الشمس .

فقال عامر : اسألوا هؤلاء الغلمان فكأني رأيتهم في ذلك المساء .

فاستوقفهم عبدالله قائلاً لهم : أتعبرون الفرات كل مساء ايها الغلمان ؟

فقال احدهم : اجل ، نعبره كل صباح ، وفي مثل هذه الساعة .

ـ اذن اسألكم سؤالاً قبل ان تنصرفوا . قال : تسألنا عن فتاة هوت الى النهر !

ـ نعم ، وكان معها فتىً يقود فرسين .

ـ رأيناه ، وسمعناه يستغيث بالناس فلم يجسر احدنا على الدنوّ من الموت .

فخطر لعبد الله خاطر فقال : ويـل اللعين ، يدفع الفتاة بيديه الى اللجة ثم يستغيث بأهل كربلاء ليعيدوها اليه ؟!

فسكت الغلام فقـال : قصّ عليّ ما تعلم ولك مني ما تشاء ، ومدّ يـده الى لمّه ليعطيه درهمين .

فقال : لا والله لم يدفعها بيديه كما تقول ، بل رأيناها ، ونحن في اول الجسر ، تثب وثباً الى المياه .. ثم لم نرها بعد ذلك .

قال : أتعرف الشاطىء الشرقي ايها الغلام ؟

ـ اي والله اعرفه كله وكنا نجعل بعض المراعي فيه ، مرابع للنوق ، قبل ان تزحف العرب الى العراق . ـ وتعرف القبائل النازلة فيه ؟

ـ تقيم باطرافه ، من قبائل العرب ، قبائل اياد ، وهي تنزل على الضفتين ، أما السهل ، السهل الممتد الى دجلة فليس فيه من قومنا غير تغلب ، وتغلب في أعلاه . ـ ومن أهل فارس ؟

ـ ان طائفة كبيرة من أهل فارس تقيم به ، ويقال لهم « أهل الصوف » .

فقال زبيد : أليس في كربلاء رجال يحسنون الغوص في الماء .

فابتسم قائلاً : كلنا نغوص فيه ولكن في الاماكن التي تشبه الاحواض . اما هنا .. هنا عند الجسر ، فالويل لمن يفعل ..

ومدّ يده الى الامام وجعل يقول : وماذا ينفع الغوص في بحر لا قرار له ؟! انكم لا تجدون جثة الفتاة في هذا المكان .. لقد حملها الماء .. الماء قوي حتى ليستطيع ان يحمل هذه الطائفة من النوق ويغيّبها في جوفه ، وأنا لم اسمع من قبل ان ناقةً او امرأةً او رجلاً سقط في الفرات ثم عثر على جثته ، انه يبتلع الجثث. اي والله يبتلعها كلها فلا يبين لها اثر بعد ذلك !

وحوّل الغلام وجهه، كأنه لا يريد ان يزيد كلمة اخرى على خطابه، ومشت النوق ، ووراءها الرعاة .. يرقصون على السفينتين .

وكان المنذر يتفرس في المياه الهائجة ويــده على جبينه فلما انتهى الغلام من خطابه ، رفع رأسه قائلاً : سأمشي كل يوم عشرين فرسخاً ، على هذا الشاطىء ، كما يمشي عامر بن مذعور لعلي أسمع كلمة واحدة عن ضحية الوفاء، وغصّ في البكاء.

وجعل زبيد يقول: وانا لن اعود الى المعسكر حتى احمل الى ابي وامي جثة هند!

فقال عبدالله : والله لا ينقل احدكم قدماً الى هذا الشاطىء وانا معكم ، نحن اليوم في حرب ، وبين الفرات ودجلة طوائف من اهل فارس تقيم بالسهل ، فليس من الرأي ان نطرح بانفسنا جميعاً الى هوة الموت . فقال زياد : ونترك هنداً ؟

ـ يسير عامر بن مذعور كما قال ، ويحمل الينا اخبارها .

ـ ونعود نحن الى معسكر العرب ، متعثرين بالفشل ، حاملين الى بني طيء اخبار الفاجعة ، لا والله لا نرجع الا ونحن نحمل واحداً من اثنين ، اما جثة هند اما رأس كليب !

ـ اذن نسير نحن الى الشام ، ويسير عامر الى حيث يسير الفرات .

ـ بل نسير جميعاً الى الموت بقدم ثابتة فلا خير في الحياة ، بعد هند !

قال : أقسم بالله الذي نعبد ، لئن خطا احدكم خطوة واحدة الى حيث ينزل الفرس لاقذفن بنفسي الى الماء كما فعلت هند ، ذلك خير لي من ان اسلم أميري طيء واميز النمر الى ايدي الاعداء !..

ووقف على شفير الجسر وهو يقول لرجال تغلب : اذا سار هؤلاء الى حيث يقولون فارجعوا انتم الى المعسكر وانعوا للعشيرة وامراء الجيش اميركم عبدالله ابن الفهر ! وقال للفتيان : كلمة اخرى ، ينزل عبدالله بعدها الى الأعماق !

فقال زبيد : صدق الامير فقد لا نرى خيراً على هذا الشاطىء ويكفي ان يطوف عامر بين منازل اهله ، الى الشام ..

فردد المنذر كلمته قائلاً : الى الشام ! وهو لا يعلم ما يقول .

لقد جرت افكاره وراء الماء، ثم ضاعت في ذلك السهل الذي تصوّر وجوده . وهو لا يصدق ان الموت مدّ يده الى من أحبّ ..

فقال عبدالله عندئذ : ترحل يا ابن مذعور عند الصباح مع غلام واحد من رفاقك ويرجع هؤلاء الى البويب . ـ وأين نلتقي يا مولاي ؟

ـ في المعسكر ولكن لا نعلم متى يكون اللقاء .

قال : اني لا اجسر على الرجوع الى البويب قبل ان تعودوا .

ـ بل ترجع ، فليس في رجال العشائر من يعرفك .

ـ يعرفني قائد الجيش نفسه وقد حدثني وحدثته ..

ـ ولكنه لا يراك ولا يخطر له ان يزور بعدُ ، حي الصعاليك .

ثم قال للغلمان : اما انتم فاذا اتيتم البويب فاسألوا عن ابي زبيد الطائي ، وخبروه ما رأيتم وسمعتم ولكن احذروا ان تذكروا له موت هند .

فأجابه احدهم قائلاً : وماذا نقول له اذن ؟

ـ تقولون ان كليباً حملها الى الشام ونحن قد لحقنا به .

فقال عامر: أرى يا مولاي ان يسير احدكم الى بني تغلب فقد يكون كليب باقياً في ضيافة عتيبة بن قيس ، قال اي والله فقد نسينا هـــذا ، ولكن تذهب انت ومعك هذان الرجلان وسنبيت نحن وراء الجسر .

وأشار الى اثنين من النمر يرافقان عامراً ، في ذلك الليل ، فلم يتردد الاثنان في المسير ، يتقدمهما ابن مذعور ، ورجع القـــوم الى البر ، يضربون خيامهم لينتظروا رجوع الثلاثة .

وقد قضوا الليل كله لم يغمض لهم جفن ، والحزن الذي يذيب القلوب ، يمدّ فوقهم رواقه ، الذي هو أشد سواداً من الليل .. حتى طلع الصبح ، وقد جفّ الدمع وثقلت الجفون .. فعاد القوم يقولون : لقد رحل كليب ..

فنهضوا ، وقد لمع الحقد في عيونهم ، وامتطوا صهوات الخيل قائلين : الويل للخائن اللئيم ..

٢٠

عندما فتح الجيش العربي دمشق ، أعاد قائده ، ابو عبيدة ، جند العراق الى العراق كما قرأت في «رواية هند والمنذر» جاعلاً هاشم بن عتبة بن ابي وقاص قائداً للقوم ، والقعقاع بن عمرو على المقدمة ، وعمرو بن مالـك الزهري ، وربعي بن عامر على الجناحين .

ثم استخلف على دمشق يزيد بن ابي سفيان ، وخرج هـو الى فحل ، لاحقاً بقواده العشرة، الذين ارسلهم اليها قبل الفتح، عملاً بارادة عمر بن الخطاب، الذي أمره بأن يبدأ بدمشق ، ثم يسير بعد ذلك الى هذا البلد الذي احتمت وراء أسواره جنود الروم .

على مقدمة الجيش خالد بن الوليد ، وعلى الناس شرحبيل بن حسنة ، وعلى الجانبين ابو عبيدة بن الجراح نفسه وعمرو بن العاص ، وضرار بن الازور على الخيل ، وكان الروم قدبثقوا المياه حول فحل ، كما مر ، وامست الارض وحلاً.
فلما انتهى المسلمون اليها، لحاطوا بها من النواحي الاربع ، وكتب ابو عبيدة الى امير المؤمنين ، يسأله الرأي .
وتلك عاده قواد المسلمين ، يحطمون الأسوار ، ويفتحون المدن ، ثم ينتقلون من قطر الى قطر ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً مما قرأت ، ولا يخطون للفتح خطوة واحدة ، الا بأمر ابن الخطاب .
كان عمر ذلك الخليفة العظيم ، ذلك الملك الذي تنحني لذكره رؤوس الملوك والأمراء ، لم يشأ الا ان تكون دولته ، على امتدادها واتساعها ، في يده ، لا يشهر سيف ، في سبيل دفاع او فتح ، الا بعلمه .
عمر ! نعم عمر نفسه ، وهو في المدينة ، يسيّر جيشي العراق والشام ، كما يطيب له، وكما تملي عليه مصلحة الاسلام ، والقواد، في الشام والعراق ،يخضعون للأمر الصادر من الحجاز ، دون ان يقولوا كلمة ، ودون ان يرتفع لهم صوت !!
سيروا الى الاردن ، وانزلوا في القادسية ، واجعلوا فلاناً على الخيل ، وفلاناً على الطلائع ، وفلاناً على الجناحين ، فيفعل القواد ما يأمرهم به ، وتخفق فوق صفوفهم اعلام التوفيق والنصر !
وكل كلمة يقولها فاتح مسلم لامير من امراء الروم والفرس ، يمليها عمر ، وكل خطاب يوجه الى ملك ، يأذن عمر فيه !!
عمر بن الخطاب هو الدولة ، في يده اليمن ونجد وتهامة والبحرين والحجاز والعراق والشام !! وحوله عصبة يؤمنون بالله ويخافونه ويقدسون رسوله العظيم الذي أخرجهم من الضلال الى الهدى ويطيعون خليفته ولو كان في الطاعة الموت!
والناس يعجبون منذ ظهر النبي الى هذا اليوم ، ويقولون : كيف استطاع الفاتح العربي ان يخضع الشرق ويمد يده الى الغرب !.
ولكن هذا العجب يضمحل ، عندما يلمسون بالايدي ، تلك الارادة العربية

الجبارة ، والعقيدة الصادقة ، الراسخة رسوخ الجبال .

أقام الجيش ينتظر جواب امـــير المؤمنين ، وهو على حذر ، لا يبيتون ولا يصبحون الا على تعبية ، كأنهم ينازلون عدوهم ، في كل يوم .

فقال الروم في أنفسهم : لقد خاف المسلمون وهم يهابون ان يباشروا القتال؛ فخير لنا ان نبدأ نحن به .

وقال قائدهم في صباح يوم يخاطب رجاله: تهيأوا للبراز في هذا المساء فسنفاجيء القوم بالسيف ، بعد ان تغرب الشمس .

وكان شرحبيل بن حسنة ، يطوف بين صفوف العرب ، في النهـــار والليل والويل للعربي الذي لا يسرج فرسه ويحمل سيفه .

وكان يقول : لا تنسوا انكم في حرب ، وقد يخطر للعدو ان يخرج للقتال في ظلام الليل ..

فلما كان ذلـــك المساء ، خرج الروم ، وهم يرجون ان يأتوا القوم على غرّة ، وقد فاتهم ان السيوف في الايدي ، وان العيون لا تنام .

واقتتلوا في ذلـــك الليل اشد قتال لا يعرف الفارس الفارس الا من لباسه ، فكان العربي يضرب بالسيف خوذة الرومي فيحطمها وتنتهي ضربته الى الرأس ، ثم يقول لجاره : اقصد الخوذ التي تتلألأ فأخمد نورها !

حتى طلع الصباح، وأبصر العدو عدوه، فاستعرت النار من جديد ، فمزقت الحراب والنبال الاجسام ، وهوت الفرسان عن ظهور الخيل ، وتعانقت السيوف ذلك العناق الرهيب الذي يعقبه الموت .

والمسلمون يدفعون عدوّهم بالأسنّة ويبعث ابطالهم الرعب الى الصدور الى ان اقبل الليل الثاني ، فحار الروم ، ولم يروا الا ان يفروا من وجه السيف .

على ان الماء الذي بثقوه حول فحل ، كان أشد وطأة على صفوفهم ، من اسنّة العرب ، فقـد اسلمتهم هزيمتهم وحيرتهم اليه ، فغاصت فيه خيلهم ، ولحق بهم المسلمون يزحزحونهم بالرماح حتى امسى الوحل جثثاً .

لقد كان الله مع المسلمين، كرهوا الوحل فكان لهم عوناً على عدوهم ، وشركا يسقط ذلك العدو فيه .

وكانت الغنائم كثيرة ، فلما اقتسموها ، انصرف ابو عبيدة وخالد بن الوليد ومعهما بعض القواد الى حمص ، وعُهد الى شرحبيل، في فتح المدن والنواحي التي تجاور الاردن على ان يستعين برأي القائد العام .

والمسلمون لا يضيّعون الزمان ، فان شرحبيل ومعه عمرو بن العاص ، لم يلبثا حتى زحفا الى بيسان ، وكان ابو الأعور السلمي قد سبقهم الى طبريَّة فحاصر اهلها ، فصالحوه على مثل صلح دمشق .

وبلغ جميع النازلين على ضفتي الاردن ما لقي الروم في دمشق وفحل ، فلجأوا الى حصونهم يحتمون من الغزاة ، ولكن تلك الحصون كانت تسقط الواحد وراء الآخر في أيدي المسلمين وتتدحرج بعدها رؤوس القواد حتى انتهى الامر الى الصلح وانتهى خراج تلك النواحي الخصبة الواسعة الى بيت مال الاسلام .

وقد شاطر المسلمون ، اهل ذلك القطر منازلهم بما فيها من قصور واكواخ فنزلها القواد والامراء وكتبوا بالفتح الى عمر رضي الله عنه .

وكان القوم قد خبروا القيصر هرقل بما حدث في بلاد الاردن وقصّ عليه رجاله الذين جعلهم عيوناً على العرب ، ان ابا عبيدة وخالداً ومن معهما خرجوا يريدون حمص ، فبعث جيشاً عليه احد بطارقته فنزل بمرج الروم غربي دمشق ، وجاء ابو عبيدة فنزل ايضاً بالمكان نفسه ، وكان خالد في الناحية الاخرى نازلاً بازاء قائد آخر من قواد هرقل أرسله مولاه عوناً للقائد الأول .

على ان الجيش الرومي الذي كان السابق في نزوله المرج ترك ذلك المكان ليلاً وسار يطلب دمشق ، وقد قام في ذهنه وذهن هرقل انه قادر على اخراج يزيد ابن ابي سفيان منها بقوة السيف .

وعرف يزيد، فترك دمشق برجاله الفاتحين المغاوير ، واستقبل عدوه استقبالاً رائعاً تحطمت فيه القوى، وجرت فيه الدماء، وأقبل خالد بن الوليد ، من الوراء لاحقاً بالروم فسقط جيش هرقل في الميدان وقد خسر قواده وابطاله ولم ينجُ منه غير اصحاب الخيل التي لا تلحق ، والجبناء الذين عمدوا الى الفرار قبل ان تتلاحم الصفوف .

وقاتل ابو عبيدة القائد الآخر، فكان حظ الروم، في مرج الروم مثل حظهم في ضواحي دمشق ، خسروا كل شيء .. ولم ترَ البقية الباقية منهم الا ان تعود الى حمص والذعر يملأ النفوس ، فتبع المسلمون القوم اليها وهم واثقون بالنصر .

وبدلاً من ان يقود هرقل جيشه في حمص وينازل المسلمين وجهاً لوجه كما يفعل كل ملك شريف يغضب لكرامته ، أوصى عامله، على تلك المدينة بان يدافع عن مدينته وقومه ، وسار هو الى الرها حاملاً ذل الهزيمة والعار .

انظر الى تلك القوة الجبارة تخضع لها الجيوش وتنحني امامها رؤوس القواد الذين دوّخوا الارض ، فتح في دمشق وفحل ، وفتح في الاردن ، وفتح في تدمر وحوران ، فتحها ، دحية الكلبي، وابو الازهر القشيري، والروم يتراجعون .. وأهل المدن يستسلمون !!

ابو عبيدة وابن الوليد ، يحاصران حمص وشرحبيل بن حسنة وابو الاعور السلمي يتوسعان في اخضاع الاردن ، وتدمر وحوران تلقيان سيفيها عند اقدام الفاتحين ، ويزيد بن ابي سفيان، الذي يتولى امر دمشق، لم يطب له العيش داخل الاسوار ، بل خرج يريد الشواطىء ليضمها الى ملك الاسلام .

وعلى مقدمة جيشه ، اخوه معاوية بن ابي سفيان .

ان تلك القوة العجيبة الجبارة ، مظهر من مظاهر الايمان الجبار ..

وستقرأ في الفصول الآتية اخبار الفتح الذي قام به الجيش العربي في كل قطر .

٢١

لم يمكث كليب بن خالد بعين التمر ، غير بضع ساعات ، ملأ في اثنائها قرب الماء ، لنوقه وغلمانه، ومشى بعدها ، في بادية الجزيرة الواسعة، التي تشبه البحر .

وقد وثق ، بأنه سيبلغ بلاد الشام ، دون ان يعرض له ما يعكر عليه صفو العيش ان المنذر ابن عمه، وأهل هند من طيء لا يستطيعون اللحاق به الى البادية

وقد يبلغهم غرق هند في الفرات ، فينسون كليباً ويعودون الى المعسكر وقد ضيّعوا الرجاء .

ولم يخطر له ، ذلك العداء ، بين بعض عشائر عنزة ، وبين النمر .. ذلك العداء ، الذي يذهب ضحيته بعض الرجال في كل عام .

غير ان الزمان لا يصفو للشريف البريء الذي حسن خلقه وكبرت نفسه ، فكيف يصفو للئيم جانٍ يمشي الى غايته على الارض المصبوغة بدماء ضحاياه !

سار في البادية ليلة واحدة وبعض اليوم الثاني وهو يهضم انتقامه .

ولكنه رأى وهو على فرسه ، يسوق نوقه مع الغلمان ، نوقاً ترعى في بقعة خضراء كأنها ليست من البادية . وبينه وبينها زهاء مئة ذراع .

ثم أبصر خيلاً تخرج من تلك البقعة عليها الرجال ، ويتجه بعضها الا الامام والبعض الآخر الى الوراء ، ثم سمع قائلاً يقول : انها والله من نوق النمر .. نوق انس بن هلال . وكان اولئك القوم من عشيرة هياب بن جوثق الذي قتله انس .

فركض كليب فرسه وقال : لقد قتل انس بن هلال ايها القوم وهذه نوق ابن أخيه الذي ترك عشيرته .

فوثبت افراسهم اليه وهم يقولون : اي والله لقد كنت على فرسك هذه تنازل قومنا يوم قتل هياب !! وارتفع صوت آخر : خلّ عن النوق ايها النمري .. ثم صوت آخر : واعمد الى سيفك ، فستموت ..

فالتفت كليب مذعوراً فرأى الخيل خلفه تدنو منه وغلمانه يطلبون الرحمة .

وماذا يفعل كليب، وان يكن من الابطال ، وهو داخل نطاق من الرماح ؟

انه يفر فحياته خير من نوقه .. وهو في زهرة عمره ولا يريد أن يموت ولم يتردد في أمره بل رأى ان يدفع فرسه قبل ان تتلاصق الخيل ..

وكما يمر السهم في الفضاء مرت فرسه بين القوم ثم سبحت في ذلك السهل ووراءها عجاج يحجبها عن عيون الرجال .

فعرف قوم عنزة انهم اعجز عن ان يلحقوا به فاكتفوا بالنوق يضمونها الى نوقهم وباولئك الغلمان يذبحونهم كما تذبح النعاج لم يبقوا على احد .

وظلت فرس كليب تركض به وهو يظن ان وراءه الخيل ، حتى رأى اخيراً انهم لا يطلبونه فوقف الفرس ، ثم جعل ينظر الى الوراء ويرسل اللعنات ..

ولكنه كان يعلم ان رجوعه يعقبه الموت .. وقد تعزى عن نوقه بان في حزامه بعض المال !

وكان يخاف ان تموت فرسه فيقضي في البادية شهراً كاملاً قبل ان يصل الى الشام ، فجعل يركب ساعة ويمشي ساعة ، وقد ساعده الحظ ، فقد كان يحمل شيئاً من الزاد والماء .. ومرت الايام وهو يطوي الصحراء الى ان أقبل على تدمر عند غروب الشمس فرأى الخيام حول أسوارها فعرف انها سقطت في ايدي العرب .

ولم يشأ الا ان يبيت ليلته وراء تلك الخيام ، لا يعبأ به أصحابها ولا يسألونه عن شيء . وكانت تلك الليلة ليلة كآبة وألم ، ذكر فيها كليب ماضيه وعزّه ، وجعل يبكي ذلك العز ، دون ان يشعر بشيء من الندم !!

* * *

طلع الصبح ، فدنا من خيمة قريبة منه فيها فتى وشيخ من الازدفقال للفتى :
أتأذن لي في سؤال أسأله ؟ قال : افعل ، قال : من هو صاحب تدمر ؟
قال : يظهر انك غريب عن المعسكر .. من أنت اولا ؟
ـ فتى من اليمن تركت بلادي لألحق بجيش الشام .
ـ وما هي غايتك من ذلك ؟ ـ الاشتراك في القتال .
قال : ويلك من اليمن .. وتقدم تدمر ؟
ـ كنت في العراق وقد تركته منذ ايام .
ـ ومعك قومك ؟ ـ لم يكن لي رفيق غير هذه الفرس .

فانتفض قائلاً : ان لك حكاية يا فتى اليمن وقد تكون عيناً لهذا الرومي الذي يقال له هرقل .. ماذا تقول يا أبي ؟

فقال الشيخ : لا تسيء الى قومك يا بني فالعربي لا يخدم الروم ..

قال : يجودون عليه بالذهب فيفعل .

– بل هو يأنف من الخيانة ولو اعطوه مالهم كله .. اجلس ايها الفتى واذكر لي أسباب مجيئك ، قال : قدمت مع بني سعد ، بأمر امير المؤمنين لننضمّ الى جيش العراق .   – وانت من هؤلاء ؟

– لا ، بل كنت بينهم أعيش في ظلهم وفي فيضٍ من نعمتهم.   – ثم ماذا؟

– فأحببت فتاة منهم وأردت ان اخطبها لي فغضب عليّ فتى من اشرافهم ، وسلبني اياها ثم ُطردت من العشيرة فلم أرَ الا ان ألجأ الى الشام .

وكان جيش الشام يعرف اخبار العراق ، وجيش العراق يعرف اخبار الشام فقال : في اي موضع تركت المسلمين ؟

ـ تركتهم في مكان يدعى البويب وقد ظفروا بالاعجام .

واخبار البويب لم تكن قد بلغت تدمر ، فقال : انه نبأ تطيب له نفس دحية ويهتز له جيش تدمر طرباً .

واستوى جالساً وجعل يسأله ليختبر صدقه ، قال : وتعرف قائد المسلمين ؟

ـ بل اعرف القواد جميعهم وكنت ارى المثنى في كل يوم يعالج جراحه عند الفجر ثميتقدم رجالهفي الصباح ليحاربعدوه..!   ـ وعبدالله بن ذي السهمين ؟

ـ هذا سيد خثعم وكنت احارب تحت رايته .

ـ يقولون ان رجلاً نصرانياً من بني طيء حمى المسلمين مع المثنى يوم الجسر لمن هو هذا ؟   ـ هو ابو زبيد الطائي ومعه ولدان زبيد وزياد .

ـ ومن كان يقود الفرس يوم البويب ؟

ـ رجل منهم يدعى مهران قتله غلام من تغلب .

قال : اسألك سؤالاً آخر .. أية عشيرة من عشائر العرب تأخذ ربع الخمس من غنائم العراق؟   ـ هذه بجيلة، والمثنى يعطيها ما وعدها به أمير المؤمنين..

فقال لولده : صدق الفتىفهو جندي عراقي يعرف أحوال الجيش ، ثم قالله: ماذا تطلب الآن ؟   ـ جئت أنضمُّ الى جند من جنود الشام .

ـ وهل تؤثر الراحة على الحرب ؟

ـ أمكث الآن بتدمر ، اذا اذن لي صاحبها ، ثم انصرف بعد ذلك الى بلد آخر ، قال : يظهر انك مللت القتال ، قم لنرى دحية .

ـ أدحية هذا امير تدمر ؟

ـ أجل ، وهو اخي لأمي وسأسأله ان يأذن لك بالبقاء .

وتقدمه الى خيمة كبيرة قرب السور ، هي خيمة دحية الكلبي فاتح تدمر ، وحاكمها العسكري ، فقال كليب : أرى القصور داخل السور وينزل دحية بخيمة؟

ـ نعم ، يأوي في الليل الى خيمته ويجلس للناس في النهار عند الغدير وهو لا يطيق ان يقيم بقصر !! أفلا ترى ان امير المؤمنين نفسه يجلس على الارض عند المسجد ويأبى ان يجلس على وسادة ؟

وكان دحية خارجاً من الخيمة ، وبيده سوط ، فقال اخوه : كلمة واحدة يا دحية قبل ان تدخل البلد ، قال : قل .

قال : جئت أسألك ان تأذن لهذا الفتى في الاقامة بيننا ريثما يختار له بلداً آخر ، قال : من هو ؟ ـ هو أحد بني سعد اليمن وقد كان في العراق .

ـ ولماذا قدم تدمر ؟ ـ لان الحرب في العراق لم تطب له وهو يؤثر الشام.

فجعل دحية يتفرس فيه ثم قال : وهل سألته عما يعلم من أمر الحرب ؟

ـ اجل وقد وصف لي جميع القواد وخبرني ان المسلمين ظفروا بالفرس في موضع يقال له البويب ، فهامسه قائلاً : لم أرَ في عيني الفتى ما يجذبني اليه . اني أخشى ان يكون هنالك ما لا نحب .

قال : لقد طرد من العشيرة بسبب فتاة فلم يطق البقاء في المعسكر وهذا كل ما في الأمر ، قال : أتحسن حمل السيف ايها الفتى ؟

ـ أجل يا مولاي حملته وانا في السنة الثانية عشرة . ـ وتتوق الى القتال؟

ـ افعل ما يأمرني به مولاي ، قال : سأبعث بك الى بلاد الاردن فقد تلاقي حرباً . ـ ومن هو صاحب الاردن ؟ ـ شرحبيل بن حسنة .

ـ اذا اراد الامير فليرسلني الى جيش ابي عبيدة .

ـ لقد زحف ابو عبيدة الى حمص وسأرسل اليه بعد ايام طائفة من الجيش

تكون عوناً له في الحصار .   ـ اذن اسير مع هؤلاء .
فقال لأخيه : احتفظ به وسأسألك عنه يوم يترك الجند تدمر .
ومشى وهو يقول في نفسه : انه والله فتى شر وقد قرأت ذلك في عينيه .
ورجع كليب وسهيل الشيخ يقول له : لقد أصبحت الآن جاراً لدحية فلا تخشى بني سعد .
وسار الاثنان يطوفان بين الخيام ، ثم دخلا تدمر الجبارة وسهيل يقص عليه ما يعرفه عن اصحابها الرومان .

٢٢

اصبح عامر بن مذعور بعد نجاته من الموت ، بفضل عبدالله بن الفهر ، شديد الاخلاص للقوم ، بل اصبح ، وهو الصعلوك اللئيم ، فتى نبيل الغاية شريف القصد.
حتى انه لو استطاع ان يسترجع هنداً ببذل دمه ، لبذله مختاراً وهو يبتسم للموت يأتيه من هذه الناحية !!

لقد عرف ، بعد ان عفا المنذر عنه ، ان اولئك الفتيان من أشراف العرب ، وان كليباً من الأنذال . وكان يود لو استطاع ان يسلم كليباً الى اعدائه ..
فلما أمروه بالبحث عن هند ، خطر له ان يطوف في ذلك السهل الرحب ، ثم يعبر دجلة الى بلاد الفرس يطلب فيها الفتاة المنكودة الحظ . ولو كان في ذلك الطواف خطر الموت .

وخرج ، مع صعلوك واحد من صعاليكه ، بعد خروج القوم ليبدأ بالسؤال والبحث وأمر غلمانه الآخرين بان يرجعوا الى المعسكر ، ويحملوا الى النمر وطيء أخبار الفتيان ورحيلهم الى الشام ، دون ان يذكروا هنداً .
على ان هؤلاء الغلمان ، الذين هم جميعهم من أهل الوفاء ... لم يعودوا الى البويب ، بل آثروا الرجوع الى الشام ، خوفاً من ابي زبيد .

وكان بعضهم يقول للبعض الآخر :

خير لنا ان نفرّ من العراق ، فهذا الرجل الطائي ، الذي اختطف كليب ابنته ، لا يغفر لمن أساء اليه .

فعلوا ذلك ، وعامر لا يعلم ، وعبدالله بن الفهر ومن معه لا يعلمون ..

وهم يعرفون الطرق الآمنة التي تؤدي الى الشام ، وعندما كانوا ، وراء عين أباغ ، يسيرون الى منازل بني سليح ، في بادية الشام ، ومنها الى منازل بني غسان ، حتى ينتهوا الى المعسكر العربي في حوران ، كان عامر ورفيقه سواد ، يسيران على ذلك الشاطيء ، ويسألان كل عربي وكل فارسي عن الفتاة الضائعة .. ويتفرسان في جذوع النخيل النابت على الضفة ، علهما يبصران على تلك الجذوع اثراً من آثار هند .

ولكن الحظ لم يكن حليفاً لهما ، فليس على الضفة شيء يدل على هند ، والقوم الذين يمرّان بهم ، لم يسمعوا عنها خبراً ، ولم يروا لها ظلّاً .

فكأن الفرات لم يشأ الا ان يطوي هنداً كما يطوي جميع الاجساد التي تغوص فيه على ان عامراً لم ييأس ، بل كان يقول لسواد !

الى الامام ، حتى ننتهي الى المكان الذي يتحد فيه الفرات بدجلة ، بل حتى نصل الى الخليج .. وكان عبد الله بن الفهر ، قد أعطاه بعض المال يستعين به في سفره الشاق .

فبينا هما في مساء يوم بالقرب من الماء ، وقد جلسا في ظل نخلة كبيرة امتدت أغصانها فوق الفرات ، أبصرا زورقاً كبيراً ينقل اصحابه ، الى البر ، التمر والصوف ، فقال عامر : هذا درهم فاشترِ لنا بــه شيئاً من التمر .. ثم الحق بك فنسأل هؤلاء الرجال ، عن الفتاة .

فذهب سواد يفعل مــا أمره به ، ولم يلبث حتى مشى وراءه فاذا القوم من الفرس ، وبينهم رجل عرف عامر انه سيدهم .

فأخذ درهمه وجعل يوميء به كأنه يقول : نريد تمــراً ، وهو يظن انهم لا يعرفون لغة العرب .

فأجابه ذلك الرجل قائلاً: خذ من التمر ما تشاء فلا حاجة لنا الى درهمك .
فنظر اليه نظرة شكر ثم قال : انك فارسي وتحسن لغتنا ؟
- اجل ، وفي العرب من يحسن لغة الفرس .. ممن انت ؟
فابتسم قائلاً : انا من العراق .. بل انا من نجد .. بـل، انا من جزيرة العرب فوالله لا أعلم ممن انا !! فضحك الفارسي وقال : اسألك عن قومك ..
- قومي ؟ ! قومي العرب .. ووالله لا اعرف لي عشيرة . !
- ولكنك تعلم من هو ابوك .. — أعرف اسم ابي ولا أعرف وجهه .
- واين ولدت ؟
- ولدت في البادية .. في العراء .. اذ لم يكن لنا خيمة نستتر بهـا .. ثم قضيت سنيّ وانا غلام ، وراء الابل التي تروح وتجيء يجود عليّ الناس بما أحشو به جوفي .. ! ثم لجأت الى الميادين ، استعين على الدهر ، بمـا يبقى على جثث الرجال ..
فرفع الرجل صوته بالضحك وقال في نفسه : انه من ظرفاء العرب .. وقد يكون شاعراً .. ثم قال له : اذن فانت قادم من ساحة الحرب .
- نعم ، وقـد ملأت تلك الساحة ذعراً وأرسلت الرعب والخوف الى كل قلب .! وماذا لقيت في ساحة الحرب ، اني لم أجد عقالاً أعصب به جبيني او ابيعه بدرهمين . بلى وجدت طائفة من النعال بعتها بهذا الثوب البالي الذي تراه..
وكان القوم قد نقلوا تمرهم ، فقال الرجل : اجلس وقص علي مـا جرى بين العرب والفرس .. يقولون ان الفرس يتراجعون الى المدائن ..
فعرف اللعين ان الفارسي يستدرجه الى الاعتراف بظفر المسلمين ، فقال : لم اشهد من حرب الفرس غير واقعة الجسر التي خسرت فيها العرب كل شيء ..
- ألم تقل الآ ن انك قادم من الميدان ؟
- أردت أن أقول اني لم أجد في الميدان شيئاً أعيش منه .. !
- وأين كنت اليوم ؟ — في حي تغلب ، على هذا الشاطىء .
- ومن هو سيد الحي . — عتيبة بن قيس .

ـ يظهر انك تعرف عتيبة !.
ـ لا أعرف احداً بل كنت أسوق نوقاً لأحدهم !
فأطرق الرجل ملياً ثم رفع رأسه قائلاً :
لقد أعجبني هذا الحديث الذي ترويه .. انك ضيفي الليلة !
قال : أين منزلك ؟ ـ في هذا السهل ..
ـ وهل تضيف فتى عربياً لا تعرف من هو .. اني أخشى ان أبيت الليلة ورأسي معي ، ثم أصبح ولا رأس لي ..!
فدمعت عيناه من الضحك وجعل يقول :
سأحملك معي الليلة رضيت أم أبيت وأنا أضمن بقاء رأسك ..

وكان الرجل مهاتب الفارسي نفسه ، منقذ هند ، وقد قام في ذهنه بعد أن خبّره ، أنه كان يسوق نوق أحدهم الى حي تغلب ، انه ذلك الفتى الذي خدع هنداً ، في البويب ودفعها بالحيلة الى حي الصعاليك .

وقد أراد ان ينزل عليه ضيفاً في تلك الليلة ، لتراه هند ، قبل ان يقول له كلمة ولكن الحظ ساعده في أمره ، من حيث لا يعلم ، فان عامراً الذي كان غرضه السؤال عن هند، اعتذر للرجل قائلاً: لا أستطيع أن اترك ضفة الفرات ، الى السهل الذي تدعوني اليه .

ـ وما يمنعك من ذلك ؟ ـ ضائع اتيت أسأل عنه أهل الشاطىء .
ـ وهذا الضائع صعلوك من صعاليك العرب ؟.
ـ بل هو فتاة من بنات الأمراء .
قال : ويلك وأي شأن لك مع هذا الصنف من النساء ؟!
ـ أمرني أحدهم بان افعل فخضعت له . ـ وكيف ضاعت فتاتك ؟
ـ ارادت الاغتسال في الفرات فابتلعها الماء .
ـ اذن انت تبحث عن الأموات .. ما اسمك ؟ ـ عامر بن مذعور .
فارتجفت ركبتا الفارسي وكادت الدهشة تفضح سره ..
ولكنه تجلد قائلاً : واسم الفتاة ؟ ـ هند !

فقال : سترى هنداً بعينيك ، وتلمسها بيديك ، في هذا الليل !

قال : ان الأغنياء لا يهزأون بالفقراء .. لقد رأيت الآن من مظاهر المروءة ما لم أر مثله في جميع ما رأيت على هذا الشاطىء ، وهذا معناه انك من أشراف الناس فلا تضيع ما فعلت .

— لم يخطر لي أن أهزأ كما تقول ، بل انا اعرف هنداً كما تعرفها انت وقد أنقذتها من الموت وهي في بيتي ومع أهلي .

فأشرق جبين الفتى ، ثم لم يلبث حتى اكفهر ، عند تصوره ان الرجل يعبث به .. فقال مهاتب : الا تثق بما أقول ؟

— بل اثق بانك تلهو كما يلهو القوي بالضعيف .

— واذا ذكرت لك اهل هند كما ذكرتهم هي لي .

— استسلم عندئذ اليك وأؤمن بكل كلمة تقولها لي .

قال : أبوها أبو زبيد الطائي ، واخوها زبيد وزياد ! وخطيبها الذي آثرت الموت في الفرات على الحياة بعيدة عنه ، المنذر النمري !؟

فوثب الى يديه يقبلهما ويقول : بارك الله فيك يا مولاي فقد كنت محسناً بكل شيء وحافظاً حياتي . — وهل تضيع حياتك اذا ضيعت هنداً ؟

ـ أجل فقد أقسمت اني سأقتل نفسي اذا خاب الرجاء .

وكان مهاتب يظن ان الفتى يشتغل لحساب كليب ، وانه سيعمد الى الفرار ، بعد ان سمع من فمه حكاية هند ، فقال لغلمانه بالفارسية :

احذروا ان يفرّ الفتيان ، ثم قال لعامر : أتذهب الآن ؟

— لو قلت لي ان هنداً على شاطىء البحر في اليمن لما ترددت في الذهاب .

قال : اجعلوا التمر ايها الغلمان على ظهور البغال .

وتقدمهم وعامر الى جانبه ، وسواد وراءه ، وهو يسأل عامراً عن بني تغلب كأنه لا يعلم انه كان في البويب ، حتى بلغوا المنزل والليل في أوله .

وكانت هند تنتظرقدوم الرجل، علّه يحمل اليها نبأ جديداً من انباءالحرب، تخرج بعده الى نور الحرية ، وتنجو من ذلك القفص الذهبي .

أجل ، كانت تحسّ ، لما تراه من عناية القوم وعاطفتهم ، انها في بيت ابيها في طيء ، ولكن الجنة تضيق في نظر هند ، وتسودها الوحشة اذا لم يكن فيهـــا ذلك الحبيب .. !

فلما عرفت ان مهاتب قد أقبل، نهضت وقلبها يخفق ، وخرجت تستقبلهعند الباب ، وهي تذرف الدموع ، ففاجأها بقوله : لقد بدأ الحظ يبسم لك بعدذلك الجفاء . قالت : ليس لفتاة مثلي حظّ .. ! ماذا جرى ؟

قال : سترين في الفناء ، فتى تعرفينه من فتيان البويب ..

فوضعت يدها على فؤادها قائلة : من فتيان البويب .؟! أهو من طيء ؟

– لا . – اذن من النمر ? – ليس بينه وبين النمر صلة نسب .

– اذن من تغلب ? – اني اقرب الى تغلب منه !.

فتراجعت مذعورة وجعلت تقول : انه اذن ذلك اللعين.. كليب بن خالد

– بل هو عامر بن مذعور نفسه !

– ويل للخائن . أيسابق مياه الفرات ويلحق بي ?!

– هذا ما ظهر لي ، وهو يسأل عنك وسيقتل نفسه اذا خاب رجاؤه بالعثور على هند ! قالت : لقد أرسله سيده ليحمل اليه جثتي فيبعث بهـــا الى معسكر العرب ليراها المنذر !! اي والله لقد أراد كليب ذلك قتله الله .. قال : وهـــل تخافين عامراً ?

– لا اخاف احداً وانا في ظل الشرف والمروءة .. اريد ان أراه .. واسمع حكايته .. ولك ان تصنع به بعدئذ ما تشاء .

قال : سأجعل في رجليه ، ويده اليمنى قيود الحديد ، حتى يعيدك الله الى بلاد قومك فيرى ابوك والمنذر رأيهما فيه ، ثم قال : وسيكون جزاء رفيقه مثل جزائه .. – ومن هو رفيقه ?

– صعلوك آخر يؤثر السكوت على الكلام .. اخرجي الى قاعة الجلوس مع بشتاسب وسأدعو الاثنين .

فخرجت الفتاتان فجلستا في تلك القاعة ، ثم دخل مهاتب وبهرام ووراءهمـــا

عامر وسواد ، وابنا مهاتب الآخرين .

فلما أبصر عامر هنداً، دمعت عيناه، ثم جثا على ركبتيه كما يجثو المصلي ورفع صوته قائلاً : اسألك الآن يا هند،أن تغفري لي ذنبي كما غفره عبدالله بن الفهر والفتيان الثلاثة الذين معه .. فابتسمت الفتاة ابتسامة صفراء وجعلت تقول :

تقذف بي الى الهوة يا ابن اللئام ، وتشارك كليباً في القضاء عليّ وعلى ابي وامي وأخويّ وخطيبي ثم تستغفر ؟!! اني اذن بلهاء لا أعرف أن أكافىء المحسن وأجازي المسيء .. قل ما الذي حملك على المجيء الى هذا السهل وقد تركتك عند كربلاء ..

قال : حملني عليه الوفاء والاخلاص اللذان تغللا فجأة الى هذا الصدر ..

قالت : نذلٌ وتحدّث النـاس بالوفاء !!؟ اين تركت صاحبك الوفيّ الآخر الذي يدفعه حسده الى سفك الدماء وانتهاك الحرمات ..

ـ تركته في المرة الاولى عند عتيبة بن قيس ، ثم عرفت في اليوم الثـاني انه رحل الى الشام . ـ وكيف لم ترحل معه وانت أمينه وشريكه في الجريمة ؟

قال : والله لئن رأيتـه وهو بين صفوف الجيش ، او في حضن قائد العرب الاكبر لأنتزعنّ قلبه منصدره ثم أجلس علىالنطع وأضع عنقيتحت سيفالجلاد.

قالت : عجباً لذلك الحب يمسي بغضاً !!

ـ بل عجباً لكليب بن خالد يفرُّ من وجه الامراء الذين يطلبونه ثم يكرههم القضاء الجائر على اللحاق به ! قالت : من هم هؤلاء ؟

ـ عبدالله الذي ذكرت ، وزبيد وزياد ، والمنذر ، وثمانية رجال .

ـ وأين رأيتهم ؟ ـ عند كربلاء ، بعد ان فررت من وجه كليب .

وجعل يحدثها بكل مـا جرى له حتى انتهى الى رحيل القوم الى الشام ، ومجيئه هو الى الشاطىء ، فقالت : وهل أمرك القوم بان تعيدني الى المعسكر اذا عثرت عليّ ؟

ـ نعم ، ولكن اليأس كان يملأ قلوبهم فلم يخطر لهم انك نجوت من الفرات .

قالت : متى تريد ان نعود ؟

ـ غداً .. حتى اذا بلغنا المعسكر ذهبت انا الى الشام أحمل البشرى الى القوم وأدعوهم الى الرجوع ..

فهزّت رأسها قائلة : أبمثل هذه الحيلة تريد ان تستولي عليّ مرة ثانية ، وتطرح بي من جديد ، الى الهاوية ؟! وهل تظن اني نسيت ذلك الدواء الذي تعالج به امك جرحى الجيش ؟! انك أحيل من رأيت وأوقح من سمعت !.. ولكنك سقطت هذه المرة في الشرك فلن تنجو من يدي ويد المحسن اليّ !

قال : اقسم لك بالله الذي لا إلـه الا هو اني بت اكره كليباً كما اكره الموت، واحب المنذر وجميع من ينتمي اليه كما احب نفسي !

قالت : لا يخطر لي ، وانا اعرفك يا ابن مذعور ، انك تؤمن بالله الذي تقسم به .. وكيف اصدّق انك تحب المنذر الذي خنته بالامس واختطفت خطيبته عندما كان ابوه يصارع الموت ؟! قال : خدعني كليب وغفر المنذر لي ، فبت اكره ذاك واحب هذا .. ـ وبأي شيء خدعك ؟

ـ وعدني بعشرة دنانير فأعطاني اثنين !

قالت : مسكينة فتاة طيء فثمنها عشر قطع من الذهب .. صف لي أخويّ زبيداً وزياداً . فوصفهما .. ثم وصف المنذر وعبدالله ، وأعاد عليها ما سمعه من الاربعة وهم على الجسر ..

فبكت، وقد جاشت في صدرها عواطف الشوق والحب التي تذيب القلوب.

وكانت قد بدأت تصدق حكايته، وكاد البكاء ينسيها ذلك الحقد الذي ينطبق عليه الصدر ، وتلك الجريمة التي انتهت بها الى الفرات !

وحنّت الى الوالدين .. والاخوين، والمنذر ، والعشيرة ، وابتسمت ابتسامة عذبة لفكرة الرجوع الى المعسكر ، مع عامر بن مذعور .

على انها لا تستطيع ، وهي ابنة طيء .. العشيرة التي ملأت بلاد العرب مفاخر، وشهدت لها جميع العشائر بالفضل والجود، لا تستطيع ان ترافق عامراً. وليس من الشرف ان تقع عليها العيون مع فتيين من الفتيان الصعاليك !

وقد تنجو من شر فتقع في آخر .

ومن أين هذين الرسولين الضعيفين ، العاجزين ان يبلغا بها المعسكر ودون المعسكر طوائف من العرب والفرس .

لا ، ليس من الرأي ان تستسلم الى هذا الحلم العذب ، والى العاطفة التي استسلمت اليها في المرة الاولى فكادت تخسر كل شيء .

فسكتت وهي تنظر الى منقذهـا ، كأنها تسأله ان يتولى عنها أمر هذا الصعلوك الحامل اليها اخبار الحبيب ، وهمت بان تقول : أذهب الى بني قومي اذا اذن لي مهاتب بالذهاب .

ويظهر ان الفارسي ادرك ما يقوم في ذهنها في تلك الساعة ، فقال : اريد ان اصدق ايها الفتى ، انك امسيت عدواً لكليب ، وصديقاً للمنذر ، وان المنذر نفسه بعث بك الى هذه النواحي لتبحث عن هند ، أجل اريد ان اصدق هذا ، لكن الحكمة لا تسلم بما اسلم انا به ، وهي تأبى ان تطرح هند بنفسها بين يديك لتحملها الى مقر الجيش العربي .

ثم قال : انتم من العرب ، وانا من الفرس ، والفرس والعرب اعداء ، ولكن المروءة ليس لها وطن ، وهي التي أملت عليّ ان انقذ هنداً واحتفظ بها في منزلي ريثما استطيع ان اعيدها الى طيء فهل لك ان تثبت لي ولهند ان الفتيان الثلاثة هم الذين ارسلوك لأجل هذه الغاية .

قال: لا أستطيع ان اثبت لك شيئاً مما ذكرت الا اذا رضيت بشهادة سواد!.

فضحك قائلاً : ما كان سواد ليشهد عليك .. ثم يخطر لي ان أقول لك كلمة اخرى ، انك رسول كليب لا رسول المنذر ! — ولكن كليباً في الشام .

— اما أنا فأقول انه في تغلب او في كربلاء وستعود اليه لتقص عليه ما رأيت.

قال : ان القدر الذي لم يفتر ثغره لي منذ ولدت الى هذه الساعة ، لا يخطر له ان يبسم لي اليوم ، اني شقي ، وانا قد ألفت شقائي فلا استغرب شيئاً مما أراه . قلت اني صادق ، فاذا آمنت بما قلت فقد رأيت ابتسامة القدر ، والا فأنا خاضع لما تأمرني به ، وحسبي ان الفرات لم يبتلع فتاة طيء .

قال : أتؤثر البقاء مع هند ام الرجوع الى المعسكر ؟

ـ بل أؤثر الرجوع لأقول لأبي زبيد وزوجته ، لقد رأيت هنداً في بيت رجل شريف ، من أهل فارس .

ـ ولكن هذا الرجل الشريف الذي تعنيه ليس له رغبة في رجوعك .

ـ وماذا تصنع بي ؟ ـ أجعلك ضيفاً عليّ ريثما ترجع هند . !

ـ واذا لم استطع الرضى بهذه الضيافة ؟

ـ أسألك اولاً ان ترضى ثم اعمد الى القوة اذا ابيت .

قال : ان العرب لا تعمد الى اكراه الضيف .

ـ اما الفرس فيعمدون الى ذلك عندما تكرههم الحادثات ، انك ضيفي منذ الآن، مع سواد ولكن على غير ما تنزل الضيوف على العرب. ـ وكيف ذلك؟

ـ اضع قيداً في رجليك، وقيداً آخر في رجلي رفيقك، ثم تمسيان انتما الاثنين بعد ذلك ، من أهل البيت ! ـ إذن نحن أسيران !

ـ لك ان تسمي هذه الضيافة ما شئت ، دون ان تسيء الظن بي ، فأنا لا أريد بكما شراً ، كما اني لا اطيق ان تخسر هند حياتها وقد انقذتها من الموت .

فالتفت الى هند قائلاً : اسألي هذا الفارسي ان يأذن لنا بالرجوع قبل ان يضيع المنذر امله ، قالت : امري وامرك في يده فليس لي ان اقول كلمة .

ـ ولكنني أقسمت للقوم اني سأحمل اليهم اخبار هند مهما تكن هذه الاخبار .

فقالت لمهاتب : دعه يرجع وليفعل ما يطيب له .

قال : واذا استعان كليب بعتيبة بن قيس وحملت علينا تغلب ؟ !

فذعرت قائلة : لا . . بل يجب ان يبقى ولو كان صادقاً .

وخرجت من القاعة ومعها بشتاسب وأخذت تشهق بالبكاء والفارسية تعزيها وتدعوها الى الصبر ريثما يمن الله بالفرج .

ولكنها لم تستطع إلّا ان تستسلم الى عاطفتها ، فحملتها بشتاسب حملاً الى مخدعها ومكثت الى جانبها حتى انتصف الليل .

وكان مهاتب قد وضع عامراً وسواداً في حجرة له داخل الفناء ، ووضع في أرجلها القيود ، وأوصى بنيه وغلمانه بالعناية بهما .

وقد مسّت التوبة قلب عامر فكان يقول لسواد : هذا جنـــاه عليّ طمعي بالدنانير فالويل لـكليب اذا اظفرني الله به .

٢٣

دخل تدمر، في مساء يوم صفت سماؤه، اثنا عشر رجلاً عليهم اللباس العربي. أربعة منهم يركبون الخيل ، والآخرون على النوق .

وتحدث الناس فقالوا : انهم من أمراء العشائر .

وكان هؤلاء الرجال ، عبدالله بن الفهر والفتيان الثلاثة ، ومن معهم من رجال العشيرتين . فلمـــا بلغوا الساحة التي يجري فيها الغدير ، اجتمع حولهم الجند ، يرحبون بهم وهم لا يعرفون من هم ، وأخذوا الخيل والنوق يتعهدونها بالعناية التي ألفتها العرب .

فطلب عبدالله ان يقابل دحية، مع الفتيان، وكان القوم قد ذكروا له اسمه. فأذن لهم في ذلك وساروا الى خيمته .

على ان هنالك عينين ناريتين كانتا تنظران اليهم نظرات البغض والحقد، هما عينا كليب بن خالد ! رآهم مقبلين ، فتغلل بين القوم وقد حجب وجهه ، فبات يراهم ويسمع حديثهم وهم غافلون عنه !

وذلك هو الجهل نفسه ، انهم يطلبون كليبـــاً ووجوههم سافرة !! كأنهم ذاهبون الى صيد او يبغون الحرب .. وعين كليب لا تنام ، فهو يخاف أعداءه ، ويخشى ان يفاجئوه في تدمر فيثأروا بهند ، التي كان يظن انها أمست طعـــاماً لسمك الفرات !

ولو أحسن القوم التدبير ، لدخلوا تدمر وهم مقنّعون لا تبين الا عيونهم ، او كان عليهم ان يدخلوها بعد ان يجن الليل .

وكان دحية ، جالساً في خيمته ، وآثار التعب بادية على وجهه .

فعندما دخل القوم جعل يصعد نظره ويخفضه كالقائد الحكيم يعرض جنده فرأى عيوناً ينبعث منها نور الشرف ، ووجوهاً تبدو عليها مظاهر النبـــالة ، فقال : أهلاً بسادات العرب .. اجلسوا .. ثم قال : ليس من عاداتنـا ان نسأل ضيفنـا عن اسمه ، ونحن في العشيرة ، ولكن نحن الآن في المعسكر ، والحرب تقضي علينا بان نحذر النسيم اذا مرّ بين الصفوف .. من انتم ؟

فقال عبدالله : نحن رؤساء عشائر ثلاث ؟

قال : سمّوها .. قال : طيء ، وتغلب ، والنمر .

فنهض فجأة وجعل يصافحهم ، ثم استدناهم قائلاً :

مرحباً ، بالجود ، والقوة ، والعز .. انت رئيس طيء ؟

ـ انا تغلبي ، وهذان الفتيان اميرا طيء بعد أبيهما ، وهذا امير النمر .

قال : نسمع بهذه العشائر ولا نعرف أحداً منها .. أكنتم في العراق ؟

ـ اجل. ـ واشتركتم فيالقتال؟ ـ نعم وقومنا لا يزالون بينالصفوف.

ـ اذن فهذانالطائيان يربطهما نسب بأبي زبيد الطائي الذيتحدثت بشجاعته العرب ، في كل اقليم .

ـ بل هما ولداه ايها الامير وقد قدمنا تدمر لحاجة نقضيها لأبي زبيد نفسه .

قال : نقضي حاجات ابي زبيد كلها وان كنا لا نعرفه .. اذكروا حاجته .

قال : له فتاة في المعسكر اختطفها نذل من أنذال العرب وفرّ من العراق .

ـ الى أين ؟ ـ الى الشام وقد قيل لنا انه لجأ الى تدمر .

فأطرق دحية ملياً ثم رفع رأسه قائلاً : لا يدخل تدمر عربي الا اذا أذنـّا له في الدخول ، ما اسم الرجل ؟

ـ كليب بن خالد .

قال : اقبل علينا منذ بضعة ايام فتى لا يملك غير فرسه وقد قدم من ساحة الحرب . . . يا غلام ، علي باخي سهيل .

فذهب الغلام يدعوه ثم اقبل ، فقال دحية :

ما اسم الفتى الذي سالتني ان يمكث بتدمر بضعة ايام ؟

ـ والله لم اساله عن اسمه ولكنني علمت انه من بني سعد اليمن وقد ترك المعسكر من اجل فتاة أحبها ثم لم يشأ سيد قومه ان تزف اليه، وطرده من العشيرة

قال : علي به الساعة .

فبعث سهيل أحد الغلمان يدعو ضيفه ، وولده .

ولكن ذلك الولد اقبل وحده ولم يكن معه ذلك الضيف !

فقال دحية : اين ضيفك يا ابن اخي ؟ ـ اليمني ؟ ـ اجل .

ـ لقد تعود، منذ قدم تدمر، ان يركض فرسه في مساء كل يوم، وراء الخيام.

ـ في السهل الشرقي ؟

نعم ، وهو الان هناك على ما اظن ولا يلبث حتى يعود

ثم خاطب أباه قائلا : من يطلب الفتى ؟

ـ يطلب هؤلاء الامراء فتى قد يكون هو نفسه ؟

فقال دحية : ان أباك لم يسأله عن اسمه فهل سألته انت ؟

ـ أجل يا عم وهو يدعى حيان بن زيد . قال ؟ أحيان صاحبكم ؟

فقال عبد الله : بل كليب أيها الامير .

ـ وهل تؤثرون ان تروا ابن زيد هذا ؟

ـ اذا أذنت لنا في ذلك فافعل فقد يعرف شيئاً عن الفتى الاخر .

ـ سنفعل بعد ان يعود . . ماذا تحملون من أخبار العراق ؟

ـ نحمل اخبار النصر الذي كتب للعرب .

قال : لقد قص حيان على سهيل حكاية هـذا النصر . . أما انا فلم أسأله عن شيء لاني لم أقرأ الصدق في عينيه الصغيرتين . ـ وهل قدم الفتى من العراق؟

قال : الم تسمع سهيلا يقول انه طرد من المعسكر من أجل فتاة ؟

ـ لم يخطر لي ان المعسكر الذي طرد منه ، معسكر العرب في البويب . . انه اذن يعرف عن الجيش كل شيء ، وقد ترك البويب قبل ان نتركه نحن !

ـ هو ذاك وقد سمى لسهيل قواد العرب جميعهم ووصفهم له . .

فاصفر وجه عبد الله وقال : يخيل الي انه الفتى الذي نطلبه . .

ـ وكيف يخطر لك ذلك وانت لم تره ؟

قال : لم يتحدث القوم في البويب بقصة يمني أحب فتاة من بني سعد ثم انتهى امره الى الخروج من عشيرته .

ـ ولكن القواد في الميادين لا يعلمون كل ما يحدث في العشائر الحاملةالسيف ولا يسمعون كل ما يقال ، بين الخيام .

ـ غير ان افراد الجنود يعلمون ذلك ولم يقص علي احد ما قصه حيان على سهيل ، والتفت الى رفاقه قائلاً : هل سمع احدكم في البويب قصة هذا السعدي؟

فقال المنذر . كنت اطوف في كل ليلة بامر المثنى بن حارثة ، بين خيام المعسكر كله ويطوف معي زبيد وزياد ، فلم نسمع شيئاً من هذا .

فقال : ليصف لنا سهيل حيان ، اذا اراد الامير .

قال : صفه يا سهيل فهو ضيفك وانت قادر على ذلك .

فجعل سهيل يصفه ويصف فرسه ، كأنه يرسم صورتيهما .

فصاح الاربعة قائلين : والله انه هو . انه كليب !!

ووضع المنذر يده على سيفه . فقال دحية : ماذا تفعل يا سيد النمر ؟!

قال : عفواً أيها الامير فقد وقعت يدي على السيف ، عندما ذكر ابن عمي ، دون ان أتعمد ذلك .. قال : تلك عادة الفتيان .. أهو ابن عمك ؟

ـ نعم وابنة ابي زبيد هي الفتاة التي اخترتها زوجة لي ..

قال : نسيت ان أقول أن الفتاة التي تذكر لا وجود لها في تدمر ، فأين هي؟

فدمعت عيناه قائلاً : هي في الفرات وقد آثرت الموت على الحياة مع هذا النذل الذي خلعته النمر .. مر باحضاره ايها الامير ..

قال : سأحضره الساعة ولكن ارجو ان تلجأوا جميعكم الى الهدوء .

قال : سنرضى بالحكم الذي يوحي اليك به ، عدل عمر بن الخطاب !

قال : ليس لنا ان نحكم على رجل لا ينتمي الى الجيش الذي نقوده .

ـ اذن تبعث به الى المثنى لينظر في أمره ..

ـ ولكن المثنى لم يسألنا ذلك ولم يكتب الينا كلمة .

قال : نسألك نحن باسمه ان تفعل .
قال : انتم أعداء له ويقضي العدل بألا نسلم الفتى الى أعدائه ..
ـ اذن تأمره بالخروج من تدمر وليذهب الى حيث يشاء .
قال : لقد نسيت انه جار سهيل ، وجار سهيل هو جار دحية ، ونحن الذين أذنّا له في الإقامة بيننا بضعة ايام .! ثم قال : ومع ذلك فليس من الحكمة ان يثق قائد الجيش بكل ما يقال له .
قال : نرسل أحدنا الى المثنى فيحمل اليك كتاباً منه .
ـ وماذا يكتب المثنى ؟ سيقول ان فلاناً اختطف فتاة طيء وهؤلاء ذووها فسلموها اليهم وشأنكم بكليب . ـ بل يسألكم ان تعيدوا اليه كليباً ..
قال : لم يرسل الينا الرجل لنعيده اليه .. وهب اننا رضينا بذلك فسهيل لا يرضى بأن ينتهك أخوه حرمته ، ويسلم جاره !
ـ واذا اعترف الرجل لك بجميع ما فعل ؟
ـ نسأله عندئذ ان يتخلى عن الفتاة اذا أرادت هي .. ولكن الفتاة ليست معه ، فلم يبق الا ان تصبروا ريثما يطيب له الانصراف من تدمر .
ـ وبعد ذلك ؟
ـ تفعلون بعد ذلك ما يطيب لكم اذ ليس لنا ان نمنع النـــاس الا اذا كانوا ضيوفاً على المعسكر .
ـ ولكنه لا يخرج من المعسكر لأنه يخاف ان يموت عند خروجه منه .
ـ وهذا معناه ان الأيدي لا تصل اليه ما بقي عندنا .
قال : أتغضب ايها الأمير ثلاث عشائر يخوض رجالها مجال الحرب مع قومهم لترضي نذلاً من أنذال العرب ؟
قال : تقول هذا وأنت من أشراف الناس ؟ اني اغضب العرب كلها لأرضي نفسي وأصون شرفي .. قل لي ايها النمري، أتخون انت جارك اذا سألك أحدهم ان تسلّمه اليه ؟ ـ لا !!
ـ وكيف تسأل قائد تدمر ان يفعل ما لا تفعله انت ؟

ـ لأني لا أعدّه جاراً للأمير بل هو فارٌ من الجيش .

قال : العربي يحارب مختاراً غير مكره ، فاذا رأى ان يفرّ من الساحة فهو جبان، وهو الذي يحمل عار الفرار دون ان يكون لنا نحن شأن بما فعل .. فدع ابن عمك يجرّ أذيال عاره ولا تسألنا ان ندفعه بيدنا الى القتل .

فأطرق قليلاً ثم قال : اذن لم يبق لنا أمل من هذه الناحية ..

ـ آسف ان يكون الامر كما ذكرت .

فبرقت عيناه قائلاً : اذا كان هذا فأنا أسألك ان تحجب جـــارك عن عيني الفتى الذي يخاطبك الآن !! ـ لماذا ؟

ـ لأني سأقتله عندما أراه ! ـ وتعلم ماذا يعقب عملك ؟

ـ يعقبه الموت وهذا ما ارغب فيه .

فحاول عبد الله ان يخمد نار الثورة . . . فأسكته دحية بقوله :

اما نحن فلا يطيب لنا أن تموت ايها النمري وانت في هذا العمر .

ـ ومع ذلك فقد طاب لي ما لا يطيب لك ايها الامير !

قال : سنجعل خيمتنا مقراً للفتى فنحفظ حياة الاثنين انت وابن عمك .

قال : ما كانت الخيمة لتردّ يدي عن قاتل هند .

فقال وهو يبتسم : اذن نجلسه على وسادتنا ونحمل امامه السيف لندافع عنه

ـ وسيتلاحم السيفان ثم لا يغمد احدهما الا اذا قتل أحدنا الآخر ! !

قال : اراك تتعمد الاساءة الى الكرامة . .

ـ بل أتعمد الموت فقد كرهت نفسي العيش الذي لا يصفو لي ساعة واحدة، فـكاد دحية يلمس اللوعة التي بدت على جبينه وفي عينيه . .

وقد أعجبته مظاهر الجرأة والاستخفاف بالحياة . . وأحسّ بشيء من العطف على المنذر العاشق ، الذي سلبه ذلك اللئيم الفتاة التي أحبّ .

ولكنه كره ان يظهر بمظهر الامير الذي لا تصان له حرمة ولا هيبة له وكان يقول في نفسه : اذا كان حيان هو كليب ، فقد اشتعلت النار بيننا وبين العشائر الثلاث التي ذكرها الفتى ، وسينتهي امرها بأن تنقلب على المسلمين وتكون عوناً

للفرس ، ومن يعلم ، فقد اموت انا بعد لحظة ، من يد العاشق او من يد واحد من هؤلاء ، وتذهب حياتي فداء عن لئيم غدار يبدو لؤمه لمن يراه .

وقد يقتل المنذر او سواه من القوم،فيغضب ابو عبيدة ، ويزيد بن ابي سفيان وقواد العرب جميعهم ، بل يغضب امير المؤمنين نفسه لما فعلت ، فخير لي إذن ان اصون شرفي وحياة جاري،في وقت واحد دون ان يشعر القوم بما سأعمداليه.

واستدنى عندئذ سهيلاً وهامسه قائلاً : الحق بضيفك الذي يركض فرسه في السهل وقل له ان يلحق بجيش الشام ، فاعداؤه يطلبونه ، ونحن لا نطيق ان تستعر نار الحرب بين عشائر العرب ، من أجله ! اذهب وليرحل الساعة .

ـ واذا لم يكن من يطلبون ؟

ـ اذا رأيت انه حيان بن زيد ، فليحضر فلا خوف عليه .

فخرج وهو يتظاهر بالغضب للكرامة . . ثم ناداه دحية والقوم يسمعون ، وقال له : لقد تعبت فرس ضيفك يا سهيل فليجيء الآن وقال للمنذر : سيفك ايها النمرى فسترى ابن عمك .   ـ وهل ايقنت بانه هو ؟

ـ هكذا تقولون انتم فقد وصف لكم وعرفتموه . .

فاضطرب الامراء الثلاثة ، وقام في اذهانهم انهم سيموتون جميعهم في ساعة واحدة اذا لم يصح المنذر من ذلك الجنون .

ان صاحب تدمر لا يسلم جاره للقتل ، وهم لا يطيقون ان تتخطف السيوف المنذر ولا يفدونه بالمهج .

ومن أين لهم ان يتصدوا للجيش التدمري الذي يلتف حول صاحبه !

أيخسرون حياتهم وتشمل الفوضى عشائرهم ويبقى كليب بن خالد ؟ !

وهم انما يطوفون في الشام ليقتلوه وينقذوا هنداً !

انه رأي ليس فيه غير جرأة المجانين . .

فقال عبد الله : ان المنذر لا يجرد سيفه على جار الامير .

ـ ولكنه سيفعل لانه يريد الموت . . . ماذا تقول الآن فقال المنذر: ليس لي ان اقول غير كلمة واحدة .   ـ ما هي ؟

ـ هي انه لم يخطر لي ان اعتدي على عدوّي ، وهو جارك إلا لأن هـــذا الاعتداء ينتهي بي الى الموت الذي أتوق اليه ، كما قلت .

قال : انصح لك بان تعمد الى الصبر على ما تراه ، حتى يظفرك الله بعدوك دون أن تنتهك حرمة العرب ودون أن تغضب أحداً .

قال : اذا أظفرني الله بهذا العدو ولم يجمعني بمن أحببت فحياتي حيـاة شقاء وخير لي ان اغمض عينيّ حتى لا أرى هذه الارض ولا أبصر هذه السماء .. !

قال : لا تضيع الرجاء فالله يستطيع ان يعيد اليك من تحب .

وبينا هما يتحدثان ، وعبدالله يسأل المنذر ان يعود الى رشده ، عـاد سهيل وهو يقول : لقد وثقت الآن بأن الفتى لم يكن حيّـــان ، بل كان كليباً الذي يذكرون ..

فوضع المنذر يده على سيفه مرةً ثانية وخيل اليه انه يرى كليباً ويرى وراءه شبح الموت . اما دحية فقال لأخيه : وما الذي حملك على الوثوق بما قلت ؟

ـ حملني عليه احتجاب الرجل عن العيون ! ـ ألم تره ؟

ـ ليس له ظلٌ لا في السهل ولا في المعسكر . ـ انه اذن في المدينة فاسألوا الحراس . ـ سألتهم جميعاً فلم يروه .

ـ وهل يفرُّ فرار الأنذال وقد أنزلناه ضيفاً علينا محترم المقام ؟

ـ هذا ما يبدو لي وقد قال لي بعضهم انهم رأوا فرسه تنهب الارض .

فقال المنذر : أتقول بعد الآن انه جار لك ؟

قال : لقد ضيَّع اللعين مناعة الجار فافعل به الآن ما تشاء .

فنهض قائلاً : أفراسكم ايها الأمراء . فقال دحية : في هذا الليل ؟

ـ بل في هذه الساعة . ـ والى أين ؟

ـ الى المكان الذي يضع فيه ضيفك قدميه ..

قال : لا تستطيعون ان تتبينوا آثاره في الظلام .. اصبروا الى الصباح .

قال : نسمع وقع حوافر الفرس !!

فابتسم قائلا : لقد خرج الرجل الى البرّ ، عند غروب الشمس ، فهو الآن

في البادية بين تدمر وحمص ، او بينها وبين دمشق .

ثم قال لسهيل : ترى انهم يقدرون على اللحاق به ؟

قال : لو كانت لهم جميعهم أفراس مثل فرس خالد بن الوليد ، الذي يثب كالنمر وثباً لما قدروا على ذلك .. قال : وهم لا يعلمون الناحية التي اختارها طريقاً له . فقال المنذر : سنتبع نحن آثاره من الناحيتين .

ـ وعند ذلك يضيّع بعضكم البعض الآخر ثم لا تلتقون الا بعد شهر .

ـ وما هو الرأي ؟

قال : لقد كنت الآن مستسلماً الى عاطفة ليس فيها رأي ، ولم تشأ ان تسمع لي ، أفتعبأ الآن بالآراء ؟؟

قال: لقد خطر لي اني سأرى كليباً في هذه الخيمة، فثارت نفسي، وأحسست اني لا أستطيع ، اذا رأيته ، ان ألجأ الى الهدوء ! ـ والآن ؟

أما الآن فالرأي ما تراه وانا أسألك ان تنسى ما سمعت .

ـ وهل نسيت انت الاهانة التي وجهتها اليّ ؟ ـ بل أذكرها وأعتذر .

فضحك وقال : أنا لا ألوم الفتيان الذين يستهينون بالأخطار وحسبي أني أضع يدي بأيدي الامراء الذين يستعيدون مجد العرب في العراق ، كما نستعيده نحن في الشام .. ماذا تريد الآن ؟ أتريد ان تقبض على ابن عمك كليب بن خالد ؟

ـ أجل ، فأنا لا أرغب في شيء ، بعد موت هند الا هذا ..

وكان دحية ، قد عرف من سهيل ، ان الفتى لجأ الى الفرار ، قبل ان ينتهي سهيل الى المكان الذي يلاعب فرسه فيه .

وقام في ذهنه ، ان الفتى هو كليب نفسه ، ولو لم يكن هو لما ترك فجأة معسكر تدمر ، دون ان يستأذن في الانصراف ، فقال : ليس من السهل ان تلحق الليلة بكليب كما قلت . ـ والى أين نسير غداً ؟

ـ الى دمشق فقد وثقت الان بان الفتى هو صاحبكم وقد ذهب الى البلد الذي ذكرت . ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ رأيته جباناً يؤثر اللعب في السهول ،مع فرسه ، على خوض الميادين .

ـ ومعنى ذلك ؟

ـ معناه ان حمص اليوم داخل نطاق من الجند العربي يحصرها بالحديد والنار فلا يطيق كليب، وهو الجبان الفار، ان يحمل السيف تحت لواء ابي عبيدة وخالد.

ـ ودمشق ؟

ـ أما دمشق فتسودها السكينة اليـــوم ، كما تسود ما حولها من القرى ويستطيـع الهارب الى دمشق ان يحتجب فيها عن العيون .

فقال عبدالله : من هو اميرها ؟ ـ يزيد بن ابي سفيان الاموي .

ـ اذا اراد الامير فليكتب اليه كلمة يوصيه بنا خيراً .

قال : سأفعل ولكنه لا يسلم كليباً اذا اصبح جاراً له .

ـ قد يختبيء كليب في دمشق دون ان ينتهي أمره الى يزيد .

ـ ومع ذلك فهو لا يدفعه اليكم لانه واحد من اللاجئين اليه .

ـ واذا وقعت عليه العين وقتلناه ؟

ـ لا تفعلوا ذلك فيزيد لا يرحم ولو كان المذنب من قواده . .

ـ اذن فكليب قد نجا الان !

فعاد المنذر الى جنونه قائلاً : لا والله لا ينجو لاني سأقتله وهـــو في حضن يزيد ولو قتلت بعده. فقال دحية : بل تفعل غير ذلك يا بني .

ـ ماذا ؟ ـ تبعث الى المثنى فتقول له : نعرف كليباً منك ! !

ـ لو كان الامر في يد المثنى لما نقلنا من العراق قدما . . انه لا يستطيع ان يفعل شيئاً لان كليباً بعيد عنه .

فهز رأسه قائلاً : سيلجأ المثنى الى من هو أعظم منه يا بني .

ـ الى ابي عبيدة ؟ ـ الى اعظم رجل في الاسلام .

قال : ليس في الاسلام اعظم من عمر بن الخطاب .

ـ احسنت ، فهو الذي عنيت ، وسيكتب امير المؤمنين الى قواده سطراً واحداً هو هذا : على الامير الذي تقع عينه على كليب بن خالد النمري ان يبعث به الى قائد العراق . ـ وبعد ذلك ؟

ـ تلحقون بالفتى الى البلد الذي يقيم به ، وتدفعون كتاب امير المؤمنين الى صاحب ذلك البلد ، فينتهي كل شيء .

قال : خير لي ان اخرج في طلبه كلما خرج حتى يظفرني الله به ، في مكان لا يكون فيه جاراً لاحد .

ـ ولكن قد تنقضي الاعوام ولا تبلغ الغاية . ـ اتظن ؟

ـ بل انا واثق فكليب على ما رأيت خبيث داهية يفر من البلد حين تصلون اليه .

قال : اجل غير انه من العار على عربي ان يلجأ الى الناس لينظروا في امر عدوه .

ـ كان ذلك العار في الجاهلية يا بني ، اما اليوم فخير ما تفعله العرب ، ان تستعين بسيدها الاكبر على الاعداء ، وعلى جور الزمان .

ـ ومن يضمن لنا ان عمر بن الخطاب يصغي إلى حكاية فتىً من النمر ؟

قال : ان الرجل الذي لا تنتقل جيوشه من مكان الى مكان الا باذنه ، يصغي الى كل ما يقال له ويهتم لكل شيء ، انا اضمن لك انه سيفعل .

وكان زبيد وزياد ساكتين فقال لهما : أليس لكما رأي ؟

فقال زبيد : لا نبالي بالوسيلة التي تنتهي بنا الى القبض على كليب.. ماذا تقول يا عبد الله ؟

قال : لقد أصاب الامير دحية فيما قاله والرأي رأيه .

قال : ابعثوا برجلين من هؤلاء الى المثنى يقصان عليه كلما جرى ثم يحملان كتابه الى امير المؤمنين .

فقال زبيد : لي كلمة اقولها الآن . ـ ما هي ؟

ـ هي ان يكتما جميع الناس ما ينقلانه الى المثنى ، ويحتجبا عن عيني ابي زبيد . ـ ولم ذلك ؟

ـ لانه سيستحلفهما اذا رآهما ، أن يخبراه كل شيء ، فيعترفا له بموت هند ، وهناك البلية التي ليس لها دواء . قال : أوصوهما بالكتمان .

ـ اجل ، ونوصيهما في الوقت نفسه ، بان يلبسا لباس أهل اليمن ، ثم قال :

ـ ولكن اين ننتظرهما ؟
قال عبد الله : الرأي أن نسير الى دمشق ثم نمكث بها ريثما يعودان ..
ـ ومن هما اللذان يذهبان ؟ ـ نختار رجلاً من النمر والآخر من تغلب .
واومأ الى اثنين من القوم قائلاً : سترجعان الى العراق ، ومنهـــا الى المدينة مقر عمر بن الخطاب .
قالا : اكتبوا ما تريدون ان تكتبوه وسنرحل قبل الصباح .
ـ ولكن احذرا أن يعلم أبو زبيد انكما في المعسكر .
ـ لا يعلم ذلك الا المثنى بن حارثة .
ـ واذا مثلتما بين يدي امير المؤمنين فاذكرا له بلاءنا وبـــلاء ابي زبيد في الحرب ، وقولا له اننا تركنا السيف لنبحث عن كليب .
فخرج الاثنان ليتهيئا للرحيل ، وجعل القوم يتحدثون، واللوعة تملأ صدور الفتيان حتى انتصف الليل ودبّ النعاس في الجفون .
فقال دحية لغلامه : لقد أعدت الخيام للامراء أليس كذلك ؟
ـ نعم يا مولاي .
قال : ارشدهم اليها واجعل عند كل خيمة جنديين يتناوبان على الخدمة .
فقال عبدالله : نحن من العرب ايها الامير ومن أبناء البادية .
ـ ولكنكم ضيوف وهذا ما يصنعه دحية الكلبي مع ضيوفه ..
ونهض وهو يقول : لقد عبث بنا جميعاً كليب بن خالد وحيان بن زيد فالويل له . فأجابه عبدالله قائلاً : لن نرجع عن كليب ولو كتب لنا ان نطوف بـــلاد العرب كلها وارض الفرس والروم .
وانصرفوا الى خيامهم ليكتبوا كتابهم الى المثنى والخيبة في القلوب ، وعلى الوجوه .

* * *

٢٤

دمشق ، التي كانت مقرّاً لقواد الروم وامرائهم وعظمائهم ، قبل الفتح ، بلد عامر بأهله ، زاهر باشجاره واثماره ، خلاب بجناته وانهاره .

وهو البلد الرحب الذي تضيع مدن العرب الكبرى ، في حي من أحيائه .

دخله كليب بن خالد في صباح يوم ، وهو لا يعرف أحداً فيه ، فخيّل اليه ، وهو يرى وفود الناس ، وطوائف النوق والخيل ، انه في سوق من تلك الاسواق التي تقيمها العرب ، في كل عام .والهدوء ، ينشر ظله في دمشق ، ويبسط فوقها جناحيه ، حتى انه لم يرَ مظهراً واحداً من مظاهر الحرب والفتح الا فرقاً من الجنود ، في الابراج ووراء الاسوار كأنه مرّ على الفتح بضع سنوات ، نسي الناس بعدها هوله ، وذهبت من اذهانهم آثاره .

في السوق روح نشاط تبدو للناظرين ، هي تلك الروح التي تسود الامة بعد كل حرب ، وقد يقرأ الغريب على وجوه القوم ، دلائل الجهاد المثمر .

فوقف كليب ينظر الى الوفود وهو يفكر في أمره ، وقد خطر له ان يعالج دهره بالأخذ والعطاء ، كما يفعل القوم .

وبينا هو على حاله التي ذكرت ، أبصر رجلاً كهلاً طويل القامة ، أبيض الوجه تبعث عيناه الهيبة ، ويحفّ به العز والجلال .

رآه يمشي ببطء الى احدى الساحات ، ووراءه الناس ، وقد تقدمه غلامان.

فقال لرجل كان الى جانبه : من هو هذا ؟

قال : يزيد بن ابي سفيان أمير دمشق .

وكان يزيد مثل جميع الامراء المسلمين ، يتشبه بعمر بن الخطاب، في أساليب حكمه .. يجلس للناس في فناء داره، ويجلس لهم في الأسواق ، وهو في كل مجلس من مجالسه رسول العدل الذي يحمل لواءه أمير المؤمنين .

فتبعه وهو يهمّ بان يستجير به ، ويستظل بظل حمايته .

لقد كان واثقاً بأن المنذر ومن معه من الرجال، لا يلبثون حتى يلحقوا به،

وقد يفاجئونه في ساعة تغفل فيها عين القدر ، فيكون نصيبه الموت .. وهو لا يخاف أحداً اذا أجاره يزيد .

فلما بلغ تلك الساحة ، رأى بالقرب من يزيد ، شاباً يلمع الدهاء في عينيه وتغمر ثغره ابتسامة لا يعرف معناها الا الله !

وقيل له : هذا أخو يزيد ، معاوية بن ابي سفيان وهو من القواد .

ثم رأى الرجال تدنو من الأمير فتذكر الحاجات ، وهو يومىء بسوطه ، ويلفظ أحكامه التي لا تعقبها الشفاعات ، حتى انصرف الناس ونهض يزيد ومعاوية يريدان الذهاب ، فخطا بضع خطوات مسلماً ثم تراجع الى الوراء .

فقال معاوية وهو يبتسم : من انت ؟

قال : عربي من بادية العراق جاء يستجير بصاحب دمشق . ـ ممّن ؟

ـ من قوم جاروا عليه وسلبوه ما كان يملك من نوق ومال .

قال : اذكر قومك . قال : النمر . ـ وما هي حكايتك ؟

ـ أحببت ابنة عم لي فخنقوا حبي ، ثم تمادوا في جورهم فأخذوا مالي ولم يبقوا لي ما أعيش به . ـ ومن هم هؤلاء ؟

ـ عمي وابن عمي ورجال من تغلب وطيء .

قال : لقد ذكرت عشائر ثلاثاً تعرفها العرب .

ـ كما يعرفها المثنى قائد العراق ..

قال : ويلك ، في العراق المثنى وتلجأ الى الشام ؟!

ـ لقد منعوني ايها الامير من الوصول اليه لأنهم يحاربون تحت لوائه .

ـ وما هو شأن تغلب وطيء ؟

ـ أحب الفتاة فتىً من طيء فآثروه عليّ .

قال : يظهر أن العشائر تناقلت حكاية حبك ، فكره ذووك ان يزوجوك ، وهذه عادة العرب في الدفاع عن العرض ، ما اسم الفتاة ؟ ـ الزهراء .

ـ واسم أبيها ! ـ انس بن هلال .

ـ واسم الفتى الطائي ؟ ـ زبيد .

فقال يزيد لمعاوية : هؤلاء أبطال النصارى الذين يحـــاربون مع قومهم وقد كتب المثنى الى ابي عبيدة منذ شهر ، يصفهم له .

فقال معاوية :اذن فأعداؤكمنعظماء الناس واشرافهم..قصّ علينا ماجرى.

قال : طلبوا الي ان انسى الزهراء فلم أستطع ، وكنت احاول ان اراها وهي تحمل الماء في الميدان للجند العربي مع طوائف النساء . ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم رأوا اني لست قادراً على ما طلبوه ، فحملوني مكرهاً ، الى البادية التي تلي منازل عنزة ، وأمروني بأن اعيش عمري كله بعيداً عن العراق ، ولم يعطوني مما املك ، غير هذه الفرس وبضعة دنانير . . .

فجعل معاوية الداهية يتفرس فيه وقد دبّ الشك في صدره ...

فتىً عراقي يجور عليه قومه ، وهو يحارب في صفوف الجيش ولا يستطيع ان يشكو امره الى المثنى بن حارثة ؟

انهـا اكاذيب لا تخدع رجلاً مثل معاوية بن ابي سفيان ، الذي بدأ يلمع في الشام ، بدهائه وذكائه ، وبعد نظره . . فقال له :

لقد عرفت حكايتك الان فماذا تطلب ؟

فالتفت الى يزيد قائلاً : اطلب ان يشملني الامير بعطفه ورضاه .

فقال يزيد : لقد وكلنا امرك الى معاوية فافعل ما يأمرك به .

قالها وهو واثق ، كما وثق اخوه ، بان الفتى غير صادق فيما رواه .

قال كليب : حسبي أن تكون لي حظوة في عيني أخيك .

فقال معاوية : سنعيد اليك مالك وسنسأل عمك ان يزفّ اليك الزهراء..!!

ـ وتعرف عمي ؟ ـ ولكن امير دمشق سيطلب الى امير العراق ان يفعل.

فتردد قليلاً في الجواب ثم قال : لقد قتل عمي ايها الامير . . !!

فضحك قائلاً : وانت قاتله ؟ ـ لا بل قتل يوم البويب .

ـ وشهدت انت ذلك اليوم ؟ ـ نعم وقد رأيت عمي يصارع الموت .

ـ ولكنك قلت ان عمك اصل البلاء ..!

ـ بدأ هو بالعداء ثم خلفه ولده !!

ـ اذن سيحجب حلم الولد وحبه ، جور أبيه وبغضه .. سنكتب الى المثنى غداً ، وتحمل انت كتابنا اليه !!

قال : اسأل الامير أن يجود عليّ بشيء آخر . ـ بماذا ؟

ـ بأن يأذن لي في الاقامة بدمشق وينظر اليّ نظره إلى من يستجير به !

فضحك مرة ثانية ثم قال: ان الاقامة بدمشق مشاع لكل عربي يمكث بها عندما يشاء ويرحل عنها عندما يشاء . . ثم قال ليزيد : يشكو الينا الفتى ظلم قومه فنعده بالفرج وهو لا يرضى . . .

أتأبى يا ابن النمر ان تحمل كتابنا الى المثنى فيعيـــد اليك ما سلبوك اياه ويزوجك الزهراء التي انتهى بك غرامك بها الى الشقاء ؟!

قال : لا أجسر على ذلك . ـ لماذا ؟

لأني أخشى ان لا ابلغ العراق . ـ وهل لك في البادية أعداء ؟

ـ ان القوم يطلبونني ايها الامير وهم لا يبعدون كثيراً عن دمشق .

ـ وأين هم ؟ ـ في تدمر وقد تركتهم فيها منذ أربعة ايام .

قال: عجباً لقوم يظلمون ابن عمهم ويكرهونه على هجر العراق ثم يلحقون به الى بلاد الشام ، اني والله لم اسمع أغرب من هذا .

ثم ظهر الغضب في عينيه وقال : أتظن ايها النمري ان القوم سيجيئون الى دمشق ويطلبونك فيها ؟ ـ نعم .

ـ اذن تبقى الان في حمى الامير ريثما يقدم هؤلاء . ـ وبعد ذلك ؟

ـ ننظر في امرك وأنتم مجتمعون ، فاذا ثبت لنا انك لم تبالغ فيما قلت ، جعلنا ابن عمك ومن معه عبرةً لكل عربي .. والا فالويل لك ..

فتمشى الرعب في جسم كليب ثم تظاهر اللعين بالفرح وجعل يقول :

اشكرك يا مولاي ان في هذا حقي إن شاء الله .. وهمّ بالانصراف .

فاستوقفه معاوية قائلاً : اين تقيم ؟

ـ لقد وصلت الآن وانا لا أعرف مكاناً أنزل فيه .

قال : نحن في الناحية التي دخلها خالد بن الوليد يوم الفتح والغرباء يكثرون فيها.

قال : سأختار الآن منزلاً لي .
- ولكن اذكر اسمك قبل أن تنصرف فقد يدعوك أخي يزيد اليه بعد حين،
فلم يشأ الخبيث الا ان يذكر اسمه الجديد فقال : حيان بن زيد !
فأومأ اليه بالذهاب ، ثم قال لاخيه :
لقد أحدث الفتى حدثاً في العراق ثم أقبل يستغيث بنا عندما طلبه القوم ..
ـ وماذا ترى ؟
ـ أرى ان ينظر أمير العراق في شؤون قومه فنحن لا رأي لنا في الامر ...
فابتسم يزيد وكانت ابتسامته دليل الرضى بدهاء أخيه .
ثم مشى الاثنان والناس ينحنون لهما على الجانبين .

٢٥

قيل للمثنى في احدى الليالي : بالباب رجلان يحملان رسالة اليك من دحية الكلبي، وكان ذلك في الهزيع الاول من الليل، وعند المثنى بعض وجوه قومه، بني شيبان أركان حربة فقال : دحية الكلبي فاتح تدمر بأمر يزيد بن أبي سفيان .. انه لا يبعث رسله الا لامر .. ليدخلا .

فدخل الاثنان وهما يحجبان وجهيهما : فقال : من تدمر ؟ ـ نعم .
ـ وأين الرسالة التي تحملان ؟
فقال احدهما : اما الرسالة فكلام ننقله اليك باسم دحية ! قال : هات .
قال : أمره امير المؤمنين بان يبعث اليك نصف جيشه اذا كنت بحاجة اليه .
قال : هذا فضل امير المؤمنين على الاسلام .. يتعهدامته بعناية السلطان الذي لا ينام .. اجلسا وحدثانا بما تعلمان .

فجعلا يصفان له حال تدمر وحال الجيش ، وهو مستسلم الى لذة روحية ، يشعر بها القائد المخلص لقومه ، عندما يذكر له النصر .

ثم قال : وكم هو عدد الجيش في تدمر ؟ ـ الف رجل !

قال : وفتحت تدمر وحطمت اسوارها بقوة الف ؟ ان الله مع الاسلام فهو لا يخذله وسيخضع لسلطانه قيصر وخليفة كسرى ، ثم قال : ومن هم قواد تدمر غير دحية؟ ـ ليس في تدمر قواد غيره. ـ والعشائر التي ينتمي اليهاجيشه؟

ـ قومه بنو كلب وبنو أسد . ـ وهل اوصا كما بان تقولا لنا غير هذا ؟

ـ أوصانا بان نوجه اليك سؤالاً لا يسمعه أحد .

فأومأ الى رجاله بالخروج من خيمته واستوى في مجلسه ليصغي الى ما يقولان فلما خلت الخيمة من الرجـال ، أخرج الرجل رسالة عبدالله بن الفهر وناوله اياها قائلاً : نحن رسولا عبدالله سيد تغلب . ـ وما شأن دحية الكلبي ؟

ـ لا شأن لهْ ولكننا أردنا بما فعلناه ، ألاّ نلفت الينا الأنظار كما ستعلم .

وكان عبدالله قد ذكر له في رسالته ، موت هند ، على تلك الصورة الرائعة ، ووصف له لوعة الأخوين ولوعة المنذر ولم ينس كليباً فقد خبره كل مـــا سمعه من دحية وسهيل عنه ، ثم سأله في آخرها ، ان يستعين بأمير المؤمنين على ارجـاع كليب الى العراق . فلما قرأها المثنى أطرق وجعل يقول : لقد جارت الأقدار على ابي زبيد وعلى المنذر النمري .. ولكن أمير المؤمنين اذا سلـّم بارجاع كليب فهو لا يسلـّم بقتله ، وما كان ابن الخطاب ليخرج عن الحق .. أجل العدل يقضي بان يطالب كليب بموت هند .. ولكن لا .. فهي لو لم تقذف بنفسها الى الفرات لما خسرتها طيء .. ومع ذلك فسنكتب اليه ليأمر بارجاعه ثم ننظر في أمره يوم يعود .. أتذهبان الى الحجاز ؟

ـ يرى عبدالله ان تبعث معنا رجلاً من قومك .

ـ سنفعل وستسيران مع الرجل عند الصباح .

ـ بل نترك البويب قبل ان يبزغ الفجر خوفاً من ان يرانا ابو زبيد .

قال : أحسنت فليس من الرأي ان يفـــاجأ أمير طيء بهذه الصاعقة .. وسنحتفظ نحن بالسر فلا نبوح به ، وقام فكتب الى أمير المؤمنين كتـاباً يسأله فيه رأيه في الحرب ، ويطلب اليه ان يصغي الى كلمة يقولها له الرجل حـــامل

كتابه ، ثم نادى غلاماً قائلاً له : ادعُ عبد الرحمن بن القاسم الشيباني .

فدعاه ، فقال له : ألا يطيب لك ان تقبل رداء أمير المؤمنين يا عبدالرحمن ؟

ـ هذا ما أرغب فيه .

ـ اذن تذهب غداً مع هذين الرجلين حاملاً اليه هذا الكتاب وتنقل اليه ما أقوله لك الآن على ان لا تنسى منه كلمة ، وقصّ عليه خبر كليب والغـاية من الذهاب الى المدينة . فتناول الرجل الكتاب وخرج مع الرسولين على ان يرحل الثلاثة قبل بزوغ الفجر اي قبل ان يستفيق الجند .

وكان المثنى يقول في نفسه : لقد أصـاب عبدالله فيما صنع فأمراء الشام لا يعيدون جارهم الى العراق الا بأمر أمير المؤمنين .

ولكن كليباً لا يستحق القتل .. وقد يكتفي عمر بان يخلعه قومه الى الأبد.

* * *

ننتقل فجأة من العراق الى الحجاز ، دون ان نعد القبـائل والبوادي التي تمر بها رسل أمراء الجيش .

وكان عبد الرحمن الشيباني يعرف القطرين: الحجاز والعراق ، ولكنه لم يمثل قط بين يدي أميرالمؤمنين، وهو يتوق الى رؤيته جالساً بين وجوه صحابة النبي، يحكم بالناس ، ويؤدبهم بسوطه ، ويأخذ حق الضعيف من القوي .

فلما انتهى مع رفيقيه الى المدينـة ، كان عمر في المسجد وقد أقبل القوم على الصلاة فوقفوا عند الباب لأنه لم يكن في المسجد موضع لقدم .

وقد قيل لهم ان امير المؤمنين يخطب ، ولكنهم لم يسمعوا غير صدى صوته.

حتى فرغ القوم وخرجوا ، وكان عمر، مع علي بن ابي طالب ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، آخر من خرج .

فرأى عبد الرحمن ، بين الأربعة الذين ذكرنا ، رجلا طويلا ، أبيض، شديد حمرة العينين ، على عاتقه الدرة ، وهو يلبس جبةً من صوف مرقعة بالجلد ، فقال في نفسه : هذا عمر بن الخطاب . وتقدّم فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

وعبد الرحمن ، من ابطال بني شيبان وفصحائهم .

فجعل عمر يتفرس فيه ثم قال : عراقي ؟ ؟ ـ نعم يا امير المؤمنين .

ـ وما حاجتك ؟ ـ احمل كتاباً من المثنى بن حارثة .

قال : لقد كثرت رسائل المثنى في هـذه الايام ، خبّرنا انه ظفر بالفرس في البويب وسألنا ان نمدّه بالرأي ففعلنا فماذا يطلب الآن ؟

ـ ان تمده برأي آخر ، وهذا كتابه .

فدفعه عمر الى علي وقال : اقرأ . فلما انتهى علي قال : بارك الله فيه فهو لا يريد ان يحدث بالعراق حدثاً الا اذا أمرنا به .. سنبعث اليه جوابنا غداً .. قل أبرىء المثنى من جراحه التي يصفونها لنا كل يوم ؟

قال يعالجها يوماً ويتركها اياماً ونحن نرى انها ستقتله .. !

قال : يعالجها في السلم ويتركها في الحرب ...

ـ بل يلبس فوقها الدرع فتنتقض ويشتد ألمه ! ـ وكلها في صدره ؟

ـ في الصدر والظهر وعلى الكتفين .

فقال لمن حوله : نخشى ان تبتلع أرض العراق فارس شيبان كما ابتلعت سواه من ابطال العرب ... وأشار الى الرجلين قائلاً : وهذان من قومك ؟

ـ لا انهما من نصارى العرب الذين يقاتلون الفرس مع المسلمين .

قـــال : في الجيش طوائف كثيرة من النصارى تغضب للعزّ كما يغضب المسلمون ... ولكن لا نريد ان يحمل كتاب المثنى ثلاثة رجال ورجل واحـد يكفي لمثل هذا ... قل للمثنى ان يحتفظ برجاله لغير حمـل الرسائل الى الحجاز !!! .

قال : لقد وصف امير المؤمنين لهذين الرجلين فأرادا ان يمثلا بين يديه ، ويسمعا صوته ، وينصتا الى خطبه في المسجد .

فجعل يهز رأسه ويقول : ان امير المؤمنين ، في صلاته ، وحديثه ، وخطبه مثل كل مسلم بل هو أحقرهم جميعاً واذا كان الله أراد ان يجعله خليفة لنبيه فما ذلك الا ليختبر عقيدته وايمانه ... اذهب يا علي .. اذهب يا عثمان فنحن سنجلس

مع هؤلاء الرجال في ظل هذا الجدار .. !!

فانصرف الاثنان ثم لحق بهما الزبير بن العوام .

فمشى عمر الى جدار المسجد وجلس على الارض وأمرهم بالجلوس ثم قال للشيباني : ما اسمك ؟ ــ عبد الرحمن .

قال : هات يا عبد الرحمن ، قصّ علينا جميع ما تعرفه عن احوال العراق. كيف رأيتم حرب الفرس ، وهل ذهبت تلك الجرأة التي كانت لهم من قبل على كل عربي ؟

ــ اي والله ذهبت يا امير المؤمنين وانك لترى الخوف بادياً على وجوههم يوم تتلاحم الصفوف .

قال : لا نأسف على الدنيا ولا نعبأ بها فهي دار الشقاء والبكاء.. ولكننا لا نستطيع الا أن نذكر ، واللوعة ملء هذا الصدر ابناءنا العرب الذين قتلوا يوم الجسر .

ــ ذلك يوم لا أعاد الله مثله على العرب . لقد اظفرنا الله بهم بعده وستنتهي امر الحرب بالنصر الاخير انشاء الله .

وجعل يحدثه بما يعلم ويصف له فرسان المسلمين ورؤساء العشائر حتى انتهى الى ذكر أنس بن هلال ، فقال :

لقد كان هذا الرجل من الابطال الذين تفاخر بهم العرب أهل الفرس .. كان يوم البويب يقتحم الجناح الايمن فيبري رقاب الفرسان ثم ينثني الى الجناح الايسر فيفعل مثل ذلك حتى احاطت به الخيل وجعلته الرماح داخل نطاق ضيق تدفعه فيه الاسنة الى الجانبين ، فهوى وفي جسده أكثر من مئة جرح ، ولكن بعد أن صرع بالسيف ، أكثر من عشرين رجلا جميعهم من وجوه الجيش .

قال : يموت هؤلاء الرجال وتبقى آثارهم .. ومن يخلفه في العشيرة ؟

ــ ولده المنذروهو مثل أبيه ، ولكنهأصيب ليلة قتل أبوهبحادث آخر ينتهي به الى الجنون ان لم ينته الى الموت! ــ وما هو هذا الحادث ؟

فخبره عندئذ عن حكاية المنذر كما أوصاه المثنى ، وطلب اليه أن يأمر امراء

الشام بارسال كليب بن خالد الى العراق ، اذا قبضوا عليه .

فأطرق عمر قليلاً ثم قال : المثنى يطلب ذلك ؟

ـ نعم وهو لم يشأ ان يكتب مثل هذا الى امير المؤمنين .

ـ ولماذا يريد ارجاعه ؟ ـ لان العشائر الثلاث تطلب ذلك منه .

قال : نخشى ان نفعل فيقتل الرجل ، والعدل لا يقضي بقتله ..

ـ لا يجسر المثنى على قتله الا اذا امرته به .

قال : صدقت فسنأمره بأن يؤدبه ثم يطرده من عشيرته اذا رضي بذلك قومه . . اتبعنا الى المنزل فنكتب لك هذا .

وقام فمشى وهو يضرب جبَّته بسوطه وشفتاه لا تعرفان الابتسام حتى دخل المنزل وجلس الثلاثة في الفناء ينتظرون كتابه ..

ولم تمر ، ساعة حتى اقبل احد الغلمان وهو ينادي :

من هو فلان رسول الامير في اليمن ؟

فقام الرجل الذي دعاه وتناول كتاب عمر الى ذلك الامير .

ثم جعل الغلام ينادي الرسل واحداً بعد واحد حتى انتهى الى عبد الرحمن فناوله الجواب ثم هامسه قائلاً : لقد امرني امير المؤمنين بأن أقول لك ، لتقول للمثنى : ان امير المؤمنين جعل ذلك الفتى النمري الذي يدعى كليباً ، في ذمته ، اذا قدم العراق ..!! قال ذلك وانثنى الى الداخل .

وهذا ما جاء في كتاب عمر :

من امير المؤمنين الى كل عامل من عمالنا في الشام :

أما بعد فاذا انتهى الى أحدكم ان رجلاً اسمه كليب بن خالد ، من عشيرة النمر دخل أرضه فليقبض عليه ثم يبعث به الى عاملنا في العراق ليؤدبه ..

وجاء في كتابه الى المثنى : لقد امرنا بما سألتنا اياه ، ولكن احذر ان يقتل الرجل من يدك أو بعلم منك لانه لا يستحق القتل !

فحمل عبد الرحمن الكتابين وهو يقول لرفيقيه : لقد فعل امير المؤمنين ما أراده المثنى وهذا ما يبدو لي ..

وكان الاثنان ذاهلين ، فقال : ماذا جرى لكما الآن . فاجـابه أحدهما قائلاً : وماذا جرى . . لقـــد رأينا عمر بن الخطاب سيد العرب جميعها يلبس جبةً مرقعة ويجالس الرجال الذين لا يعرفهم وراء جدار المسجد ، على الارض ! ! ويحادثهم كما يحادث امراءه .. ويسألهم رأيهم في الجيش والحرب !! وهذا والله اغرب ما رأيناه منذ عرفنا الناس . .

قال الاخر : كانوا يصفون لي عمر فأقول في نفسي : انهم يبالغون في وصفهم ويحاولون ان يجعلوا امير المؤمنين رجلاً من زهّاد العرب ! ـ والان ؟

ـ أما الان فقد رأت اعيننا ولمست أيدينا وسننقل ما رأيناه وسمعناه الى جميع العشائر النازلة في العراق لتعلم من هو ابن الخطاب الذي تحارب تحت لوائه .

وسار الثلاثة الى البيوت التي اعدّها الخليفة وراء المسجد ، لرسل الاقطار وضيوف المدينة ، ليبيتوا ليلتهم فيها ، ويرحلوا عند الفجر تاركين ارض الحجاز .

وانقضى ذلك الليل وهم يسمعون الحكايات عن عدل عمر وشدته في شؤون الاسلام ، وزهده وتقواه ..

وعندما بزغ الفجر ، غادروا المدينة ، وحديث أمـــير المؤمنين في الاذان وصورته في الاذهان .

٢٦

جرت هذه الحوادث التي قرأت ، في خلال الاشهر التي انقضت على جلوس يزدجرد في عرش الفرس ، وذهاب سعد بن ابي وقاص الى العراق ، وموت المثنى ابن حارثة ، ونزول جيش المسلمين في القادسية ، كما مرّ .

وهند في بيت مهاتب الفارسي تنتظر الفرج من الله ، كما ينتظره مثلها عامر بن مذعور وسواد .

وكان عبدالله بن الفهر ، والامراء الثلاثة قد رحـــلوا الى دمشق ، وجعلوا

يطوفون في أسواقها ويتبينون وجوه أهلها كل يوم ، علّهم يبصرون كليباً ، فلم يروا له وجهاً ولم يظفروا بخبر عنه ..

وقد كرهوا ان يسألوا عنه صاحب دمشق ، يزيد بن ابي سفيان ، مع انهم يحملون من دحية الكلبي ، امير تدمر ، كتاباً اليه يوصيه بهم فيه .

وكيف يجدون كليباً وهو قد ترك دمشق الى الاردن بعد ان مكث بها يومين غير كاملين ؟ أجل ، تركها وهو ينظر الى الوراء كما ينظر الخائف الجبان ، ولم يشأ بعد ان سمع من يزيد ومعاوية ما يكره ، الا ان يتعجل في الخروج منها قبل ان يلحق به القوم .

ولم تكن غايته من الذهاب الى الاردن ، النزول ضيفاً على أميرها شرحبيل ابن حسنة بل كانت غايته الطواف في كل ارض فتحها المسلمون، لابساً لباس اهل اليمن ثم لباس اهل الحجاز، ثم لباس اهل الشام ، حتى يملّ القوم الذين يطلبونه، فيضع قدميه عندئذ في بلد يطيب له هواؤه، ويجعل ذلك البلد وطناً له الى الأبد.

وقد يخطر له ، بعد ان تمرّ طائفة من الأعوام ، وتنسى النمر وطيء ثأرهما ، ان يدخل متنكراً ، في احدى الليالي، ديار بني طيء، ويعكر على زبيد الطائي، والزهراء ابنة عمه صفو العيش !! وهذا دليل على العاطفة العالية التي تملأ صدر كليب !.. بل هذا دليل على ان حقده غريب لا يموت !

وبينا كان كليب في ناحية الاردن يشارك أهلها في الاخذ والعطاء وعيناه المضطربتان تنظران دائماً الى طريق دمشق ، وعبدالله ومن معه ينتظرون في دمشق رجوع الرسولين ومعهما كتاب امير المؤمنين الى عماله ، وبينا كانت هند على الحال التي وصفت والكآبة تملأ قلبها العاشق، أقبلت رسل يزدجرد ورستم الى كل بقعة ينزل فيها الفرس ، وهم يدعون القوم الى حمل السلاح .

وجاء من هؤلاء الرسل ، من يدعو مهاتب وولديه ومن حوله ، الى ذلك لا يقبلون لأحد عذراً مهما يكن شأنه ومقامه ..

فرأى مهاتب ان حمل السيف لا بدّ منه ، وان الحكمة تقضي عليه بأن يحمل أهل بيته في المدائن ريثما تخمد نار الحرب .

ان المدائن دار سلام وهدوء ، وفي المدائن جماعة من أهله ، آثرت الاقامة بها على البقاء في الاهواز .

وكان ولداه، بهرام وبشتاسب، قد وافقاه في رأيه ، وخبّرت بشتاسب هنداً انهم يهمون بالرحيل .

فبكت هند ، وقام في ذهنها عندئذ ان الاقدار ستحرمها الرجوع الى ارض العرب ، وخطرت لها فكرة غريبة خطرة ، هي فكرة الفرار .

انها لا تفرّ من ظلم وجور ، وقصور في العناية ، بل تفرّ من ذلك الشقاء الذي يكتنفها في بلاد لا ترى فيها من تحب، ولكن تلك الفكرة لا تخطر الا للمجانين.

ان ذلك الشاطىء يغصُّ بالفرس كما رأيت ، وزوارق الفرس ، في الفرات ، تغطي سطح الماء ، وهب انها أرادت ان تعبر الفرات في زورق لها دون ان تعبأ بذلك فهي لا تملك هذا الزورق ، ولا تحسن قيادته ، وليس هنالك من يساعدها في قضية العبور !

بلى .. هنالك عامر بن مذعور وسواد ! ولكن الاثنين من الأعداء ، والبقاء في ضيافة مهاتب الفارسي ، خير من الاستسلام الى هذين العربيين .

نعم، كان في صدرها شيء من الايمان بصدق عامر بن مذعور ، غير انها عندما عالجت ايمانها ، رأت انه ايمان متزعزع لا يقوم على اساس .

أفتهرب من شر لها أمل بالنجاة منه، لتقع في شر آخر يضيع معه ذلك الأمل؟ ومن يعلم ، فقد يذهب بها عامر وسواد الى سيدهما كليب بن خالد وهناك البلاء ، وكانت مطرقة ، تفكر فيما مر ، وعيناها تذرفان الدموع .

فقالت بشتاسب: سمعت ابي يقول ان في الذهاب الى المدائن خيراً لنا ولهند.

فهزّت رأسها قائلة : وأين هو هذا الخير الذي تذكرين ؟ اني لا استطيع ، وانا في هـذا السهل ، ان اعود الى المعسكر العربي الذي لا يبعد كثيراً عنه ، أفأستطيع ان أعود اليه من المدائن، عاصمة الفرس، بعدان يذهب ابوك وأخواك الى ساحة القتال ؟

فخفضت صوتها وهي تقول : أجل ، تستطيعين ان تفعلي غداً ، وانت في

المدائن ، ما لا تستطيعين ان تفعليه اليوم ، وانت في هذا المكان .

وكانت لهجتها لهجة الواثق المطمئن ، فقالت : انك تهزأين بي . !

ـ بل أقسم لك اني صادقة فيما اقول ، وفي ذلك سر ليس من الرأي ان ابوح به .

فبرقت عيناها وجعلت تقول : أتكتمينني اياه وقد أحاطني ابوك بفضله ، وجعلني بعنايته ، وعطفه وكريم خلقه ، اختاً لابنته ؟

قالت : انه من اسرار ابي وقد اوصاني بحفظه .

ـ وانا اقسم لك بدوري اني سأحفظه كما تحفظينه كأنك لم تذكريه لي .

فجلست بالقرب منها وهامستها قائلة : يظن ابي ان العرب ستزحف الى المدائن بعد ان يتمّ لها الفتح في هذا القطر .

ـ ولكنه قد لا يتم وقد يعود المسلمون الى الحجاز وهم يتعثرون بالفشل .

قالت : لم يفشل المسلمون غير مرة واحدة سببها الأفيال ، التي أرادوا ان يقاتلوها كما يقاتلون الرجال . ـ ومع ذلك فالغيب لا يعلمه الا الله .

قالت : سترين ان علم الاسلام سيخفق على شاطىء دجلة والفرات ، وسترفعه أيدي الابطال الى ابراج ذلك الايوان العظيم ايوان كسرى !

ـ تقولين هذا وانت فارسية ؟

ـ نعم أقوله وانا فارسية ثم اقول ايضاً ان دولة الفرس لا تعيش اكثر من عام .

ـ ومن اين لك ان تعلمي ذلك ؟

ـ هذا ما يتحدّث به ابي وبهرام ، وهما واثقان ، بان القواد الذين يستطيعون ان يصرعوا ، بعشرين الفاً من رجال العرب ، ستين الفاً من رجال الفرس ، يستطيعون ، بعد قليل ، ان يجعلوا المدائن ميداناً لخيلهم ، ويحطموها ، على رؤوس اصحابها اهل المطامع والكبرياء !

قالت : لنفرض ان الامر استقام للمسلمين كما تقولين فماذا يحدث بعد ذلك ؟

ـ تعودين بعد ذلك الى قومك العرب الذين يصبحون سادة الموقف وتفتح طيء ذراعيها لتحتضن الفتاة التي ابتلعها الفرات .

فافتر ثغر هند لذكر اللقاء ثم قالت : واذا ظفر الفرس بالمسلمين ؟

– يحملك ابي الى ديار طيء ويقول لأبي زبيد : هذه هند التي انقذتها من الماء اعيدها اليك !   – ولماذا لا يفعل اليوم ما يريد ان يصنعه في الغد ؟

– لانه لا يجسر اليوم على حمل فتاة من العرب ، الى المعسكر العربي خوفاً من ان تراه عيون قومه فيكون جزاؤه القتل .

فمحت كلمات بشتاسب كآبة هند ، وأغمضت عينيها لتستسلم الى تلك اللذة التي تخيلتها ، لذة اللقاء .. ثم قالت : ومتى نرحل عن هذه الارض ؟

– بعد ان يتهيأ ابي للرحيل ،   – ونسير على هذا الشاطىء ؟

– بل نسير في دجلة حتى ننزل في مكان قبل المدائن ، يقال له بهادر ، تحملنا منه الخيل .   – وعامر بن مذعور .

– سيحتفظ ابي به وبرفيقه كما يحتفظ بهند !   – وما هي غايته .

– قد يجعله أو يجعل سواداً رسولاً له الى أبي زبيد اذا قضت الحاجة بذلك .

ففتحت هند ذراعيها وتعانقت الفتاتان وكانت دموع هند في تلك الساعة دموع فرح لم تشعر بمثله منذ أُنقذت من الفرات .

ولم يغمض للاثنتين جفن في تلك الليلة ، فقد طاب لهند السهر والاستسلام الى الامل . وطاب لبشتاسب ان تعللها بالمنى وتذكر لها الحبيب .

وبعد ستة ايام ترك القوم ذلك السهل الى شاطىء دجلة، ثم ركبوا زورقاً لهم الى بهادر ، فمكثوا به ليلة واحدة ، ثم تركوه في الصباح يريدون المدائن ، على ظهور البغال والخيل .

وكانت عاصمة الفرس ، تلك المدينة الفسيحة الجوانب ، تغصُّ بالجنود ، والقوم ينادون في الاسواق : الى الحرب ، الى الحرب !..

* * *

٢٧

تركنا سعداً في القـــادسية ، والفرس يمشون اليه ، بصفوفهم ، وخيلهم ، وأفيالهم ، كأنهم قطعة من رمال الشاطىء ، وعيون العرب ينقلون اليه كل ذلك كأنه يراه . وكان قد جعل لكل قائد من قواده شأناً من شؤون الجيش .

جعل زهرة بن الحويّة على مقدمته ، وعبدالله بن المعتم وشرحبيل بن السمط الكندي على الجنـــاحين ، وعلى المجرّدة عاصم بن عمرو ، وعلى الطلائع سواد بن مالك ، وعلى الرماة والمشاة والفرسان ، قواداً هم أهل الشدة والخبرة بالقتـال .

وأقام ينتظر وصول عدوه حتىأقبل رستم وقد فعل مثلما فعل سعد من تنظيم الصفوف عليها القواد .

وبين خروج الجيش الفارسي من المدائن وبلوغه القادسية أربعة أشهر لم يجرد فيها سيفاً ولم يسفك دماً .

وللفرس . من وراء ذلك غرض ذكرناه فيما مرّ هو ان يطاولوا المسلمين رجاء ان يضجروا ويملوا فينصرفوا ، ولو لم يستنهض يزدجرد قائد جيشه ، ويستعجله في خوض المجال ، لآثر رستم المطاولة الدائمة ، على الحرب .

والجالينوس ، وذو الحاجب ، وغيرهما من عظماء القواد ، كانوا من رأيه ، غير ان الملك الفارسي لم يشأ الا ان تتلاحم السيوف .

وكان مع رستم، ثلاثة وثلاثون فيلاً ، في القلب منها ثمانية عشر فيلاً ، والباقي في الجناحين ، سيّد هذه الأفيال جميعها ، فيل سابور الابيض، الذي كان أعظمها وأقدمها وهي تألفه وتتبع آثاره في الميادين .

نزل رستم مكاناً يقال له العتيق ، فلما أصبح من ليلته ، أصبح راكباً في خيله، وهو ينظر الى المسلمين الذين يتحفزون للوثوب ، ثم صعد حتى انتهى الى قنطرة يشرف منها على القوم ، وقد خطر له في تلك الساعة ان يعمد الى اللين ، قبل ان تلتقي الخيل بالخيل ، ثم ما لبث حتى راسل زهرة بن الحوية قائد المقدمة .

فخرج اليه زهرة حتى داناه ، فقال رستم :

لي كلمة أقولها لك قبل ان نبدأ ! قال : ما هي ؟

قال : « انتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا فكنا نحسن جوارهم ونكفّ الأذى عنهم ونوليهم المرافق الكثيرة ، ونحفظهم في باديتهم فنرعيهم مراعينا ولا نمنعهم من التجارة في أرضنا وقد كان لهم في ذلك معاش كما تعلم » .

ومعنى ذلك ان الفارسي يريد الصلح ولكنه لا يصرّح .

فقال له : « صدقت قد كان كما تذكر ، ولكن ليس أمرنا اليوم أمر اولئك ولا نطلب ما كانوا يطلبون » . — وماذا اذن ؟

— « انـّا لم نأتكم لطلب الدنيا انما نطلب الاخرة .. أجل ، كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ويضرع اليكم يطلب ما في أيديكم ، غير ان الله بعث الينا رسولاً يدعونا الى ربه فأجبناه ،فقال الله لنبيه صلـّى الله عليه وسلـّم: اني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم واجعل لهم الغلبة ما داموا مقرّين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد الا ذلّ ولا يعتصم به أحد الا عز » . قال : وما هو ؟

قال : « أما عموده الذي لا يصلح منه شيء الا به ، فشهادة ان لا آله الا الله وان محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى » .

قال : ما أحسن هذا واي شيء ايضاً ؟

قال : وإخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله .

— حسن ، وأي شيء ايضاً ؟

— والناس بنو آدم وحواء اخوة لأبٍ وام .

— ما أحسن هذا ، ولكن كيف يكون امركم اذا انا رضيت بهذا الامر وأجبتكم اليه مع قومي .. أترجعون عن هذا الارض ؟

— اي والله ثم لا نقرب بلادكم ابداً الا في تجارة او حاجة .

— « صدقتني والله ، ولكن اهل فاوس ، منذ ولي ازدشير الى هذا لليوم ، لم يدعوا أحداً من السفلة يخرج من عمله ، وكانوا يقولون : اذا خرج القوم من أعمالهم تعدّوا طورهم وعادوا اشرافهم !.»

قال : نحن خير الناس للناس فلا نستطيع ان نكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا يضرننّا من عصي الله فينا .

قالها زهرة وانصرف وهو لا يلتفت الى الوراء ، وقد ايقن بان الرجل يرغب في الصلح اذا وافقه قومه فيه .

وانثنى رستم يحدث وجوه الجيش بما قيل له ،فأنفوا ، ولم يرضَ احدٌ بما قيل.

فأرسل رستم الى سعد يقول له : ابعث الينا رجلاً من قومك نكلمه ، فدعا سعد جماعةً من دهاة العرب ليبعث بهم اليه .

فقال له ربعي بن عامر : متى نأتهم جميعاً يروا اننا قد احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل . فقال القوم : صدق ربعي فابعث به وحده .

فخرج ربعي حتى بلغ القنطرة ، فاستوقفه القوم وأرسلو الى رستم يستأذنونه ، فقال لقواده : ما ترون ؟ أنباهي ام نتهاون ؟ فأجمعوا على التهاون .

فوضع لرستم سرير من الذهب زينته من الأنماط والوسائد ، وبسط القوم البسط داخله ووضعت على الفسطاط وخارجه حتى ليظن الداخل انه في احد القصور .

وأقبل ربعي ، على فرس له قصيرة ، كثيرة شعر الوجه ، ومعه سيف له مصقول يحجبه غمد هو لفافة ثوب بالٍ ، وترسه من جلود البقر لا خشب له ولا عقب ! .. فلما انتهى الى البساط قيل له : انزل .

فحمل فرسه على البساط ، ثم نزل وربطها بوسادتين شقّهما وأدخل الحبل فيهما ، فتظاهروا بالتهاون ولم ينهوه عن عمله !!

وكان عليه درع ، وفي وسطه عباءة قصيرة وقد شدّها عليه ، وجعل شعره اربع ضفائر قائمة كأنها قرون الوعل !! فقالوا : ضع سلاحك ..

قال : لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم انتم دعوتموني فان أبيتم رجعت .

فأخبروا رستم فقال : ائذنوا له .

فمشى الرجل يتوكأ على رمحه وهو يقارب خطواته فلم يترك لهم بساطاً الا أفسده بسنان الرمح .. فلما دنا من رستم جلس على الارض !

فقالوا له : ما حملك على هذا ؟

قال : انـّا لا نستحبّ القعود على زينتكم هذه !

فقال الترجمان : ما جاء بـكم ؟

قال : « الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الاسلام فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم اليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه ، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي الى الجنة او الظفر » .

قال : قد سمعنا قولـكم فهل لـكم ان تؤخروا هذا الامر فننظر فيه ؟

– نعم ، وان مما سنّ لنا رسول الله ان لا نمكن الاعداء اكثر من ثلاث فنحن متردّدون عنكم ثلاثة ايام فانظر في امرك واختر واحدةً من ثلاث بعد الأجل: اما الاسلام وندعك وارضك ، او الجزية فنقبل ونكف عنك وان احتجت الينا نصرناك ، أو المنابذة في اليوم الرابع ولسنا نبدأك الا ان تبـدأ انت وانا كفيل لك عن اصحابي . – أسيّدهم انت ؟ .

– لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم !!

فخلا رستم بعظماء قومه فقال : هل رأيتم كلاماً أعز وأوضح من كلام هذا الرجل ؟ قالوا : معاذ الله ان نميل الى شيء من هذا أما تنظر الى ثيابه؟.

قال : ويحكم لا تنظروا الى الثياب ولكن انظروا الى الرأي والكلام..ان العرب تستخف باللباس وتصون الاحساب . .

فلم يسمعوا له ، بل عمدوا الى ربعي يتناولون سلاحه ويزهدونه به .

فأخرج سيفه من لفافة الثوب كأنه شعلة نار،ثمرمى ترساً من تروسهم فاخترقه، ورموا حجفته « الترس من جلد » فسلمت فقال : يا أهل فارس ، انكم عظمتم الطعام واللباس والشراب ونحن صغرنا كل هذا .

وقام فرجع الى الجيش ريثما ينظر القوم في امرهم .

فلما كان من الغد ، أرسل رستم يقـــول لسعد من جديد : ابعث الينا ذلك الرجل فبعث اليهم حذيفة بن محصن وعليه ثياب تشبه ثياب ربعي .

فلما انتهى الى البساط ، وقف ولم ينزل عن فرسه . فقالوا له : انزل .
قال : لا أفعل ... اني لم اجيء لحاجة لي ، بل لحاجة لملككم .. !
فلما أبى قال له رستم : ما جاء بك و لِمَ لم يجيء صاحبنا الآخر ؟
قال : إن أميرنا يحب ان يعدل بيننا في الشدة والرخاء فهذه نوبتي ...
ـ وما جاء بكم ؟ فأجابه كما أجابه الرسول الاول .
فرأى رستم ان يردّه لانه لم يسمع غير ما سمعه امس .
ثم أقبل على أصحابه فقال : ألا ترون الآن ما أراه ؟ جاء الاول امس ، فحقّر ما نعظّم وأقام فرسه على بساطنا وربطها به . وجاء هذا ، اليوم ، فوقف علينا ولم ينزل عن فرسه ولم يقل الا ما قاله رفيقه .
فغضب القوم ولم يسمعوا له ...

فاراد ان يستدعي مسلماً آخر ، غير حذيفة وربعي ، ليرى اذا كان أحدهم يظهر شيئاً من الخوف ، او يصغي الى رأي من آراء الفرس .
فبعث اليه سعد ، المغيرة بن شعبة .
فأقبل على القوم ، وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، حتى بلغ سرير رستم الذهبي فجلس معه عليه !!!
فانزلوه مكرهاً فقال: « قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم .. انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا البعض الاخر الا اذا كان محارباً له وكان احسن من الذي صنعتم ان تخبروني ان بعضكم ارباب بعض ... ألا فاعلموا انكم مغلوبون وان الملك لا يقوم لا على هذه السيرة ولا على هذه العقول .
فتهامسوا قائلين : قاتل الله أباءنا واجدادنا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة .

وجعل رستم يمازحه ليمحو ما صنع ثم قال : تكلم يا عربي ام اتكلم .
قال : « انت الذي بعثت الينا فقل ما تشاء .
« فحمد الفارسي قومه وعظم أمرهم وقال : لم نزل متمكنين في البلاد ، ظاهرين على الاعداء ، اشرافا في الامم فليس لاحد من الملوك مثل عزنا

وشرفنا وسلطاننا . ننتصر على الناس ولا ينتصرون علينا الا اليوم واليومين أو الشهر والشهرين للذنوب .. فاذا انتقم الله ورضي ، ردّ الينا عزّنا وجمعنا لعدوّنا شر يوم .. ثم قال :

« لم يكن في الناس امة أصغر عندنا شأناً منكم !! كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة لا نراكم شيئاً ولا نعدُّكم، وكنتم تقصدوننا اذا قحطت أرضكم فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير ثم نردّكم ، وقد علمت انه لم يحملكم على ما صنعتم الا ما أصابكم من الجهد في بلادكم فانا آمرُ لاميركم بكسوة وبغل والف درهم وآمر لكل رجل منكم بحمل من التمر وثوبين وتنصرفون عنا فاني لست اشتهي ان اقاتلكم .. »

فقال المغيرة : « اما الذي ذكرت به نفسك واهل بلادك فنحن نعرفه فالله صنعه بكم ، واما الذي ذكرت فينا من سوء الحال والضيق فالله ابتلانا به ، والدنيا دول ولم يزل اهل الشدائد ، يتوقعون الرخاء حتى يصيروا اليه ، ولم يزل اهل الرخاء يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم . ثم ذكر ما ذكره قبله حذيفة وربعي عن الاسلام ، والجزية ، والقتال حتى انتهى الى قوله :

« وان احتجت الينا ان نمنعك فكن لنا عبداً تؤدي الجزية وانت صاغر والا السيف ان أبيت . » ولعله أراد ان يداعبه فقال : « ان عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لا صبر لنا عنه ...! »

ـ « ولكنكم ستموتون دون ذلك »

قال : « يدخل من قتل منا الجنة ، ومن قتل منكم النار ، ويظفر من يبقى منا ، بمن يبقى منكم !! »

فأستشاط رستم غضباً ثم حلف بالشمس ان الصبح لا يطلع غداً حتى يقتلهم جميعاً فانصرف المغيرة لينقل الى سعد ما رآه

فخلا رستم عندئذ بأهل فارس وقال لهم : اين هؤلاء منكم ، هؤلاء والله الرجال ، صادقين كانوا ام كاذبين .. والله لئن بلغ من حكمتهم وصونهم سرهم ان لا يختلفوا فما قوم ابلغ لما أرادوا منهم ، ولئن كانوا صادقين فما يقوم لكم شيء . . فتجلدوا واصبروا على الشدة .

فلما رجع المغيرة الى المعسكر وخبر سعداً قال لأهل الرأي : اذهبوا الان انتم وانصحوا للقوم فما بعد هذه النصيحة الا الحرب .

فساروا وكانوا ثلاثة فقالوا لرستم : « ان اميرنا يدعوك الى ما هو خير لنا ولك ، أن تقبل ما دعاك اليه ونرجع الى ارضنا وترجع الى ارضك ، وبلادكم لكم وأمركم فيكم ونكون عوناً لكم على من يريدكم فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يديك »

قال : لقد كنا نجيركم ونحن اليكم فلما طعمتم طعامنا وشربتم شرابنا وصفتم لقومكم ذلك ووعدتموهم ثم أتيتمونا .. انه لم يبق الان الا السيف ، فقولوا أتعبرون الينا أم نعبر اليكم ؟ — اعبروا انتم .

ورجعوا عند المساء وهم يرددون : السيف السيف ...

فارسل سعد الى صفوفه ان يقفوا موقفهم وبعث من يقول للفرس : شأنكم والعبور ، ثم أمر طائفة من جيشه بان تهدم قنطرة العتيق ليعدّ الفرس لهم معبراً آخر يوصلهم الى الشاطيء الثاني . ولم يتردد الفرس في اعداد ذلك فقد باتوا ليلتهم يعالجون النهر حتى جعلوا لهم معبراً . وكان رستم يقول : انما خلا الجو للثعلب حين مات الاسد وهو يريد بالاسد كسرى .

على ان الخوف كان يملأ قلبه وقد أظهر خوفه لمن يثق بهم من رجاله .

٢٨

عندما عبر الفرس العتيق جلس رستم على سريره وجعلت الرسل تحمل أوامره الى صفوف جيشه الكثير الذي يغطي وجه الارض .

جعل أفياله في القلب والجناحين ، وأقام الجالينوس بينه وبين الجناح الايمن والفيرزان بينه وبين الجناح الايسر وأعدّ لكل أمر عدته .

وكان الملك يزدجرد ، قد وضع بينه وبين رستم رجالاً أولهم على باب إيوانه

في المدائن ، وآخرهم في ساحة القتال ، فكل ما فعل رستم شيئاً نقلوه الى الملك كما هو حتى استطاع يزدجرد ان يحصي على قواده الانفاس .

واصطف المسلمون ونادى مناديْ سعد : الا ان الحسد لا يحل الا على الجهاد في أمر الله ، يا ايها الناس ، تحاسدوا وتغايروا على النصر .

على ان سعداً لم يكن يومئذ يستطيع الجلوس لجروح أُصيب بها .

وكان هنالك قصر يقيم به فكنت تراه ، على سطح ذلك القصر ، مكباً على وجهه فوق وسادة له ، وهو يشرف على الناس .

وقد عاب سعداً بعض من كان يبغضه فقال :

نقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيمٌ

فبلغت أبياته سعداً فقال : اللهم ان كان هذا كاذباً وقال الذي قاله رياء فاقطع عني لسانه ، فبينا ذلك الرجل واقف في الصف يومئذ ، أتاه سهم فأصابه فكان سبباً في اعتقال لسانه فما تكلم بعد ذلك كلمة حتى مات !

وكان خالد بن عرفطة ، يأمر الناس في ذلك اليوم باسم سعد ثم رأى سعد ان يستخلف خالداً عليهم ، فأبى بعض وجوه الجيش ان يأتمروا أمر خالد وكاد الخلاف يدبّ في الصفوف ، فقال سعد : احملوني واشرفوا بي .

فحملوه ، فهمّ بهم وشتمهم ثم قال : أما والله لولا ان عدوّكم بحضرتكم لجعلتكم نكالاً لغيركم .

وأمر بهم ، فجعلت القيود في أرجلهم ، ووضعوا في القصر ، بينهم بطل من أبطال بني ثقيف هو ابو محجن الثقفي ، ثم كتب الى اصحاب الرايات :

اني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة وليس يمنعني ان أكون مكانه الا وجعي فاني مكب على وجهي وشخصي لكم باد فاسمعوا له وأطيعوا فانه إنما يأمركم بأمري ويعمل برأيي .

فقرىء كتابه على الناس فانتهوا الى رأيه ، وقبلوا ذلك منه ، وأجمعوا على قبول عذره والرضى بما صنع .

ثم دعا اهل النجدة والرأي بينهم المغيرة ، وحذيفة ، وربعي وعـــاصم بن عمرو وطليحة الاسدي ، وعمرو بن معدي كرب ، والشعراء ، بينهم الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعبدة بن الطيب وقال لهم :

انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البـــأس ، فانكم من العرب بالمكان الذي انتم به ،وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم فسيروا في الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال .

وهنا ننقل اليك ايها القـارىء ، صورة عن العقيدة المقدسة التي كانت تتغلل في صدور القواد ، وانت تكاد تلمسها بين السطور التي ستقرأ :

وقف قيس بن هبيرة الاسدي خطيباً قال :

« أيها الناس، احمدوا الله على ما هداكم له يزدكم ، واذكروا فضل‌الله وارغبوا اليه في عاداته فان الجنة او الغنيمة أمامكم وانـه ليس وراء هذا القصر الا العراء والارض القفر والفلوات .. »

وقال غالب الليثي : « ايها الناس ، احمدوا الله وادعوه يجبكم ، يا معـــاشر معدّ ما علتكم اليوم وأنتم في حصونكم « يعني الخيل » ومعكم من لا يعصيكم « يعني السيوف » ، اذكروا حديث الناس في غدٍ فانه بكم غداً يبدأ » .

وقال ابن الهذيل الاسدي: « يا معاشر معدّ اجعلوا حصونكم السيوف وكونوا عليهم كأسود الاجم ، وتربدوا لهم تربد النمور ، وادرعوا العجاج وثقوا بالله وغضّوا الابصار ، فاذا كلّت السيوف فارسلوا عليهم الجنـادل « الحجارة » فانها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه » .

وقال بسر ابن ابي رهم : « احمدوا الله وصدّقوا قولكم بفعل ، فقد حمدتم الله على ما هداكم له، ووحدتموه ولا اله غيره ، وكبرتموه وآمنتم بنبيه ورسله فلا تموتنّ الا وانتم مسلمون ولا يكوننّ شيء بأهون عليكم من الدنيا فانها تأتي من تهاون بها ولا تميلوا اليها فتهرب منكم لتميل بكم . »

وقال عاصم بن عمرو : « يا معاشر العرب انكم أعيان الناس وانمـا تخاطرون بالجنة ويخاطر الفرس بالدنيا فلا يكوننّ على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم . لا

تحدثوا اليوم امراً تكونون به عاراً على العرب غداً . »

وقال ربيع السعدي : « يا معاشر العرب قاتلوا للدين والدنيا وسارعوا الى مغفرة من ربكم وان عظّم الشيطان عليكم الامر فاذكروا الاخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار اهل » ..

وقال ربعي بن عامر: « ان الله قد هداكم للاسلام وجمعكم به وأراكم في الصبر الراحة فعوّدوا انفسكم الصبر تعتادوه » .

هذه هي الخطب التي تجلت فيها روح قواد المسلمين « قبل ان يهاجموا ذلك الجيش الكثير المستخف بقلتهم .

فبعد ان انتهوا أمر سعد بان تقرأ سورة الجهاد وكان المسلمون كلهم يتعلمونها فقرأت في كل كتيبة من كتائبهم فهشت القلوب والعيون ، وكان جيش الفرس على شفير العتيق ، وجيش المسلمين عند حائط قديس ووراءهم الخندق ، اي ان الجيشين كانا بين الخندق والعتيق .

فرفع سعد صوته ، وهو على سطح القصر يقول : الزموا مواقفكم حتى تصلوّا الظهر ، فاذا صليتم فاني مكبر تكبيرة فكبّروا واستعدوا ، فاذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم ، فاذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس . فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم وقولوا لا حول ولا قوة الا بالله ..

وعندما صلوّا الظهر ، كبّر سعد الثالثة ، فبرز اهل النجدات فأنشبوا القتال ، وخرج اليهم من الفرس امثالهم وبدأوا الطعن والضرب .

ثم برز غالب بن عبدالله الاسدي وهو يقول شعراً .

فخرج اليه عظيم من عظماء الفرس يدعى هرمز ، وهومن الملوك ، وكان متوجاً ، فأسره غالب وجاء به فوضعه بين يدي سعد ثم انصرف يطارد سواه .

وفعل عاصم بن عمرو مثلما فعل وأسر آخر .

ثم مرّ عمر بن معديكرب بين الصفين وهو يحرّض الناس ، فتصدى له فارس من الأعاجم ، فحمل عليه فاعتنقه ، ثم اخذ بمنطقته فحمله ووضعه بين يديه ، ثم

جاء به حتى اذا دنا من المسلمين، كسر عنقه ثم وضع سيفه على حلقه فذبحه والقاه ثم قال : هكذا فاصنعوا بالاعجام .

فقال له احدهم : يا أبا ثور من يستطيع ان يصنع كما تصنع !

فلما رأى الفرس ذلك ، أمر رستم فريقاً من جيشه ، بان يهاجم بني بجيلة ، وكانوا في المقدمة ، فحملوا على القوم ومعهم سبعة عشر فيلاً عليها الرجال .

ففرّقت الافيال الكتائب ، ونفرّت خيل بجيلة وضعضعت صفوفها حتى انه لم يبق من اهل المواقف ، غير المشاة .

وعين سعد ترى كل شيء، فارسل الى بني اسد وهم وراء القوم يقول : دافعوا عن بجيلة ومن حولها من الناس .

فخرج طليحة بن خويلد ، وحمال بن مالك الاسديان ، في كتائبها وجعل طليحة يخاطب عشيرته قائلاً : يا بني أسد ، لو علم سعد ان احداً أحقّ باغاثة هؤلاء منكم لاستغاثه ، ابدأوا الشدة ، واقدموا عليهم اقدام الليوث فانما سميتم أسداً لتفعلوا فعل الاسد ..

فاقتحم اولئك الرجال البسلاء ذلك العجاج ، وما زالوا يطعنون عدوهم ويضربونه حتى تراجعت الافيال الى الوراء .

ولكن الفرس كانوا يدفعونها الى الامام ، وقد هالهم رجوعها مذعورة خائفة فشدوا على المسلمين بقوة وعنف، على رأسهم ذو الحاجب والجالينوس، والمسلمون ينتظرون ان يكبر سعد تكبيرته الرابعة . ثم صاح سعد الله اكبر .

فمشت الصفوف عندئذ كما يمشي الرجل الواحد الى عدوه ، ورحى الحرب تدور على بني بجيلة وأسد ، وحملت الافيال على جناحي المسلمين فأحجمت الخيل وتنحت عن الساحة وفرسانها تدفعها وهي تتراجع حتى أيقن رستم وقواده بأنهم سيمسون بعد ساعة سادة الموقف. وسمع الناس سعداً يقول: عليّ بفارس بني تميم !

فأقبل عاصم بن عمرو فقال سعد : يا معشر بني تميم ، ألستم أصحاب الأبل والخيل ، اما عندكم حيلة لأفيال فارس ؟؟ قال : بلى والله ...

ثم نادى رجالاً من قومه رماةً واخرين لهم الجرأة والشجاعة والرأي فقال

لهم : يا رماة العرب ارسلوا سهامكم الى ركبان الفيلة ، وقـال لاولئك : واستدبروها انتم ايها الابطال وأروني فعل الرجال .

فأقبلوا يفعلون ما أمرهم به ، وارتفع عواء الفيلة وهم يصرعون اصحابهـا ويقطعون أحزمتها ، ويردونها بالرماح فلم يبق فيل منها الا عوى .

وعاصم يحمي قومه ، وقـد جال الجناحان ، وتلاحم الصفّان ، حتى ردّ المسلمون اهل فارس عن مواقفهم ، وعاد الامل الى صدور بجيلة وأسد .

وغربت الشمس والناس يقتتلون ، ولم يتركوا السيف الا بعد ان ذهبت هدأة من الليل ، وبعد ان خسر بنو اسد وحدهم خمسمائة من الرجال ، ويقـال لذلك اليوم ، يوم ارماث .

ولم يسمع لأبي زبيد الطائي فارس الميادين ، صوت في ذلك اليوم ، فقد كان يقاتل ولا ينتمي ، ويقتحم الغمرات والسيوف والرماح ، لا تصل اليه ، وكانت زوجته الباسلة التي مرّت الاشهر وهي تندب حظها ، تطوف مـع النسـاء وراء الصفوف وهي تردد قائلة : اللهم استجب دعائي، واحفظ ابا زبيد ، اللهم أردد اليّ بنيّ الثلاثة ..ولم يرها الناس ، في الليل والنهار ، الا باكية ..

ولكنها لم تترك الميدان ، على رغم جور الزمان .. !!

انها من نساء العرب اللواتي يرافقن الجيش.. وعلى كل واحدة من هؤلاء النساء واجب تقوم به في ساحة القتال لا تنساه ولا تثنيها الحادثات عنه !!

يعهد اليها في امور الجرحى فتبذل لهم من العناية ما تخور عنده قوى الرجال. وتملي عليها قوميتها وشرفها ان تحرض قومها على الحرب فتمشي في الطليعة تنفخ روح البسالة في الصدور وتستنهض الهمم ، ثم تذكر في آخر الليل انهـا ام .. فتبكي البكاء الذي يفطر القلوب ..

أجل ، كانت المرأة العربية تنسى نفسها ، وقد تموت عـاطفتها وهي بين الصفوف فتنتهر ولدها اذا كان جباناً وتهوّن عليه الموت ، وتهين زوجها اذا رأته خوّار العزيمة !! وقد ترى العجاج في ثورته فتدفع اليه فلذة كبدها وهي مشرقة الجبين باسمة الثغر !!

هذه ام زبيد المنكودة الحظ حجة لمـــا نقول .. وهذه زوجة سعد بن ابي وقاص نفسه دليل آخر . كان سعد قد تزوج سلمى بنت خصفة امرأة المثنى بن حارثة كما مر ، وكانت معه في القادسية .

فلما كان ذلك اليوم ، وجال الناس، جعل سعد يتململ وهو لا يطيق الجلوس ولم يكن جباناً.. وسلمى ترى ما يصنعه اهل فارس وأفيالهم ببني اسد ، فقالت:

وامثنـَّياه ولا مثنى للخيل اليوم ..

ولقد جرحت بذلك كرامة زوجها الذي أضجره مرضه ، وما يراه من جهد اصحابه .. فلطم سعد وجهها وقال : اين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى ؟.. وهو يعني بني اسد وبني تميم .

فقالت : أغيرةً وجبناً ؟!

قال : والله لا يعذرني اليوم أحداً اذا أنت لم تعذريني وانت ترين ما بي !!

خذ لك مثلا آخر ..

كانت امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القادسية ، فقالت لهم :

انكم أسلمتم فلم تبدلوا ، وهاجرتم فلم تنبُ بكم البلاد، ثم جئتم بأمكم التي هي عجوز كبيرة فوضعتموها بين أيدي اهل فارس ..! والله انكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره ..

فوثبوا الى معترك الشفار.. فلما غابوا عنها رفعت يديها الى السماء وهي تقول: اللهم ادفع عن بنيّ. ثم رجعوا اليها وقد أحسنوا القتال لم يجرح منهم رجل جرحاً.

ان العرب لتفاخر الامم كلها بمثل هؤلاء النساء .

* * *

كان أمير المؤمنين ، قد كتب الى ابي عبيـــدة بن الجراح ، يأمره بصرف الرجال الذين ذهبوا الى الشام مع خـالد بن الوليد ، الى العراق ، كما قرأت من قبل ، وكان ذلك بعد فتح دمشق .

ففعل أبو عبيدة مـــا أمره به عمر ، وصرف القوم وهم ستة آلاف ، خمسة آلاف من ربيعة ومضر والف من غير هؤلاء ، على الجميـع ، هاشم بن عتبة بن ابي وقاص . وقد جعل هاشم على مقدمته القعقاع بن عمر .

فلما أصبح القوم في القـــادسية ، بعد يوم ارماث ، عهد سعد الى طائفة من رجاله في نقل القتلى الى واد هناك بين موضعين يقـال لهما العذيب وعين الشمس وتسليم الجرحى الى النساء .

وكان الجيشان ، ينتظران حتى يتم الدفن ، ليبدأا القتـــال .

فعندما حملت الابل جثث العرب الى العذيب ، طلعت نواصي الخيل من الشام على رأسها القعقاع المشار اليه . وقد أمر أصحـابه ، وهم الف ، ان يمشوا عشرة عشرة ، وتعجل هو في المسير فوصل صبيحة ذلك اليوم ، الذي يقـــال له يوم « أغواث » .

وكان معظم الجيش يعرف ذلك البطل الجبار الذي قال عنه الخليفة ابو بكر: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا ..

أقبل القعقاع على النـــاس فسلم وبشرهم بالجنود ، ثم التفت الى ناحية الفرس فرأى صفوفهم قائمة للحرب ، فتوسط الميدان ونادى : من يبارز ؟

فتردد قواد الاعجام قليلاً ، ثم برز ذو الحاجب الذي لا يجهله الجيش العربي .

فقال له : من انت ايها الفارسي ؟ قال : انا بهمن جاذويه .

فصاح : يا لثارات ابي عبيد بن مسعود وسليط بن قيس واصحاب يوم الجسر . اضرب يا بهمن .. وجرد السيفان .

ولكنها جولة واحدة سقط بهمن بعدها قتيلا .

فاضطرب قواد الفرس وجعل بعضهم ينظر الى البعض الآخر ..

ثم نادى الفارس العربي ثانية : من يبارز ؟

فكره القوم ان يظهروا الخوف فيخسروا المعركة .

فبرز قائد منهم يدعى الفيرزان ، ثم تبعه قائد آخر اسمه البنذوان !

فانضم الحارث بن ظبيان الى القعقاع واقتتل الاربعة فقتل الفارسيان .

وصاح القعقاع عندئذ قائلاً : يا معشر المسلمين، باشروهم بالسيوف فانما يحصد الناس بها واعلموا انكم ستظفرون ان شاء الله .

فارتفعت أصوات الناس في الجيشين كل واحد يذكر ثأره ، واهتزت الارض تحت أرجل الخيل .

ولم يكن في الجيش الفارسي افيال ، في ذلك اليوم ، فقد كسرت امس تلك الصناديق التي تجعل على ظهورها ليثبت فيها الرجال .

وظلوا يقتتلون ، والفرس لا يرون ما يحبون ، حتى أقبل المساء ، وقد اكثر المسلمون فيهم القتل ، وملأوا الساحة من جثثهم .

وجعلت خيل القعقاع ترد الى الليل،وهي تبعث النشاط والفرح الى الصدور، كأن لم تكن امس تلك المصيبة التي اصابت المسلمين .

وكأن القعقاع يكبّر كلما طلعت قطعة من أصحابه فيكبر القوم بعده ويحمل على الصفوف فيحملون .

ولم يكن أصحابه على الخيل ، بل على إبل قد ألبسوها وهي مجللة مبرقعة ، وقد أمرهم القعقاع بان يدفعوها الى خيل الفرس يتشبهون باصحاب الفيلة .

ففعلوا هذا اليوم ، كما فعلت فارس امس،وجعلت خيل الفرس تفرّ من الابل وخيل المسلمين تحيط بها من الجانبين ، ومن الوراء .

حتى لقي الفرس من الابل ، اعظم ما لقي المسلمون من الافيال .

فلما اشتدّ القتال أقبل ابو محجن الثقفي المقيد في القصر على سعد وجعل يستغفره ويستعفيه ويسأله ان يأذن له في النزول الى الميدان .

فانتهره سعد وردّه . فجاء الى سلمى زوجة سعد فقال :

يا بنت آل خصفة ، هل لك الى خير ؟ قالت : وما ذاك .

قال : تخلين عني وتعيريني البلقاء فالله عليّ ان سلمني الله ان أرجع اليك حتى أضع رجلي في قيدي . والبلقاء فرس سعد ؟ فقالت لا أستطيع ذلك .

فرجع يرسف في قيوده ويقول :

كفى حزناً انترتدي الخيل بالقنا واترك مشدوداً عليّ وثاقيا

اذا قمت عناني الحديد وأغلقت مصاريع دوني قد تصمّ المناديا

وقد كنت ذا مال كثير واخوة فقد تركوني واحداً لا أخا ليا

ولله عهدٌ لا أخيس بعهده لئن فرجتان لا أزور الحوانيا

« يقولون ان سعداً قيّد ابا محجن لانه كان يشرب الخمر »

فقالت سلمى : اني استخرت الله ورضيت بعهدك واما الفرس فلا اعيرها ثم أطلقته وصعدت الى السطح .

فعمد الى البلقاء فاقتادها حتى أخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق ، فركبها وهي بدون سرج ثم خرج للقتال .

فلما كان عند الميمنة ، كبّر ،ثم حمل على ميسرة الفرس يلعب برمحه وسلاحه، ثم رجع من خلف المسلمين فكبر وحمل على الجناح الايمن .

وكان في حملاته يقصف الناس قصفاً منكراً حتى تعجب الناس منه وهم لا يعرفونه ولم يروه من النهار .

فقال بعضهم : هذا أول رجل من أصحاب هاشم بن عتبة بن ابي وقاص .

وقال آخرون : هذا هاشم نفسه وهو من الابطال .

وجعل سعد يقول وهو مشرف على الناس مكبّ من فوق السطح :

والله لولا حبس ابي محجن لقلت هذا هو وهذه فرسي البلقاء ...

وقال بعضهم : لولا ان الملائكة لا تباشر القتال لقلنا انه ملك !!

فلما انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال ، أقبل ابو محجن فدخل القصر من حيث خرج ووضع القيد في رجليه وجعل يقول :

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنّا نحن أكرمهم سيوفا

واكثرهم دروعاً سابغات وأصبرهم اذا كرهوا الوقوفا

وليلة قادس لم يشعروا بي ولم اشعر بمخرجي الزحوفا

فان احبس فذلكم بلائي وان اترك اذيقهم الحتوفا

فقالت له سلمى: في اي شيء حبسك سعد ؟

قال : والله ما حبسني بحرام أكلته او شربته ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية وانا امرؤٌ شاعر يدب الشعر على لساني فقلت :

اذا متُ فادفنيّ الى أصل كرمة   تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنّني بالفـــلاة فـــانني   اخاف اذا ما متُ ان لا «اذوقها»

ولذلك حبسني .

فلما أصبحت سلمى ، أتت سعداً فصالحته وكانت مغاضبة له كما مر ،وأخبرته بخبر ابي محجن ، فأطلقه وقال : اذهب فما انا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله .

فقال : والله لا اجيب لساني الى صفة قبيح ابداً .

وقد خسر المسلمون يوم اغواث الفي رجل ، بين قتيـــل وجريح ، وخسر المشركون عشرة آلاف ، فجعل المسلمون ينقلون القتلى الى المقابر والجرحى الى النساء .والنساء والصبيان يحفرون القبور .

وسعد يقول : من شاء غسل الشهداء ومن شاء فليدفنهم بدمائهم .

أما القعقاع فلم يبالِ بالجرحى والقتلى ، بل عمد الى حيلة يعيد بها الرجاء الى القلوب القليلة الايمان .. أمر رجاله ، بان يرجعوا في ذلك الليـل الى المكان الذي فارقهم فيه عند الصباح . وكان يقول : اذا طلعت الشمس غـــداً ، فاقبلوا على الميدان ، مئة مئة ، كلما بلغ مئة مدى البصر فليتبعها مئـة ، فاذا جاء هاشم فذاك ، والا جددتم للناس رجاء لا يشعر به احد وضمنتم النصر .

وباتوا ليلتهم كلها وهم يتراجعون ، والفرس يعملون صناديق الفيـــلة حتى يجعلوها على ظهورها ، قبل ان يبدأ القتال .

فلما ذرّ قرن الشمس ، وعينا القعقاع تنظران الى الوراء ، وقد تهيأ الجيشان للنزال ، طلعت نواصي الخيل ، خيل القعقاع . . فكبّر ، وكبّر الناس بعده وكانوا يقولون : لقد جاء المدد من الشام ! ! ثم اشتعلت النار . . وتلاصقت الخيل ، وأرسل عـــزرائيل رسله الى الساحة ، يتخطفون الناس بالسيوف ، والسهام ، والاسنة ، ومدّت الفيلة خراطيمها الهائلة تحمل المـــوت ، وتقذف بالاجساد الى الفضاء .. حتى خيل الى سعد بن ابي وقاص ان الدائرة ستدور على العرب .

وبينا الجيشان يغوصان في اللجة، وقد انتثرت الجثث في الميدان ، وارتفعت اصوات الرجال والنساء ، أقبل هاشم بن عتبة، وحمل ، وهو يكبر حتى خالط القلب وتبعه أصحابه سبعين سبعين على قياس ما فعل القعقاع ، فاشتد القتال واصطدم الفارس بالفارس والكتيبة بالكتيبة والصف بالصف .. ومدّ العجاج رواقه فلا تقع العين كلما انجلى الا على الرجال تهوي الى هوة الفناء .

لقد كان يوم عماس، اليوم الثالث من ايام القادسية شديداً جداً، العرب والعجم فيه على السواء ، لا يبلغ المسلمون من الفرس غاية ، حتى يبلغ الفرس منهم غاية مثلها ، ولا يقتحم هؤلاء جناحاً حتى يقتحم الآخرون جناحاً آخر ..

كان كل رجل من الجيشين صابراً على ما يلاقيه، لا تخور له عزيمة ولا يتراجع، الا اذا أُصيب !! والقواد المستخفون بالموت ، الذين يشهد التاريخ انهم سادة الحرب .. يحملون .. ويضربون .. ويخطبون .. ويحرضون الناس .. النصر أو الموت !!

اولئك قواد العرب البسلاء المغاوير ، الذين يجب على كل عربي في كل قطر ان يحني رأسه احتراماً لبسالتهم وايمانهم الخالدين .

يغير القائد منهم على ناحية فتغير وراءه عشيرته تحميه وتفرّق الناس عنه وتصرع الاعداء ، وكلما ارتفع له صوت وقفت ، والسيوف في الأيدي ، تصغي الى ما يقول .

قام قيس بن المكشوح المرادي ، وقد قدم من الشام مع هاشم يقول لقومه :

ان الله منّ عليكم بالاسلام وأكرمكم بمحمد صلّى الله عليه وسلم ، فأصبحتم بنعمة الله اخواناً ، دعوتكم واحدة ، وأمركم واحد ، بعد ان كان بعضكم يعدو على البعض الآخر عدو الاسد ويختطفه اختطاف الذئاب ..

فانصروا الله ينصركم ، وتنجزوا من الله فتح فارس فان اخوانكم من اهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام .

وسمع الناس صوته فقالوا : الى الامام أيها المسلمون فالعراق لنا ، ولنا بلاد الفرس .

وقام عمرو بن معديكرب يقول لرجاله : اني حاملٌ على هذه الكتيبة فلا تدعوني فان تأخرتم عني فقدتم ابا ثور، وان ادركتموني وجدتموني وفي يدي السيف.

وحمل، وجعل يضرب في القوم حتى حجبه الغبار عن العيون ، فقال اصحابه : احملوا فان فقدتموه فقد المسلمون فارسهم ، فحملوا حملة رجل واحد ففرّقوا الفرس عنه ، وكانوا قد طعنوا فرسه ، وهو على الارض يضاربهم بسيفه .

فلما رأى قومه ، وانفرج الناس عنه ، أخذ برجل فرسٍ اعجمي فلم يطق الفرس الجري .. ! فنزل عنه صاحبه وفرّ الى صفه .. ! فركبه عمرو ، وأومأ الى الرجال ان يتبعوه الى الجناح الأيسر ، فلم يلبث حتى اختفى واختفى رجاله تحت العجاج ..

وكانت الفيلة قد هاجت، وأخذتها ثورة جنون.. ففرقت بين كتائب العرب، وغيرت نظام الصفوف ، ونفرت الخيل بخراطيمها ووطأت بارجلها الفرسان .

وهنالك فيلان : الفيل الابيض فيل سابور ، وفيل آخر يقال له الاجرب ، تلتف حولها طائفة الأفيال ، وتفعل كما يفعلان كأنها جيش له قائده !

وقد غفل القواد، الذين يحاربون في هذه الناحية، عن الفيل الابيض البطاش، كما غفل اخوانهم اهل الناحية الاخرى ، عن الاجرب ، القائد الآخر .. والموت يمشي امام الفيلين وعن جانبيها .

فأرسل سعد الى القعقاع ، وعاصم بن عمرو يقول لهما : اكفياني الفيل الأبيض فقد فتك بالمسلمين .

وارسل الى حمال بن مالك الاسدي ، والربيل بن عمرو يقول : اكفياني الفيل الاجرب ..

ثم بعث الى ذلك الفارسي الذي اسلم فقال له أليس للفيلة مقاتل ؟

قال : نعم ، المشافر والعيون فلا ينتفع بها بعدها .

فنادي مناديه: مشافر الفيلة وعيونها ايها القوم ، فأخذ عاصم والقعقاع رمحين طويلين ، ليّنين ، وقال لرجالهما :

اكتنفوا الابيض لتحيروه ، وفعل حمال والربيل مثل ذلك .

فبينا فيل سابور متشاغل بمن حوله وهو يهم بالهجوم على عادته وضع القعقاع وعمرو رمحيهما معاً في عينيه، فانتفض ، فطرح الرجال الذين على ظهره ، ثم تدلى مشفره فأهوى له القعقاع بسيفه فقطعه ووثب اخوه عاصم فقتل من كان عليه .

وكان حمال والربيل قد هاجما الاجرب فقال حمال : اختر ، امـا ان تسرب انت المشفر واطعن انا في عينه ، او تطعنه انت واضرب مشفره .

فاختار الربيل الضرب .

فأرسل اليه حمال طعنةً فقأت إحدى عينيه ، وضربه الربيل فقطع مشفره فوطىء الفيل القوم الذين وراءه، ثم لوى عنقه، وولى وهو يخترق الصفوف ويقلب الفرسان من الاعجام حتى انتهى الى العتيق فوثب اليه ثم عبر الشاطىء الآخر، ولم يقف الا في المدائن .

وحدث عندئذ حادث آخر اهتز له جيش رستم من ادناه الى اقصاه، واضطربت له نفوس المرازبة والقواد .

لقد كانت الفيلة كلها تتبع آثار الفيلين القائدين، كما قرأت ، فلما سقط الابيض في الساحة وخرج الاجرب من بين الصفوف يريد العتيق ، وثبت كلها وراءه تطأ القوم ولا تقف حتى عبرت كما عبر لم يبق منها في الجيش فيل واحد يعيد وجوده الرجاء الى قلوب الفرس .

الا الفيل الابيض ، الذي آثر البقاء في الميدان ، يبكي مشفره وعينيه ، بـل يبكي ماضيه .. على ان اهل فارس لم يتراجعوا .

لقد أحسوا بشيء من اليأس ، بل رأوا شبح الفشل والخيبة ماثلاً أمام العيون فثار ثائرهم ومدو أيديهم بالسيوف والاسنة يضعونها في الاعناق والصدور ..

وكان الظل قد مال ، فتزاحف مشاة المسلمين يحميهم الفرسان وصبر الفريقان على ما يلاقيان من طعن وضرب ، كما يصبر الابطال حتى غربت الشمس وامسى الميدان بحراً من الدماء .

وبدلا من أن يكف القوم ، بأمر قوادهم ، عن القتال ، سمعوا اولئك القواد يقولون : افعلوا في هذا الليل ما لم تفعلوه في النهار ، والويل لمن يترك الساحة !

فكأن الفرس والعرب كانوا يرون ان حرب القادسية يجب أن تنتهي في تلك الليلة، فاما أن يفشل المسلمون وتخفق ألوية النصر فوق جيش الاعجام ، واما أن يخرج المسلمون عند الصباح ، وهم يجرون اذيال الفخار .

وارخى الليل سدوله ، ثم ارسل القمر نوره يمهد السبل للسيوف والرماح فاقتحم الجيش العربي صفوف عدوه ، واقتحم الفرس صفوف المسلمين وكان نظام القتال يتغير كلما حجب القمر وجهه ثم يستقيم امره للجيشين عندما تتبين العيون الوجوة والكفتان على مستوى واحد لا ترجح احداهما ولا يبين في اول الليل اثر للنصر ...

وقد دعيت تلك الليلة ليلة الهرير !! لأنهم كانوا يهرون هريراً وقد تركوا الكلام !! . وكان سعد يخاف ان يهاجم الاعجام جيشه من « مخاضة » في آخر الميدان الغربي فيمسي المسلمون داخل نطاق ضيق من سيوف القوم فقال لطليحة الاسدي وعمرو بن معديكرب وهو يومىء الى ذلك المكان ..

اذهبا ، مع فريق من الفرسان وكونوا هناك حراساً للعرب .

ففعلا ، فلما انتهيا الى ذلك الموضع لم يجدا فيه احداً من الفرس .

فقال طليحة : لو خضنا فأتينا الاعاجم من الوراء . .

فقال عمرو : بل نعبر من أسفل . — ولكن الذي اقوله انفع للناس ..

قال : انك تدعوني الى ما لا اطيق ...

فلم يبال طليحه بما سمع بل ترك عمراً ومشى الى الاعجام وحده من وراء العتيق وهو يريد ان يحدث حدثاً تتضعضع له الصفوف .

وسفل عمرو بالقوم جميعاً فأغاروا وثار بهم أهل فارس .

وبلغ الامر سعداً ، فقال لقيس بن المكشوح : تذهب الان بسبعين رجلاً فان لحقت بالقوم فانت عليهم .

فخرج الرجل فلما دنا من الجماعة رأى الفرس يحيطون بعمرو واصحابه وهم يدفعونهم الى الوراء ، بالقوة ، وكثرة العدد .

ففرق قيس الناس واقبل يلوم عمراً وهو يقول له اني أميرك !

فقال : يتأمر عليّ رجل قاتلته في الجاهلية !!؟

ثم جعل يقاتل قتال الابطال وهو لا يبالي ولا ينظر الى احد حتى تراجع الفرس من تلك الناحية .

وكان طليحة قد انتهى الى المكان الذي اراد ، فكبر ثلاثاً ، ثم رجع وقد حجبه الظلام عن العيون . فقام في أذهان الفرس ، وهم يسمعون التكبير ، ان المسلمين وراءهم ، فذعروا . واستولى عليهم الرعب ، ثم لم يستطيعوا الا ان يتفرقوا ليطلبوا القوم .. وليس هناك أحد ...

وفرح المسلمون ، وهم لا يعلمون اي رجل هو الذي يكبر في الجانب الآخر ، واية عشيرة هي التي بلغت ذلك المكان .. !

ثم كبر الامل في الصدور ، فخرج الفرسان البسلاء من الصفوف ، في مقدمتهم القعقاع بن عمرو ، واخوه عاصم ، ومسعود بن مالك الاسدي ، وابن ذي البردين الهلالي ، وعبد الله بن ذي السهمين ، وقيس بن هبيرة ، وغير هؤلاء من ابطال العرب ودخلوا في جيش الاعجام تتبعهم عشائرهم ، وهم يهرّون هريراً ، ثم أمعنوا في الزحف حتى لتظن الجيشين جيشاً واحداً ، دون ان يستأذنوا في ذلك سعداً ... فقال سعد : اللهم اغفرها لهم وانصرهم فقد أذنت لهم اذ لم يستأذنوني.

ثم رأى ان الناس كلهم يعصونه ويزحفون زحفاً شديداً ، عاما قاسيا، قبل ان يكبر الثالثة ، كما هي عادته ..

ثم سمع دريد بن كعب حامل لواء بني النخع يقول لقومه : ان المسلمين قد تهيأوا للزحف فاسبقوهم الليلة الى الله والجهاد فانه لا يسبق الليلة أحد الا كان ثوابه على قدر سيفه .. نافسوهم في الشهادة وطيبوا بالموت نفساً .

وسمع رجلاً آخر يخطب في قومه .. فقال : من هذا ؟ قالوا : الاشعث بن قيس ، وكان يقول : يا معشر العرب ، انه لا ينبغي ان يكون هؤلاء الفرس أجرأ على الموت منكم .. اضربوا ولا تجزعوا من القتل فانه أماني الكرام . قالها وترجل عن فرسه .. !

ثم قال حنظلة بن الربيع : ترجلوا ايها الناس وافعلو كما نفعل ولا تجزعوا مما

لا بدّ منه فالصبر أنجى من الخوف ، فترجل أهل النجدات ، وحملوا ..

فقال خالد بن عرفطة لسعد : لقد زحف الناس جميعهم الا بعض الرؤساء فان شئت فكبّر .. فكبَّر الامير عندئذ الثالثة .

فهاج البحر في تلك الساعة وماج، وثارت أمواجه ثم طغت من جميع النواحي الا ناحية العتيق .. وخالطت العرب العجم فلم تسمع بعد ذلك غير صليل الحديد على الحديد .. ورأى العرب والعجم في تلك الليلة أمراً لم يروا مثله قط ..

ثم انقطعت الاخبار والاصوات عن رستم وسعد، فكأن الموت يصرع الرجال وهو صامت ، والسيوف تبري الرقاب وهي لا تتكلم الا همساً ..!!

وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها منذ عرف الحرب .

وأقبل على الدعاء يسأل الله ان يهب النصر للاسلام .

فلما كان الصبح ، انتمى الناس فعرف عندئذ ان الغلبة لقومه .

والمسلمون لا يكفون عن القتال .. والقعقاع التميمي ، سيد الابطال ، يسير في الناس ويقول : النصر لنا .. فاصبروا ساعة واحملوا .

فاجتمعت اليه جماعة من الرؤساء ، وأمعنوا في الزحف كما فعلوا في الليل الذي مضى ، وهم يضربون عدوهم ضرباً لا يستطيع ان يحتمي منه حتى انفرج قلب الجيش الفارسي وتصدّع بناء الجناحين القائم على الجانبين .

وكان ذلك عند الظهر ورستم على سريره وراء القلب .. وهو يحاول ، بقوة قواده وخبرتهم ان يستعيد الموقف .. ولكن الحظ كان قد حوّل وجهه عنه ، وكاد يلمس بيديه جور الزمان ..

ثم هبّت في تلك الساعة ريح عاصفة حملت فسطاطه ، الى العتيق ..! وهذا مظهر من مظاهر الغضب، الذي تنزله السماء بمن تشاء.. فقام مذعوراً ، واستظل من الريح . من غضب الطبيعة الجائرة .. في ظل بغل يحمل مالاً له .. وقد انتهت خيل المسلمين عندئذ الى موضع السرير ، وجعل القعقاع ومن معه ينظرون فلم يروا صاحبه .. رأوا بغالاً قائمة باحمالها ..

فضرب رجل يدعى هلال بن علفة حمل البغل الذي يحجب قائد الفرس ،

وهو لا يراه ولا يشعر به ، فقطع حبـاله ، ووقع الحمل على رستم ، فتنحى عن موضعه، فأبصره هلال فضربه ضربةً ونشب رستم بعدها الى العتيق يريد العبور، فقفز هلال الى الماء فتناول رجله وجذبه ثم خرج به فجعل يضرب جبينه بالسيف حتى قتله ، وألقى به بين أرجل البغـال .. ثم صعد السرير ونادى : قتلت رستم وربّ الكعبة .. اليّ اليّ .

فأطاف به المسلمون وهم لا يرون السرير ، وتنادوا ، ثم كبروا .

وقام الجالينوس يدعو قومه الى العبور .. الى الفرار .. الى العار .. فتسابق المساكين الى النهر الذي لم يبق لهم أمل بالنجاة ، الا بعبوره ..

ولم يبق ، بين الخندق والعتيق فارسي .

فأمر سعد ، زهرة بن الحوية والقعقاع، وبعض القواد بان يتبعوهم ، وأمر خالد ابن عرفطة بسلب القتلى ، ودفن الشهداء .

وقد بلغ عدد القتلى من المسلمين ، ليلة الهرير ، وفي اليوم الثاني ، الذي يقـال له يوم القادسية ستة الاف .

وقتل من الفرس في تلك المعركة، عشرة الاف ، ما عدا الرجال الذين دفعوا بالرماح الى العتيق .

ثم أمر في الوقت نفسه،بجمع الاسلاب والأموال فجمع شيء لم يجمع لا قبله ولا بعده مثله ، وخرج زهرة في طلب الجالينوس، والقعقاع واخوه عاصم ومن معهما في طلب من ارتفع وسفل من القوم ، عن الجيش ، فقتلوهم في كل قرية ، وأجمة ، وشاطىء نهر .

وأدرك زهرة الجالينوس ، بين موضعين يقال لها الخرارة والسيلحين فحمـل عليه فقتله ، وأسر من أسر من رجاله ، ونجا الآخرون ، بينهم مهاتب الفارسي ، الرجل الصالح الذي أنقذ هنداً ، وولده بهرام .

وكان الاثنان ، قد ارسلا ، بعد نزولها المدائن ، الى ساحة القتال ، ثم تبـع المسلمون الفرس ، من كل ناحية فملأ الرعب قلوب الفارّين ، حتى كان الرجل من المسلمين يشير الى الفارس العجمي فيأتيه ، فيقتله . وقد يأخذ سلاحه فيقتله به .

وقد يأمر رجلين فيقتل احدهما الآخر ، وهذه غاية ما يفعله الذعر في القلوب ..

على ان هنالك طوائف شهد لها المؤرخون بالبسالة .

فان سلمان بن ربيعة الباهلي رأى قوماً من الاعاجم تحت راية لهم قد حفروا لها وجلسوا تحتها وقالوا لا نبرح حتى نموت !

فحمل عليهم فقتلهم جميعاً وهم يؤثرون الدفاع حتى الموت ، على الفرار !

وهذه غاية ما تبلغه النفوس من انفة وشجاعة وعز .

٢٩

اجتمع قواد المسلمين بعد اقتسام الغنائم ، حول اميرهم سعد بن أبي وقاص يحدثهم ويحدثونه ، وبينهم ابو زبيد الطائي وهو كئيب .

فجعل سعد يسأل كل قائد عما فعل والناس يصفون له حربهم ، ويذكرون له ما أحدثته سيوفهم في صفوف العدو ، الا أبا زبيد فكان ساكتاً ، وتلك كانت عادته ، كلما مثل مع قواد الجيش ، بين يدي سعد فقال له الأمير : وأنت ماذا فعلت ليلة الهرير يا أبا زبيد ؟

قال : والله لا أدري ايها الأمير ماذا فعلت ! كنت أغير كما يغير القواد ، وأفعل كما يفعلون ، ولكني لا أستطيع ان أذكر كما يذكرون عدد القتلى الذين كانوا ضحية هذا السيف ! قال : الفارس العربي لا ينسى قتلاه ..

– أما أنا فقد نسيت كل شيء حتى ليخيل اليّ ، بعد ان أخوض المجال ، وانازل الابطال ، اني في حلم .

ورأى سعد في تلك اللحظة دمعة تجول في عيني ذلك البطل .. فقال : ألم تسمع خبراً جديداً عن هند ؟

– بل لم أسمع خبراً عن أخويها ومن معها من الرجال، وقد مرّت الشهور وانا صابر كأني مقعد لا أستطيع ان أنقل قدماً من هذا المعسكر ، او كأني من

الخاملين . قال : لقد دعوناك نحن الى هذا الصبر والوثوق بالله .

– ولكن الله عزَّ وجلّ حوَّل عني وجهه .

وكان عبد الرحمن الشيباني الذي حمل كتاب المثنى بن حارثة الى امير المؤمنين حاضراً فقال : يظن ابو زبيد ان ولديه ورفاقهما تخطفتهم العرب !

– أوفتحت الأرض فاها فابتلعتهم جميعاً . وأجهش بالبكاء .

فقال سعد : ان حرب القادسية التي ستغيّر وجه هذا الشرق ، قد انتهت الآن ولم يبق الا ان ننظر ، في أمر بنيك الثلاثة ، في هذين اليومين ..

– وماذا تصنع أيها الأمير ؟ – أبعث بالرسل الى الشام ..

– وهل قال لك أحد أنهم فيها ؟.. ان الله وحده يعلم أين هم ، اذا كانوا لا يزالون أحياء ..

قال: سأملأ الأقطار رسلاً، واكتب الى أمراء الشام جميعاً حتى أعرف مكانهم.

قال : لقد جاء دوري الآن في الطواف ايها الأمير وسأفعل .

– والنساء اللواتي عُهد اليك في أمرهنّ ؟؟

– أجعلهن بين نسائك انت أمير الجيش ..

قال : سيأمرنا أمير المؤمنين بالزحف الى بلاد فارس عندما ينتهي اليه خبر الفتح وستبقى النساء ، على ما أرى ، عند العتيق . – واذا تمَّ ذلك ؟

– أخشى اذا تمَّ ذلك ان يُساء الى واحدة منهنّ ..

قال : يظهر ان الامير لا يريد ان يجعلهن في عهده .

فابتسم قائلاً: بل لا أريد ان تترك الجيش وانا قادر على إرسال الرجال كما قلت.

والتفت الى هاشم بن عتبة بن ابي وقاص، وهو ابن اخيه، فقال: لقد اختطف نذل من أنذال العرب ابنته هنداً.. ثم خرج أخواها وسيدا النمر وتغلب يبحثون عنها وقد يكونون اليوم في أرض الشام فإلى من نكتب من الأمراء النازلين فيها ؟

قال : اكتب أنا الى يزيد بن ابي سفيان وتكتب انت الى ابي عبيدة .

فقال ابو زبيد : ولكن الامراء جميعهم لا يعرفون زبيداً وزياداً ومن معهما .

فقال هاشم : اذا خرج منادي الامير عرفهم بعد ساعة .

فقال لسعد : أفلا يجوز ان يكونوا في نجد ؟

قال : وسأرسل الى اليمن والى نجد بعض الرجال .

قال : دعني أذهب فأنا لا أطيق البقاء في المعسكر بعد الآن ..

— تفعل ذلك بعد ان يعود الرجال الذين نبعث بهم .. ولم يشأ الا ان يغيّر حديثه كما فعل في المرة الاولى ، فقال لمن حوله : سنكتب الآن بالفتح الى أمير المؤمنين ، فمن يذهب الى الحجاز ؟

فقام رجل من بني فزارة اسمه سعد بن عميلة فقال: اكتب ما تشاء فأنا رسولك.

فكتب سعد رسالته وقال له : ترحل عند الصباح وتصف لأمير المؤمنين ما رأيت في القادسية كأنه يراه . قال : وهل يسمع لي ؟؟

قال : ألا تعرفه ؟ — لم أرَ له وجهاً ..

— اذا أتيته عرفت أنه يصغي اليك كما يصغي الى رجال الصحابة وأشراف المسلمين ..

ودفع اليه الكتاب ، ثم أقبل يخاطب قومه وهو لا ينظر الى أبي زبيد ولا يحدثه بأمر بنيه ، خوفاً من ان يثير الكآبة في نفسه .. وعندما خرج القوم ، خرج ابو زبيد وهو يفكر في الرحيل عن المعسكر دون ان يستأذن سعداً ..

وكان وراءه عبد الرحمن الشيباني وهو يبتسم ..

٣٠

كانت ام زبيد تلحّ في طلب الرجوع الى منازل طيء ، لترقد الرقاد الابدي في أرض العشيرة المقدسة !!. وكانت تقول : لا يطيب العيش لأمٍّ فقدت بنيها .

ولو لم يكن النمر وطيء ، في عهدة زوجها ابي زبيد لرجع الى بلاد قومه مع أبناء عشيرته ثم خرج منها باحثاً عن أولاده .

وكانت كبشة والزهراء قد برّح بهما الحزن والهوى وآثرتا الموت على الحياة

التي لم تريا فيها غير الالم والشقاء .

وقد طلبتا الى ابي زبيد في ذلك اليوم بعد ان فاز المسلمون ان يخاطب سعداً بشأن هند والامراء الذين ضاعت آثارهم .

وجلست الاثنتان في الخيمة ، مع ام زبيد ، ينتظرن رجوعه ، والدمع في العيون والمرارة واللوعة في القلوب . فلما دخل فاجأته زوجته قائلة :

ماذ فعل ابن أبي وقاص يا أبا زبيد ؟

قال : سيبعث رسله الى الاقطار يحملون الكتب الى عمال الخليفة .

وجعل يقص عليها وعلى الفتاتين حديث سعد .

ولكن عبد الرحمن لم يلبث حتى وقف بالباب يستأذن في الدخول .

فأذن له ودخل والنساء لا يعرفن من هو .. ثم قال : لي كلمة أقولها لك ان شئت . قال : مرحباً بك فاجلس وقل ما تشاء .

فالتفت الى ام زبيد كأنه يسألها ان تأذن له في ذلك .

فقال لها زوجها : هذا عبد الرحمن الشيباني من ابناء عم المثنى رحمه الله .

فرددت الشفاه تلك الكلمة رحمه الله .

وجلس عبد الرحمن وهو يقول : لقد خرجت كئيباً من مجلس سعد يا أبا زبيد فخطر لي ان ألحق بك الى خيمتك لاحدثك بالامر الذي حدثك سعد به .

قال : لقد منعني سعد من السفر كما رأيت ولكنني سأسافر . — الى اين ؟

— أطوف اولا في نواحي السواد ، وفي شواطيء الفرات ودجلة ثم أسير بعد ذلك الى الشام وأبعث رجالاً من قومي الى حيث يريد سعد ان يبعث برجاله...

فلم يرد عبد الرحمن ان يفاجئه بما يعلم فقال : أما انا فأرى غير ما رأيت .

قال : ماذا ؟ قال : يذهب رجال سعد حاملين كتبه الى قواد الجيوش، خير من ان تذهب انت ويذهب رجالك .

— ولكنهم لا يهتمون للامر الذاهبين من اجله كما يهتم له صاحبه .

— بل يهتم له القواد انفسهم إرضاءً لقائد العراق ..

قال : لو ذهب سعد بن ابي وقاص نفسه يبحث عن بنيّ لما رضيت بالبقاء .

قال : لو علمت اين يقيم بنوك لما خطر لك ان تغادر المعسكر وتترك نساءك وقومك ... قال : لو علمت ذلك لزال على الاقل هذا الألم الذي اعانيه وتعانيه ام زبيد والاميرتان اللتان تراهما ...

قال : في الجيش رجل يعلم ذلك .. فصاحت ام زبيدة قائلة : اتقسم بالله انك صادق ؟ . فأجابها وهو هادئ : لم يخطر لي ان اجيء في مثل هذه الساعة لأنقل الاكاذيب ، وانا من شيبان .. !!

– ومن هو الرجل الذي ذكرت ؟

فتردد قليلاً ثم قال : سأذكر لك ما يعلم قبل ان ابوح باسمه .

فتفجرت عندئذ دموع الفرح من عيون النساء ، واستوى ابو زبيد في مجلسه وهو يقول : أستحلفك بالسماء والأرض يا عبد الرحمن ان تتعجل في الأمر . ماذا يعلم صاحبك ؟

– لقد قال لي انه يعرف ولديك ، كما يعرف المنذر وعبدالله وهو واثق بانهم جميعاً في دمشق . !   – قل انه يظن ذلك ..

– بل يحلف انهم فيها او فيما يجاورها من مدن الشام .

قال : يخيل اليّ ان الرجل من جيش هاشم بن عتبة وقد قدم معه !

– بل هو من رجال الجيش العراقي ولم يغادر العراق منذ أتاه !

– ومن حمل اليه أخبارهم ؟

– حملها رجلان أحدهما من تغلب والآخر من النمر ، وقد خبراه ان القوم نزلوا في تدمر ضيوفاً على دحية الكلبي ، ثم رحلوا عنها الى دمشق .

قال : أريد ان أرى هذين الرجلين .   قال : لقد رجعا الى الشام .

فنظر الى زوجته قائلاً : ان عبد الرحمن يحدثنا بالالغاز .

– بل أقصّ عليك حكاية القوم كما هي لا أزيد عليها كلمة .

فحبس القوم أنفاسهم ليسمعوا حكايته ، فقال : أقبل على المثنى بن حارثة ، وهو في البويب ، قبل ان ينتقل الجيش الى ذي قار ، ذانك الرجلان اللذان ذكرتهما ، يحملان اليه كتاباً من عبدالله بن الفهر .

– اذن كان ذلك منذ بضعة أشهر .
– أجل ، وقد طلب عبدالله الى المثنى أن يسأل امير المؤمنين قضاء حاجة له.
قال : ما هي ؟
– هي ان يكتب كتاباً الى عماله في الشام ، يأمرهم به بالقبض على كليب بن خالد ، وارجاعه الى العراق لينال جزاءه .
فمسحت ام زبيد دموعها وقالت : وهذا يعني ان هنداً في الشام وقد تخلى عنها كليب ثم استخفى ، وابتسمت النساء الثلاث ابتسامتهن الاولى بعد ذهاب الأهل والأحباء ، ثم قال ابو زبيد : وبماذا أجاب المثنى عبدالله ؟
– أرسل في صباح اليوم الثاني رجلاً من أبناء عمه ليقابل امير المؤمنين في المدينة ويعود منها حاملاً الكتاب الذي يطلبه القوم .
– وماذا حدث بعد ذلك ؟
– سافر الرجل الى الحجاز مع رسولي عبدالله ، دون ان يعلم الجيش ، ولم يلبث حتى عاد والكتاب معه ، فبعثه المثنى الى ولديك !
قال : لولا أثر من الشك يتردد في هذا الصدر ، لأيقنت الآن بان بنيّ احياء ، وسيعودون اليّ ، قال: أقسم لك بالله الذي يهب لنا النصر على الروم والفرس اني صادق فيما قلت . – ولكن المثنى لم يقل لي شيئاً من هذا .
– أوصاه عبدالله بالكتمان ففعل ، ، وأمرني بان أحتفظ بالسر .
فقالت ام زبيد : وماذا قال الرجلان عن هند ؟
– لم يسألها عنها ، بل اكتفى بما سمعه وكان واثقاً بأنها مع أخويها وخطيبها المنذر بن انس . ! – وهل تذكر لنا الآن اسم الرجل ؟
– أي رجل تريدين ؟
– ذلك الرجل الذي أوفده المثنى الى المدينة ، مع الرسولين .
قال : ان ذلك الرجل الذي قابل عمر بن الخطاب، وحمل كتابه الى عماله في الشام ليقبضوا على كليب بن خالد هو أنا . . !
فوضع أبو زبيد يده على جبينه وقال : أنت يا عبد الرحمن ؟

– نعم أنا ، وان بنيك أحياء .. فصاحت النساء الثلاث صيحة فرح .

وقام أبو زبيد يعانق الرجل ويقول: أتقسم لي يا عبدالرحمن انك لا تهزأ بي.

– أقسم اني لم أزد كلمة على ما أعلم. – وانت واثق بأن القوم في دمشق.

– أظن انهم فيها الا اذا كانوا قد لحقوا بكليب الى بلد آخر .

قال : يدبُّ الريب في هذا الصدر من ناحية واحدة .. – ما هي ؟

هي أني لم أرَ الرجلين اللذين حملا الى المثنى كتاب عبدالله بن الفهر ، وكان عليهما ان ينقلا إليَّ الخبر المفرح الذي نقلته انت الآن .

قال : دع الريب فأنا صادق ، ومن الرأي ان تكتب الى بنيك كتاباً يحمله رسل سعد ويأتونك بالجواب. فقالت ام زبيد: اكتب اليهم ان يحضروا وليتركوا كليباً .. اني أخشى ان أموت قبل ان أراهم .. وقد طالت أيام الفراق ..

قال : سأفعل وسأقص على سعد ما خبرني إياه عبد الرحمن .

فقال عبد الرحمن : لا تقصَّ على الناس ما أراد القوم ان يكتموهم إياه .

– ولكن الرسل سيقولون لسعد انهم يحملون مني كتاباً الى دمشق .

– سأوصيهم بألَّا يقولوا له كلمة .. – ولماذا تؤثر الكتمان ؟

– لأن فيه حكمة لا أعرفها ، والمثنى نفسه رحمه الله ، أوصاني به .

– وكيف بحت لي الساعة ؟

– فعلت ذلك لسببين، أحدهما انك أردت الرحيل وهذا لا حاجة لك اليه، ولأن المثنى قد مات وأنا قد حفظت السر ولم أبح به لأحد وهو حي .. وقام وهو يقول : اكتب الآن ما تشاء وسأعرف الليلة أسماء الرجال الذين سيبعث بهم سعد الى أرض الشام .

فقالت ام زبيد : لقد حببت الينا الحياة من جديد يا عبد الرحمن .

وقالت الزهراء : وأعدت الى الصدور الرجاء الذي كاد يضيع .

فقال: لقد فعلت ما يفعله كل عربي يرى اللوعة التي رأيتها على وجه أبي زبيد.

وخرج من الخيمة ، وقد ارتاحت نفسه ، كما ترتاح نفس الحر الى ما يقوم به من أعمال المروءة والشرف . وقد افترَّت الثغور بعد خروجه ، وجعل القوم

يتحدثون بما سمعوه ، والبشر على الوجوه . ثم كتب ابو زبيد رسالتـه ، على ان يدفعها في صباح اليوم الثاني ، الى ذلك الشيباني الشريف . . .

٣١

كان القوم في دمشق ، قد ملّوا البحث فيها عن كليب بن خالد .

ولم يريدوا ان يلجأوا الى يزيد بن ابي سفيان، قبل ان يعود الرسولان بكتاب أمير المؤمنين ، وقد مرّ اكثر من شهرين على وجودهم في دمشق .

فلما عاد الرجلان يحملان أمر ابن الخطاب الى عمـاله ، عوّل عبدالله ورفاقه على ان يروا يزيد على الأثر ، ويسألوه ان يساعدهم في الامر الذي قدموا لأجله .

ومشوا الى تلك الدار التي يقيم بها مع اهل بيته ، وأخيه معاوية ، واستأذنوا عليه ، ومعاوية عنده وهو يهمّ بالزحف الى شواطىء بحر الروم، على رأس فريق من جيش الشام. ثم دخلوا، ويزيد مع معاوية وبعض القواد، يضعون خطة الحرب.

وكان يزيد ينظر الى الباب ليتبين القوم الذين استأذنوا في الدخول .

فعندما وقعت عليهم العين ، هامس أخاه قائلاً : أرى وجوهاً حسنة ..

ونهض ، وهو يقول : هذا لباس اهل العراق ، ومدّ يده فصافحهم .

فقال عبدالله : أصبت ايها الامير فنحن من ذلك القطر الذي ذكرت ، وذكر اسمه واسماء اصحابه ، فقال : وما هو غرضكم ؟

فحدثه بكل شيء ولم ينسَ حكاية هند .

فذكر الأمير عندئذ حيان بن زيد ، فقال لأخيه : ماذا ترى يا معاوية ؟

فقال معاوية للقوم : أليس لصاحبكم اسم غير اسم كليب ؟

فقال عبدالله : لقد اختار له في تدمر اسماً آخر — ما هو ؟

— حيان بن زيد .

فابتسم قائلاً ليزيد : ذلك هو حيان الذي طلب اليك ان تجعله جاراً لـك

وتحميه من ظلم بني قومه . ووضع يده على جبينه ثم جعـــل يصفه للامراء كأنه ماثل بين يديه ، فقال عبدالله : اي والله هذا هو كليب فأين يقيم ؟

قال : لم نجعله جاراً لنا لنعلم في أي مكان هو ، اظن أنه ترك دمشق الى بلد آخر يستخفي به عن عيون طالبيه .

قال : ان امير المؤمنين يأمر عماله بالقبض عليه وارساله الى العراق .

ودفع الكتاب الى يزيد ، فقرأه الاثنان وساد السكوت ، ثم قال معاوية : ليخرج الغلمان وليبحثوا عنه في الأسواق والمعابد ومجالس القوم .

فأمر يزيد عندئذ غلمانه بذلك وأمهلهم بضع ساعات ، ثم قـــال لعبدالله : امكثوا بدار الضيافة ريثمايعود هؤلاء. قال أليس من الرأي ان نخرج مع الغلمان.

– لا فقد يراكم ولا ترونه فتبتلعه الارض !.

– لقد ابتلعته من قبل فقد تعبنا في البحث عنه فلم نرَ له وجهاً .

قال : سننظر في الامر من ناحية اخرى اذا لم يجدوه .. اصبروا ساعة حتى ينتهي الامر الذي نعالجه الآن مع قواد دمشق ، وقام فجعل يباحث هؤلاء القواد حتى وضعوا خطتهم ، بالاشتراك مع معاوية الداهية الذي بدأ نجمه يلمع في سماء الشام ، ثم انثنى يحدث ضيوفه حتى كان العصر ، فأقبل الغلمان يقولون : لم نرَ ظلًّا للرجل الذي وصفه الامير .

قال : وسألتم الناس عنه . – لم نترك حياً من احياء دمشق الا سألنا أهله.

قال : لم يبق اذن الا ان نسأل عنه قواد الأقاليم ، اكتب يا معاوية الى ابي الازهر القشيري في حوران ، والى شرحبيل بن حسنة في فلسطين ، والى القائـــد الاكبر ابي عبيدة في حمص ، وصف لهم الرجل وصف واثق ، وقل لهم ان امير المؤمنين يأمر بالقبض عليه وارساله الى المثنى .. اكتب الساعة ..

قال : وبعد ذلك ؟

– يحمل ثلاثة رجال الرسائل الثلاث ، ثم يلحق بهم عبدالله ومـــن معه الى الاقاليم الثلاثة على ان يلتقوا جميعهم في المعسكر العربي النازل حول حمص .

قال : هذا هو الرأي يا يزيد ، ولكن أرى ان يستبدل هؤلاء الامراء نوقهم

وافراسهم ويلبسوا غير هذا اللباس الذي يعرفون به ، ليستطيعوا ان يقبضوا على كليب . قال : اوصهم بما تشاء فليس فيهم من يخالف لك رأياً .

فالتفت الى عبدالله قائلاً : كم رجلاً أنتم ؟ ــ اثنا عشر .

ــ اذن يذهب اربعة الى حوران ، واربعة الى نواحي الاردن ، واربعة الى حمص وهؤلاء يقيمون بها حتى يلحق بهم الآخرون .

فقال المنذر : واذا خاننا الحظ ولم نجد الرجل ؟

ــ تنصرفون عندئذ الى العراق وتنظرون في أمر هند التي تحب ..

ــ ونترك كليباً ؟

ــ ان عمال أمير المؤمنين لا يتركون رجلاً أمرهم سيدهم بان يطلبوه ..

قال : خير لي ان أموت في هذا القطر من ان أعود الى العراق وقد خسرت هنداً ولم أظفر بابن عمي الغدار .

ــ بل خير لك ان تسأل الارض والماء والسماء عن هند ثم تنصرف بعد ذلك الى السؤال عن ابن عمك .. ومع ذلك فانا واثق بأن كليباً سيقع في أيدي أعدائه فهو أعجز من ان يحتجب عن العيون الى الأبد .. ثم قال : اما أنا فسأزحف بعد أيام الى شواطىء البحر وسأبث العيون على الفتى وأغلق في وجهه منافذ الفرار .

وقرأ ثانية كتاب أمير المؤمنين ثم أعاده الى عبدالله قائلاً : احتفظوا بهذا ليطـّلع عليه الأمراء في كل إقليم ، وأرى ان ترحلوا عند الصباح خوفاً من ان يضيع الزمان . ــ بل نرحل في هذا المساء اذا أذن الامير .

قال : من الرأي ان يسبقكم الرسل غداً ثم تتبعونهم على الأثر .

فعمد القوم في تلك الساعة الى اختيار النواحي التي يذهبون اليها .. عبدالله وثلاثة رجال الى حمص ، والمنذر وزياد ومعهما رجلان الى حوران ، وزبيد الى فلسطين ، مع الثلاثة الآخرين . واللقاء في معسكر ابي عبيدة .

وقد أوصاهم معاوية بأن يحذروا الروم المنتشرين في بلاد الشام ، واستطاع بقوة تصوّره ، ودهائه ، ان يبعث الأمل الى الصدور .

٣٢

حمل سعد بن عميلة الفزاري رسالة سعد بن ابي وقاص الى امير المؤمنين ، بعد ان مرّ يوم كامل على ليلة الهرير . تلك الليلة التي غيَّرت وجه الشرق ، كما رأيت.
وهذه هي رسالة سعد :

« أما بعد فان الله نصرنا على اهل فارس بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرَ الراؤون مثل زهائهــا فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهم إياه ونقله عنهم الى المسلمين ولحق بهم المسلمون الى الانهار والآجـــام ، وأصيب من المسلمين فلان وفلان ورجال لا نعلمهم ، الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن اذا جنّ عليهم الليل دويّ النحل وهم آساد النــاس ولم يفضل من مضى منهم من بقي الا بفضل الشهادة اذ لم تكتب لهم » .

وكان عمر بن الخطاب ، بعد ان بلغــه خبر نزول رستم بالقادسية ، يذهب في كل يوم ، الى طريق المدينة ، يستخبر الركبان عن اهل القادسية ، من الصباح الى ان ينتصف النهار ، ثم يرجع الى منزله .. فلمـــا انتهى سعد بن عميلة الى ذلك الطريق ، رآه عمر ، وسعد لا يعرفه ، فقال له : حدثني يا عبدالله بما تعلم .

قال : هزم الله العدو ..

وسعد يسير على ناقته وأمير المؤمنين يخبّ معه ماشياً ويستخبره حتى دخل المدينة ، فاذا الناس يسلمون على عمر بالخلافة .

فوثب ابن عميــلة الى الارض وجعل يقول : هلاّ أخبرتني رحمك الله يا امير المؤمنين انك أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : لا عليك يا أخي .. أعطني الكتـــاب الذي تحمل . فناوله إياه .

فقام في الناس يقرأ عليهم الفتح وشفتاه ترتجفان ، ثم قال: « اني حريص على ان لا أدع حاجة الا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فاذا عجزنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف ، ولوددت انكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيهــا لكم ، ولست معلمكم الا بالعمل ، اني والله ما انا بملك فأستعبدكم ، وانما انا عبدالله

عرض عليّ الامانة فان رددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا، سعدت ، وان انا حملتها واستلبعتكم الى بيتي شقيت .. »

ثم جلس قائلاً لقومه : ما رأيكم في المدائن ؟

فقالوا : أتريد فتحها يا أمير المؤمنين ؟

ـ بل اريد ان تصبح ارض فارس كلها ملكاً للمسلمين . اكتب يا عثمان :

فكتب عثمان بن عفان الى سعد ، يأمره بالمسير الى المدائن ، وبأن يترك النساء والاطفال والصبيان عند العتيق ، ويجعل معهم جيشاً للحراسة ، ويشركه في كل مغنم ويهب له نصيبه من الغنائم والاسلاب .

ثم قـــال عمر : واكتب الى امراء الشام ليتعجلوا في فتح ما بقي من مدنها ويطردوا الروم منهذا الشرق فالبلادلنا وليست لهؤلاء. ففعل عثمان ما امره به.

ثم قال لابن عميلة : قل لسعد ان أمير المؤمنين يريد ان يخضع بلاد كسرى في هذا العام والعام الذي بعده فليستعن بالله ان الله قدير على هذا .

ثم حان وقت الصلاة ، فقـــال : اتبعوني الى المسجد لتشكروا الاله العزيز الجبار الذي اخرجكم من الفاقة الى السعة، ومن الظلمة الى النور ، فمشوا وراءه وسجد عمر يصلي وينشد في سرّه اناشيد الشكر لله عزّ وجلّ ، ثم قام فخطب داعياً القوم الى التقى والبر والصلاح .

وبعد خروجه جلس ثانية للناس وقـال للصحابة والانصار : يخطر لي ان افرض الفروض للمسلمين ، وأعطي العطايا ، وادوّن الدواوين ، فليبدِ كل واحد منكم رأيه ، فقال علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف : ابدأ بنفسك .

قال : لا بل ابدأ بعم رسول ﷺ ثم الاقرب فالاقرب .

وبدأ بالعباس عم النبي ، ثم فرض لانصار النبي يوم بـدر ، خمسة الاف خمسة الاف وكان يقول : ان الله يفتح للمسلمين الاقطار فلنعطهم من فضل الله .

وفرض لمن بعد بدر ، اربعة الاف اربعة الاف ، ولمن بعدهم الى ان سكت أبو بكر الصديق عن اهل الردة ، ثلاثة الاف .

ثم فرض لأهل القـادسية وأهل الشام ، ألفين ألفين ، ولاهـل البلاء منهم ،

الذين كانوا يقتحمون الصفوف ولا يبالون ، ألفين وخمسمائة .

فقيل له : لو ألحقت اهل القادسية بأهل الايام التي قبلها ، فقال :

لم أكن لألحقهم بمن تقدمهم .

قالوا : وقد ساويت من بعدت داره بمن قربت داره ، فقال : من قربت داره أحق بالزيادة لانهم كانوا رداءاً للجيش وشجىً للعدو ، فهل قال المهاجرون مثل قولكم حين ساوينا بين السابقين منهم والانصار .

فسكتوا ، وهم يعجبون لهذا العدل يضعه عمر في موضعه .

ثم جعل يفرض الفروض لجميع اهل الحروب واصحاب الفضل في الاسلام ، ولم ينسَ النساء ، فقد خصهنّ بالعطايا من نساء النبي العظيم الى نساء اهل العراق والشام ، وأعطى الصبيان مئة مئة لم تظهر له غاية في ايثاره صبياً على آخر .

وكان صفوان بن امية ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، في القوم ، وهم من أهل الفتح وأهل البلاء . فأعطاهم أقل ممّا أعطى الذين قبلهم .

فامتنعوا من أخذه وقالوا : لا نعترف ان يكون احد أكرم منا ! ..

قال : اني انما أعطيتكم على السابقة في الاسلام لا على الاحساب ..

قالوا : اذن نأخذ . وخرج الحارث وسهيل الى الشام .

ثم كتب الى عماله ليعطوا القوم على النظام الذي وضعه .

فقال قائل : يا امير المؤمنين ، اترك في بيت المال عدةً للايام ...

فنظر اليه قائلاً : انها كلمة ألقاها الشيطان على فمك وقاني الله شرّها وهي فتنة لمن يجيء بعدي . قالوا : وكيف ذلك يا امير المؤمنين ؟ .

قال : أعد لهم ما أمرنا الله ورسوله ، طاعة لله ورسوله ، فهما عدّتنا التي بها انتهينا الى ما ترون ، ثم قال :

لقد كنت امرءاً تاجراً يغني الله عيالي بتجارتي وقد شغلتموني بأمركم فماذا ترون انه يحل لي من هذا المال .

فجعلوا يذكرون اراءهم وعلي ساكت ، فقال له :

ما تقول يا عليّ ؟

قال : ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا المال غيره .

قال : وحلة للشتاء ، وحلة للصيف ، وراحلة للحج ودابـــة في حوائجي وجهادي !! . وبعد ان انتهى من أمر المسلمين بدأ ينظر في امور القبائل التي لجأت الى الصلح ففرض الاعطية من الجزاء على من صالح ، ولم تبقَ فئة الا أخذت حصتها منه او من عماله . ومرَّت ايام وهو يعنى بهذا الامر حتى أتمَّه على ما يرضي الله ويرضي نفسه ، وكان ذلك في العام الخامس عشر للهجرة .

٣٣

عُرف كليب بن خالد ، في نواحي الاردن ، بحيان بن زيد .

وكان يظن انه يستطيع الاستخفاء، باسمه الغريب، عن جميع الذين يطلبونه.

وقد عرفه بعض القوم في فلسطين وأيقنوا بأن في صدره عاطفة خوف ..

اجل كان يخاف النسيم اذا مرَّ والغصن اذا حركته الريح ! والاشباح السود تتراءى في ظلام الليل ، حتى كادت مظاهر خوفه تفضح امره .

وهو لم يلجأ الى شرحبيل بن حسنة كما عرفت ، بل لم يلجأ الى أحد ، وقـد اكتفى بان يكون عربياً بين العرب ... ولكن خوفه كان يزداد ، والرعب يشتد في صدره حتى لتضيق معه انفاسه .

فعوّل على الرحيل الى طبرية ، يضيع فيها شهرين ، كما ضاع في بيسان ، وكما ضاع في الأردن ، ثم يتركها الى ملجأ آخر حتى ينساه طالبوه .

ولم يتردّد في الأمر، بل مشى الى طبرية دون ان يلتفت الى الوراء،وكان يعلم ان المسلمين فتحوا تلك الناحية ، وأقاموا بها ، ريثما يرد عليهم الأمر بالزحف الى ناحية اخرى من نواحي اليهودية الواسعة .

واميز طبرية وفاتحها : ابو الأعور السلمي .

فلما انتهى اليها ، خطر له ان يحتمي به ، ثم يفر كما فرّ من دمشق ، اذا رأى

ان الامير لم يبسط فوقه ظل حمايته .

وكان ابو الاعور رجل وفاء ومروءة، يمد يد المعونة الى كل مستغيث ، ويؤثر بذل دمه ، على أن ينتهك الناس حرمته ، ويجرحوا كرامته .

وقد خبر القوم كليباً بكل هذا ، فطلب ان يراه ، وهو يقول لرجاله :

اني فتى من عرب الشام ... ودخل عليه وهو يداعب ولداً له بيده سيف صغير . فجعل أبو الأعور يتفرس فيه وهو يهش له كما يهش لضيوفه .

ثم قال كليب : أتيتك مستغيثاً بك ايها الامير . قال : ممن ؟

ـ من ابن عمي الذي هو سيد قومي ! . ـ ومن هم قومك ؟

فأملى عليه خوفه هذه المرة ان يصدق في ذكر قومه فقال :

ـ بنو النمر من العراق . ـ وماذا فعلوا بك ؟

ـ جاروا عليّ وسلبوني مالي ونوقي ، وانتزعوا اختي من بين يدي .

ـ وفي أي شيء استحققت ذلك ؟

ـ أحببت فتاة أحبها ابن عمي ولم أكن أعلم انه يريد ان يجعلها زوجة له بل لم أكن أعلم ان بينه وبينها ما يسمونه حباً .. قال : ما اسمك ؟

فتردد قليلاً ثم قال : كنت ادعى كليباً !! اما اليوم فاسمي حيان !!

فضحك قائلاً : اذن لك اسمان تختار أحدهما عندما تشاء !

قال : أتريد ايها الامير ان أنتقل خائفاً من بلد الى آخر وانا احمل الاسم الذي يعرفونني به ؟ ـ وهل يطلبك القوم ؟

ـ نعم وقد رأيتهم في تدمر ولم يروني ، فأتيت الشام ، ثم تركتها الى بيسان، ثم انتقلت منها الى هذا المكان .

فأطرق ابو الاعور ملياً ثم رفع رأسه وقال : أسألك سؤالاً فاحذر ان تكذب ، قلت انك احببت فتاة أحبها ابن عمك فجار عليك القوم وسلبوك ما تملك ، أليس كذلك ؟ ـ اجل . ـ ولماذا فررت ؟

ـ أنا لم أفر بل طردوني من العشيرة كما يطرد الاجرب ولعلهم خافوا ان افضح فتاتهم بمظاهر الغرام !.. قال : آمنت بهذا ، ولكني لا أستطيع ان اصدق

انهم يطلبونك وانت بريء وهم الذين طردوك !!

ـ أقسم لك أيها الامير اني رأيتهم في تدمر وقد أتوها ليقبضوا عليّ !

فغضب الامير وقال : أراكَ تكتمني سرك وتحـاول ان تهزأ بي لأجعلك جاراً لي.. اني تعودت ان أحمي المظلوم وقد رأيت الآن انك لست من المظلومين.

قال : مظلوم وشقي يا مولاي فلا تخيب الرجاء ..

قال : ما رأيت قط عربياً يخرج في طلب عربي بريء... بلى ، رأيته يطلب القاتل والظالم ، والخائن ، ليثأر لقومه ...

ثم رفع صوته قائلاً : اعترف الان بذنبك وقلْ لي مـاذا صنعت حتى خرج القوم في طلبك .. قل ولا تتردّد .

فلم يستطع المسكين الا ان يعترف بشيء من سره ، لينقذ نفسه ، فقال :

نسيت ان اقول لك اني اختطفت الفتاة وحاولت ان اخرج بها من العراق .

ـ ثم ماذا . ـ ولكنها اثرت الموت في الفرات على الخروج منه .

ـ اذكر اسم الفتاة ـ هند .. ـ وهي من قومك ؟ ـ من بني طيء .

قال : هؤلاء من نصارى العرب وهم يحاربون مع الاسلام .

ـ نعم ، وقد اسلم بعضهم وبقي البعض الآخر . ـ وهل عرف ابن عمك ان هنداً ابتلعها الماء ؟ . ـ يخيل اليَّ انه عرف ذلك . قال : وتظن انـه لحق بك الى الشام ؟ — هذا ما يخطر لي وقد يجيء الى بيسان ، ثم الى طبرية ، بعد حين . قال : ماذا تطلب الان ؟

ـ اطلب الى الأمير ان يجعلني جاراً له فانا لم اقتل الفتـاة بل هي وثبت الى الفرات.. قال: انك في جواري على أن لا اغضب عشيرتي النمر وطيء اللتين كانتا عوناً للمسلمين ،على الفرس..أترضى بهذا؟ قال: وما معنى هذا الجوار ؟

— معناه اني سأحفظ حياتك مابقيت في طبرية ، فاذا أتاني القوم وطلبوا اليَّ ان اسلمك اليهم ، مهدت لك سبل الفرار ، وهم لا يعلمون . ـ اذن فأنا آمن .

ـ أجل ، وسأوصي بك الجنود والحراس ، ونادى غلامين له فقال لاحدهما : ان هذا الفتى في جواري ، فخبِّر من تراه ، وهو يدعى .. حيان !! وأومأ اليه بأن يخرج معه .

ثم قال للغلام الآخر: لينزل الفتى في دار الضيافة على السعة والرحب ولكني اريد ان تحصى عليه انفاسه .

وقد قام في ذهن ابي الاعور ، ان كليباً أحدث حدثاً في جيش العراق ولم يرَ بعد ذلك الا ان يلجأ الى فلسطين ، على انه خبّر قواده وجنوده انه جار له . وأقام كليب بطبرية كأنه في البلد الذي ابصر فيه نور الحياة ، وقد كاد ذلك الخوف يتلاشى ويضمحل ..

٣٤

كان كتاب امير المؤمنين مع عبدالله بن الفهر ، وقد حمله الى حمص .

وزبيد والمنذر يحملان كتابي يزيد بن ابي سفيان ، الى شرحبيل بن حسنة ، وأبي الأزهر القشيري ، امير حوران .

وانت ترى ، ان المنذر وزياداً ، لم يصنعا في حوران شيئاً ، فقد بحث ابو الازهر في الجبال والسهول ، والاكواخ والقصور ، فلم يقف لكليب على أثر . حتى انه كان يطوف بنفسه ، مع الفتيين ، ورسول يزيد ، ليرضي بذلك مروءته ويرضي امير المؤمنين ، والعشيرتين اللتين أبلى رجالها احسن بلاء ، في حرب العراق . ولكنهم كانوا يبحثون عن فتى لا وجود له .

فرأى المنذر ان يسير الى حمص لاحقاً بعبدالله ، فقد يخدمه فيها الحظ ويجد عدوّه ، ولم يلبث حتى خرج ، مع القوم من حوران ، بعد بضعة وعشرين يوماً قضوها طوافاً وبحثاً .

اما زبيد الذي سار الى فلسطين ، فقد رأى شرحبيل بن حسنة ، فعمد شرحبيل بدوره الى السؤال ، عن فتى يدعى كليباً ، او حيان بن زيد !! فقيل له : أن بعض القوم يعرفون حيان ، وهم يبحثون عنه .

فخفقت القلوب وأشرقت الوجوه ..

ولكنهم نقلوا اليه بعد ثلاثة ايام انه غير موجود ، وقد رآه بعضهم يسير في طريق طبرية ، حاملاً سيفه وجرابه .

فقال شرحبيل عندئذ لرجاله : من هو الذي قصَّ عليكم ذلك ؟

فذكروا له أسماء القوم ، فقال : عليَّ بأحدهم ، فأحضروه ، فقال له : كنت تعرف رجلاً يقال له حيان ؟ – نعم ايها الامير . – وتعرف ممن هو ؟

– أعرف انه عربي . – قال : صفه .

– فوصفه وصف خبير لم ينس شيئاً . – فقال لزبيد : أهذه هي صفته ؟

– اي والله انه هو . فقال للرجل : وتظن انه رحل الى طبرية ؟

– هذا ما يخطر لي فقد رأيته في صباح يوم ، على الطريق الذي يؤدي اليها .

– كان عليك ان تسأله عن اسباب هذا الرحيل .

– ناديته ايها الامير فلم يجب ، ولعله لم يسمع . قال : احذر ان تهزأ بي !

قال : والله لقد صدقتك .

قال : اخرج فقد وثقت بك ، ثم قال لزبيد : والآن ؟

– اما الآن فالى طبرية وأرجو ان تكتب الى صاحبها ..

– سأفعل ، وأنا أرى انك ستقبض على عدوك .

وفي صباح اليوم الرابع ، خرج زبيد حاملاً كتاب امير الاردن الى ابي الاعور ، وقلبه يحدثه بأنه سيرى قاتل اخته .

وكان راكبا فرساً غير فرسه ، وهو يلبس لباس اهل الشام ، فلما انتهى الى الامير ، أبصر في فنائه رجلين ، جالسين عند الجدار ، احدهما مطرق يعبث بثوبه ، والآخر ينظر الى شجرة ترسل أغصانها فوقه .

فاضطرب اضطراباً رآه رفاقه الثلاثة ، ثم أهوى بيده الى السيف ، ومشى بضع خطوات ، وقلبه يخفق ، وشفتاه ترتجفان ..

لقد كان أحد الرجلين كليباً نفسه ، بوجهه المستدير ، وعينيه اللتين ترسلان النار ..

رآه زبيد وهو غافل ، ولعله كان يطوف بالروح ، حول خيام المعسكر في

البويب ، او لعله كان يفكر في تلك الفتــاة التي قذفت بنفسها الى الفرات ، قبل ان ينشد لها انشودة الحب .. بعد ان نسي الزهراء .. وجعل زبيد يدنو في مهل وقد نسي نفسه .. نسي انه غريب في طبرية لا يعرف فيها احداً وليس معه غير ثلاثة رجال غرباء مثله ..

نسي انه في فناء قصر ابي الاعور، وقد يكون كليب من رجال صاحب القصر. ونسي انه يحمل كتــاباً من شرحبيل وليس له ان يقول لعدوه كلمة قبل ان يسلم ذلك الكتاب الى صاحبه .. بل نسي عــادة العرب في الدفاع عن الكرامات ..

ولم يذكر في تلك الساعة ، غير اختــه الراقدة في الفرات ، وهو يرى قاتلها مستنداً الى الجدار ، وليس بينه وبينه غير ذراعين !..

ومشى حتى دانى الرجلين ، وهما ذاهلان ، وقد رأى رفاقه الثلاثة كليباً ..

فجرد سيفه وهو ساكت .. ولكن الرجال صاحوا قائلين : احذر يا زبيد .

فلم يبــالِ .. وكان جسده يهتز ، ويكاد لشدة ذلك الاهتزاز ان يسقط على الارض . ونهض الرجلان عندئذ وقد وقعت العين على العين ..

فقال زبيد : كليب بن خالد ؟!

فوضع الآخر يده على سيفه وتراجع حتى لامس الجدار .

ولكنه لم يشهر ذلك السيف فقد عجزت يده عن تجريده ..

وجعل رفيق كليب ينظر الى الاثنــين وقد استغرب ما رآه .. ثم قال : من انت ايها الفتى ؟ قال : اني رسول الموت كما سترى ..

قال : اغمد سيفك اذا أردت ان تحفظ حياتك .

فقال : أفتخاف عليّ هذا الجبان الذي يفر من بلد الى آخر لينجو من الموت؟

– بل أخاف عليك أبا الاعور السلمي الذي جعل كليباً جاراً له .

قال : لم أسمع من قبــل ان الامراء يحمون الانذال .. ووثب الى كليب وهو يقول دافع عن نفسك !

فوقف الرجل بين الفتيين وأجابه قائلاً: والله لا يقتل جار ابي الاعور الا اذا قتلت .. اضرب ان شئت .

فجذبه بيسراه وضرب كليباً فسقطت الضربة على الجدار ..
وهمّ كليب عندئذ بالدفاع . فقال رفيقه : مهلاً فقد قدم الامير .
وأبصر القوم رجلاً يتعجل في مشيه وأمامه غلامان .
وكان ذلك الرجل أبا الأعور وقد خبّره غلاماه بما يحدث في الفناء . فالتفت الى زبيد قائلاً : أأنت من جند طبرية ايها الفتى ؟
قال الفتى : أأنت امير الجند ؟ ــ اجل أنا الأمير فاذكر اسمك .
ــ زبيد الطائي وانا احمل لك كتاباً من شرحبيل بن حسنة .
ــ بل تحمل سيفاً تقتل به الرجل الآمن النازل في جواري !!
قال : هذا عدوي وقاتل اختي !
ــ ولكنه ضيفي وجاري وانا احسن الدفاععن شرفي...!اعطني سيفك...
قال : اما السيف فلا اسلمه الى احد ولكن ينتزع مني انتزاعاً ..
وجعل يعتذر ويقول: ما اردت أن اسيء الى الأمير ولكنها بادرة من بوادر الغضب ، وقد رأيت القاتل الذي مرّ عليّ بضعة اشهر وانا ابحث عنه .
فاعجبته شجاعة الفتى ، فقال : اذن ننتزع سيفك كما قلت فانت غير قادر على الاحتفاظ به .. قال : لا تنس ايها الامير اني رسول .
ــ وكيف نسيت انت ذلك ؟؟
ــ لي ثأر كما علمت ، وقد ملكتني ثورة نفسي فخرجت عن حدي وحسبك اني اعترفت بخطئي ..! قال لا اغفر لك ما صنعت الا اذا اعطيتني السيف .
قال : يظهر ان الامير يريد ان يسيء الي ... ان العربي الشريف لا يسلم سيفه . فالتفت الى الرجال الذين معه قائلاً : سلّمه الى هؤلاء .
قال : هؤلاء رجالي فليأخذوه . واعطاهم اياه ، فانثنى أبو الاعور وهو يقول اتبعوني الى القصر .
ثم خطر له ان يمهد لكليب سبل الفرار كما وعده ، فرفع صوته قائلاً لزبيد :
ــ أخرجت وحدك من طيء باحثاً عن هذا الرجل ؟
ــ بل خرج معي قوم آخرون من النمر وتغلب .. ــ واين هم الآن ؟

فكره الفتى ان يبوح له بكل شيء فقال : هم في دمشق !

ـ وينتظرون رجوعك ؟

ـ نعم وهذا ما رآه يزيد بن ابي سفيان واخوه معاوية .

ـ واين كنتم قبل ان تروا يزيداً ؟

فأملت عليه الحكمة ان يقول : اتينا تدمر وحوران وحمص ولم يبق الا ان نطوف في ارض فلسطين !!

فقال لكليب : الزم هذا الفناء يا حيان وسندعوك بعد ساعة ..

فقال زبيد : هذا اسم جديد يحمله ضيفك ايها الامير ، انه يدعى كليب بن خالد وهو من بني النمر وقد خلعه قومه .

قال : سننظر في امره ونسمع حكايته .. اين رسالتك ؟

فناوله الرسالة ، فجعل يقرأ وهو لا يقف حتى جلس في رواق له صغير يطل على طبرية وكان يقول : لو لم تكن من بني طيء الذين عرفت منهم رجال الشرف والجود ، لقبضت عليك واعدتك الى شرحبيل بن حسنة تجر قيودك .. لقد انتهكت حرمتي واستخففت بي وهذا لم يفعله معي من قبل احد سواك ...

ولعله لم يشأ ان يسمع جوابه فقال : قرأت كتاب شرحبيل فماذا تطلب انت؟

ـ اطلب ان تسلم اليّ قاتل هند ..

ـ قصّ علي ما جرى قبل ان تطلب ذلك .

فخبره كل شيء، فقال: لقد أبيت أنت ان تعطيني سيفك خوفاً من ان يلحق بك الذل ويعيّرك الناس أفتراني أدفع اليك جاري لتتحدث بي العرب، وتتناقل خبر نذالتي ولؤمي وانا ابو الاعور؟!!!إنك اذن من اولئك الناس الذين يحاولون قضاء اغراضهم الخاصة بتهشيم الكرامات !!!

قال : لا تدفعه اليّ ولكن اصنع ما يأمرك به امير المؤمنين .

ـ وبأي شيء يأمرني امير المؤمنين ؟

ـ بأن تقبض على الرجل وترسله الى قائد المسلمين في العراق. ـ واين كتابه؟

ـ أخذه صاحب دمشق وقد كتب الى شرحبيل عنه ، وذكره شرحبيل لك

في هذا الكتاب الذي قرأت .

قال : ليس لشرحبيل بن حسنة ان يأمرني بمثل هذا . اني خرجت الى طبرية بأمر القائد الاكبر ابي عبيدة بن الجراح ، فهو قائدي الذي اعود اليه في شؤون الحرب والسلم ، وانا لا أعرف لي مرجعاً سواه الا عمر بن الخطاب !

ـ ومن اين لي ان أصل الآن الى كتاب عمر ؟

ـ ومن اين لي انا ان اعلم انك تحمل الأمر الذي ذكرت ؟

ـ أقسم لك ان الامر موجود وستعرف لك طيء هذا الفضل ان فعلت .

ـ وتذكرني العرب ، في الوقت نفسه ، كلما ذكر الذل ..

قال : وكيف رضيت بأن تجعل هذا اللعين جاراً لك ووراءه عشائر ثلاث .

قال: لا تخوفني بالعشائر يا زبيد فقد قاتلت بعشيرتي وحدها صفوف الروم ولم ابالِ .. اني احتفظ بشرفي قبل كل شيء ثم انظر في امرك من ناحية اخرى ،فقد احسن اليك والى قومك من حيث لا تعلم. قال : اذكر لي كلمة مما يخطر لك.

قال : سأكتب الى شرحبيل ان الرجل كان جاراً لي ، وقد تخليت عنه عند وصول كتابه . ـ اذن تدفعه اليَّ ؟

ـ لا ، بل اسأله الخروج من طبرية والفرار من وجه طالبيه ، وهذا أهون من أن أخون المروءة وانكث العهد ! ـ والى اين يفرّ ؟

ـ له ان يختار البلد الذي يريد فليس لي رأي في هذا ؟

فأطرق زبيد يفكر فيما سمع ثم قال : يحفظ الامير عهده كما يشاء واطلب انا بثأري كما اشاء . ـ وما معنى ذلك ؟

ـ معناه اني اخرج من طبرية في الساعة التي يخرج فيها كليب .

ـ ثم تقبض عليه وتحمله الى دمشق ثم الى العراق . ـ نعم .

فقهقه ضاحكاً وقال : خير لي ان تفعل ذلك ، وهو في هذا القصر ، من ان تهزأ بي . وأهزأ بنفسي ، بالقبض عليه ساعة خروجه منه .

ـ وماذا تصنع اذن ؟

ـ اصنع ما يصنعه اشراف العرب في مثل هـذه الحـال .. يخرج جاري من

طبرية وتقيم انت بها يومين كاملين ، ثم تصبح حراً بعد ذلك ..
ـ اي انك تريد ان تضيع اثاره في بلاد اليهود ؟
ـ نعم ، ولا يستطيع امير المؤمنين نفسه ان يكرهني على ان افعل غير ما قلت . قال : سأعمد الى امر آخر اسألك رأيك فيه . ـ ما هو ؟
ـ هو اني أعود الى دمشق وأحمل اليك كتاب أمير المؤمنين نفسه فتصنع ما يأمرك به . فقهقه ثانية وقال: تسألني ايها الفتى ان اخفي نذالتي وراء كتاب عمر ؟ اني والله لا أغير شيئاً مما خطر لي .

فحاول ان يجيب،فأسكته قائلا لغلامه: ليحضر الفتى الذي يحمل اسم حيان!
فأقبل كليب ودلائل الخوف على وجهه، فقال له : لقد سألنا امير الاردن أن نسلمك الى عدوك وهو لا يعلم انك جار لنا .. فاختر لنفسك .. اما ان تبقى ونشهر الحرب على كل من يحاول القبض عليك وانت في جوارنا . واما ان ترحل عن طبرية الى حيث تشاء ! قال : ليس لي ان افعل الا ما يأمرني الامير به .
ـ بل ليس للامير ان يكره جاره على امر لا رغبة له فيه .. اختر الآن واحدة من الامرين .
قال : أؤثر الخروج على ان تستعر من اجلي نار القتال بينك وبين الامراء .
فقال للغلام : اعطه ناقتي ، وعباءتي وخنجري . وليرحل الساعة ، ثم همس في اذن ذلك الغلام كلمات لم يسمعها احد .
فخرج الغلام وأكبّ كليب يقبل ثوب ابي الاعور ، فقال له : اخرج غير مروّع ولا خائف فهذا الفتى ومن معه سيبقون في طبرية، بل في هذا القصر حتى يمر يومان ، ثم قال لغلامه الآخر : هؤلاء احرار في القصر يروحون ويجيئون في أروقته ودهاليزه وحجراته على ان لا يجاوزوه الى الفناء والويل لك وللحرّاس اذا فرّ أحدهم .. اذهب وأوصِ الحراس بما أمرت ، وليحذروا ..
وكان ذلك القصر أثراً خالداً من آثار امراء اليهودية ، في تلك الارض .
فقال زبيد : يكفي ان نعد بأننا سنبقى .. ودمعت عيناه من القهر .
لقد دفع القدر عدوه اليه ثم أنقذه منه وهو عاجز عن الاحتفاظ به ، وهذه

أبلغ صورة من صور الفشل وخيبة الرجاء .

ونهض عندئذ ابو الاعور ، وهو يتألم لألم زبيد ، ولكنه لا يستطيع ان يفعل غير ما فعل ، فهو من وجوه العرب والمروءة والوفاء ، شيمة الاشراف والنبلاء . وكان يقول وهو يهم بالانصراف :

ـ انتم ضيوف الامير حتى ينقضي الموعد الذي عرفتموه .

فأجابه زبيد ويده على جبينه : قل اننا اسرى !

قال : أجل ، أسرى الوفاء الذي لا نخونه ، وخرج ليستوثق من ذهاب ضيفه .

فأومأ الغلام الى زبيد ورفاقه بان يتبعوه الى الحجرات التي يعدها لهم ، واستطاع ان يهامس زبيداً قائلاً :

ـ سأذكر لك بعد ساعة اسم البلد الذي رحل اليه صاحبك ، وهذا يكفيك .

فلمعت عيناه وجعل يحدق اليه ، ثم قال : أتفعل ؟

ـ اي والله فقد قرأت الخيانة والغدر على وجه حيان ولم أكن أطيق ان يبقى في القصر ساعة لولا ابو الاعور . ـ ومن يقول لك ذلك ؟

ـ الغلام الآخر الذي خرج معه ليعطيه ما وهبه له الامير .

قال : اذا فعلت رضي عنك أبو عبيدة وامير المؤمنين .

قال : حسبي اني سأفعل ما تمليه عليّ نفسي فليس من العدل ان يقتل الفتى اختك ويبقى حياً .. ثم قال : كيف رأيت ابا الأعور ؟

قال: رأيت شرفاً ومروءة لم أرَ قط أبعد أثراً في النفس منهما ، ولكن شرفه ومروءته ضيعا رجاء بني طيء . قال : لم يضيعا شيئاً .. انك ستقبض على عدوك بعد ايام .. ـ ومتى يعود الغلام ؟

ـ لا تطوف في القصر وترى الآثار التي فيه ، حتى يعود .

وتقدمهم في رواق طويل صعدوا منه الى سطوح تقوم على أطرافها الأبراج الرومانية وجعل الغلام يومىء الى طبرية ويقول : كان ابو الاعور يجلس في هذا البرج ، كل يوم بعد الصلح ، ليرى اذا كان هنالك نقض للعهد . ـ واليوم ؟

ـ أما اليوم فقد اطمأنت نفسه ، وليس في طبرية كلها رجل يجرد سيفاً في

وجه المسلمين .. وأخذوا يطوفون في دهاليز الأبراج والسراديب حتى تعبوا ، وكان ذلك الغلام قد عاد ، وأبو الاعور ، لم يعد .

* * *

اين تركت الامير يا مالك . « ومالك اسم الغلام الذي خرج مع كليب »
قالها رفيقه الغلام الاخر وهو يخفض صوته .
فقال : وأين هو الأمير اني لم أره منذ خرجت. قال: وهل رحل ضيفه؟
ـ أجل ، وإني لأحمد الله كل يوم على رحيله .. !
قال : كنت اتمنى ان يسقط سيف الطائي على رأسه فيغمض الموت عينيه الخبيثتين. ـ وأين الطائي الآن؟ ـ اسير في هذا القصر مع رفاقه الثلاثة.
قال : رأيت الشرف يتلألأ على جبينه ..
ـ وانا رأيت ما رأيت ولكنه شقي وقد انتزع القدر من يده قاتل اخته ..
قال : سيلحق به بعد حين ويبلغ غايته منه .
ـ والى اي بلد أراد الذهاب ؟ ـ أمرني الامير بأن ادله على طريق الشاطىء ، وهو يريد ان يذهب الى حمص وينضوي تحت لواء ابي عبيدة .
ـ ورضي هو بذلك ؟ ـ نعم وكان يقول : لقد كان اعدائي في حمص ورحلوا عنها فهم لا يعودون اليها اليوم .. ولولا الوفاء والاخلاص لابي الاعور لخبرت فتى طيء كل شيء وطلبت اليه ان يرسل رجاله الى ذلك البلد ليقبضوا على القاتل . قال : ليس لنا ان نفضح سراً مثل هذا .. قل ماذا اعطاك عندما رحل ؟ فابتسم قائلاً : لقد كان كريماً جداً وجواداً لا تذكر معه اجواد العرب .. اعطاني الف درهم !! . قال : انها ثروة لا ترى مثلها عند ابي الاعور ، في عشرين عاماً . ـ ولكني جعلت نصفها لك فتهيأ للقسمة ..
قال : هات .
ـ بل تعطيني انت .. ألا تملك جراباً ؟
ـ بلى . ـ اذن تجعله قطعتين واحدة لي والاخرى لك .. لقد سلبني اللعين

جرابي وانا لا املك سواه ، وهذه هي الثروة التي انتهت اليّ من فضله .

وضحك الاثنان ، ثم خطر لهما ان يشيعا ضيف الامير بكلمات الشكر ، فحمّلا النسيم ألفاظ اللعنة !!

وبينا هما يرتجلان الخطب... أقبل الامير وهو يسأل عن ضيوفه الاسرى .

فقال له غلامه : إنهم في مخادعهم وزبيد يندب سوء حظه .

قال : لقد فعلنا ما فعل كل ابي ، احذر يا مالك ان تبوح لاحد باسم البلد الذي رحل اليه الجار ..

قال : صدقني يا مولاي اني قد نسيت ما جرى .. ولكن لا فانا لم انس جود جارك الذي سلبني جرابي . !!

قال : كفّ عن المزاح. — اقسم لك بالله الذي لا اله الا هو اني لا أمزح..

— وكيف فعل ذلك ؟ .

— ملأت جرابه تمراً فلم يشأ الا ان يملأ جرابي ايضاً ويستوهبني اياه .

قال : لك مني جراب غيره فيه درهمان ..

فقال : اما الآن فانا اسأل الله ان يكثّر ضيوفك لتكثر دراهمي ..

فضربه بوعاء صغير من نحاس كان الى جانبه وقال له :

— خبرني الآن ماذا فعلت ؟ . — فعلت ما أمرتني به ومشيت معه حتى انتهينا الى طريق الشاطىء . — أما أنا فقد ارسلت اربعة رجال يسيرون معه مرحلتين . قال : وخرجت من القصر لهذه الغاية يا مولاي ؟

— بل نذهب من اجل هذه الغاية الى حمص نفسها ليصل اليها جارنا وهو مطمئن . قال : احذر ان تذهب يا مولاي وتأخذ جرابك .. !

فضحك وقال : هنيئاً لكليب بن خالد، او حيان بن زيد فقد نجا من شرك.

وصرفه مع رفيقه باشارة منه ، وجلس على مقعده يفكر في أمره وهو غير نادم على ما صنع ، وقبل ان تغرب شمس ذلك اليوم ، عرف زبيد ما أراد ان يعرفه، وكان يود لو استطاع ان يسير الى حمص سابحاً في الفضاء، ولم يمض اليومان حتى خرج من طبرية ، وقد أحسن الى الغلامين ، وشكر لأبي الاعور السلمي حسن ضيافته .

٣٥

كان القوم في الشام كلها قد بلغهم خبر موت المثنى بن حارثة، وولاية سعد بن ابي وقاص.. وكان البريد يحمل اليهم اخبار الحرب، وقد عرفوا ان يزدجرد يرسل جيشه الى القادسية، ليضرب المسلمين ضربة لا يرتفع لهم بعدها صوت في العراق!

وسعد بن ابي وقاص، يطاول الفرس، بأمر امير المؤمنين، كما يطاولونه وقد كتب له الظفر في تلك الغزوات التي يغزوها الجيش العربي.

ثم عرفوا بعد ذلك ان الفرس خسروا شرفهم في القادسية، وخسروا معظم قوادهم فملأ الفرح القلوب، وأيقنوا بأن علم الاسلام سيخفق فوق هذا الشرق، وستنحني له رؤوس القبائل المرتدة، والملوك المتمردين.

وكان ابو عبيدة قد زحف بعد واقعة مرج الروم، الى حمص كما مر، ثم لحق به خالد بن الوليد، وجعل الاثنان يعدّان عدة الفتح.

اما هرقل امبراطور الروم، فقد أمر عامله في حمص، بان يقاتل المسلمين من وراء الاسوار، وكان يقول: بلغني ان طعام هؤلاء لحوم الابل، وشرابهم البانها، وقد أقبل الشتاء فلا تقاتلوهم الا في كل يوم بارد فانه لايبقى الى الصيف منهم أحد!

أوصاه بذلك، ثم سار بجيشه الى الرها، متظاهراً بأنه يجمع الجنود، ويحصن المدن، وينفخ في صدور القوم روح الحرب.

وقد تكون له من وراء ذلك غاية اخرى، هي الفرار من وجه قواد الاسلام، الذين ضيقوا عليه ارض الشام على رحبها، وظفروا بجيشه في جميع الميادين.

فعمد اهل حمص الى ما أمرهم به هرقل، يغادون المسلمين، من فوق الاسوار، في الايام الباردة، ويمطرونهم سهاماً، فيفعل المسلمون مثلما يفعلون وقد أفرغ الله الصبر على كل مسلم، ووهب له قوة الاحتمال.

البرد شديد جداً لا يطاق، وقد لقي الجيش العربي منه ما لم يلق مثله في جميع الساحات التي خاض غمارها، حتى قام في أذهان الروم، ان العرب الحفاة ستسقط أقدامهم من شدة البرد، وكان بعضهم يقول للبعض الآخر: تمسكوا

بمدينتكم فسينوب الشتاء والبرد عن السيف ويقضيان على الاسلام !!

ولكن المسلمين كانوا جبابرة الحروب ، فقد ثبتوا في حصار حمص كالجبال الراسخة ، لم يخرجهم الشتاء عن نظامهم، ولم يؤثر البرد في الصفوف، حتى ولّى الشتاء ، وصفا وجه السماء ، ومدّ الربيع رواقه الزاهي فوق الصحراء .

فقام في الروم شيخ لهم يدعوهم الى الصلح ، فلم يسمعوا له ، وكانوا يقولون : وكيف نفعل والملك في سلطانه وعزه ، وليس بيننا وبين المسلمين شيء نخافه .

ثم قام آخر فقال : لقد ذهب الشتاء وانقطع الرجاء ، فما تنتظرون ؟

قالوا : البرسام !!

« البرسام التهاب يعرض للحجاب الذي بين الكبد والقلب ويعرف ايضاً بالجرسام واللفظة فارسية مركبة من بر وهو الصدر، وسام وهو الالتهاب ، ولعله المرض الذي يعرف اليوم بذات الجنب » . وهو يسكن على زعمهم في الشتاء ، ويظهر في الربيع والصيف .

فقال : ان هؤلاء رجال احتمال وشدة ، فخير لكم ان تأتوهم بعهد وميثاق من ان تؤخذ حمص عنوة وتهدم منازلها على رؤوسكم .

فقالوا : شيخ خرف ولا علم له بالحرب .

ولكنهم رأوا حصاراً طويلاً، يبدو فيه ، بين صفوف العرب، الجلد والقوة، فخافوا ان يمدّ الجوع مخلبه القاسي فيقضي عليهم ويخسروا كل شيء .

ففزع القوم عندئذ الى رؤسائهم وذوي الرأي يدعونهم الى المسالمة ، فآثر الرؤساء التسليم ، في شروط صالحة ، على الدفاع وهم عاجزون عنه، وندبوا بعض رجال المشورة لطلب الصلح ، فأقبل هؤلاء الى الاسوار ونادوا : الصلح الصلح !

والمسلمون لا يعلمون ماذا يحدث في الداخل ، فقالوا لابي عبيدة : ان القوم يريدون ان يسلّموا ، فقال : ليخرج منهم من يحمل شروطهم .

فخرج اربعة من الشيوخ ومثلوا بين ايدي ابي عبيدة وخالد ووجوه العرب .

فقال أبو عبيدة : لقد سألتمونا الصلح ولم نعلم كيف تريدونه ، اتجعلونه مثل صلح دمشق والاردن فيما يعني الجزية ؟

قالوا : نطلب الانصاف في فرض الجزية وان يترك المسلمون اموال الروم ومنازلهم لا ينزلونها عليهم كما فعلوا في بعض نواحي فلسطين .

فأجابهم وهو لا يتردّد : تركنا لكم المنازل والأموال وماذا ايضاً ؟

ـ وان يدفع الرجل منا على قدر طاقته ان زاد ماله زيد عليه وان نقص نقص ، قال : كذلك كان صلح دمشق وقد رضينا به ، افتحوا الابواب .

ففعلوا ، فدخلت العشائر التي أمرها ابو عبيدة بالدخول .

السمط بن الاسود في بني معاوية ، والاشعث بن ميناس في بني السكون ، والمقداد بن عمرو في بني بلى ، والصباح بن شنير ، وذهيل بن عطية .

هؤلاء امرهم القائد الاكبر بالنزول في حمص .

ثم بعث الى امير المؤمنين بالاخماس ، مع عبدالله بن مسعود ، وكتب اليه بالفتح ، وخبره ان هرقل عبر الفرات الى الجزيرة فهو بالرها يحتجب احياناً ويظهر احياناً .

فكتب اليه امير المؤمنين يقول : أقم بمدينتك ، وادعُ اهل الشدة والبأس من عرب الشام فاني غير تارك البعثة اليك بمن يكون لك عوناً ان شاء الله .

وكان قد كتب الى سعد بن ابي وقاص ، من قبل ، يأمره بان يبعث الى الشام جيشاً ، يمنع الروم النازلين في الجزيرة ، من الوصول الى حمص .

فلما انتهى كتابه الى ابي عبيدة ، دعا اليه العرب من كل ناحية ، ثم وجه خالد ابن الوليد الى قنسرين ، على رأس قطعة كثيرة العدد ، من الجيش الظافر ، واستخلف على حمص ، عبادة بن الصامت ، وتهيأ هو للزحف الى حماه ، وما يجاورها من مدنٍ وقرى ، في السهل وعلى شاطىء البحر .

وخرج خالد يريد قنسرين ، فلما نزل الحاضر ، زحفت اليه صفوف الروم ، عليها رجل يدعى ميناس ، هو سيدهم وعظيمهم بعد هرقل .

فتلاقى الجيشان ، فقتل ميناس ومن معه من الروم حتى ظن انه لم يبق منهم احد ، واما اهل الحاضر فكانوا عرباً وقد ارسلوا الى خالد يقولون : انهم اكرهوا على امرهم ولم يكن من رأيهم حربه .

فقبل منهم ذلك ، ثم سار الى قنسرين ، فاحتمى اهلها وراء اسوارهم كما فعل اهل حمص ، فقال لهم كلمة تثبت لقراء التاريخ بسالة ذلك القائد العربي وقوة ايمانه قال : لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا ، فنظروا في امرهم وذكروا ما لقي اهل حمص ، فقالوا : نصالحك على مثل صلح حمص .

قال : لا والله لا اصالح الا على خراب المدينة ، ولم يلبث حتى هدم منازلها ودمر حصونها وقصورها ولم يبقِ الا على الاسوار .

وكان هرقل في الرها، فلما بلغه سقوط قنسرين، ورأى بعينيه خروج الشرق من يده ، مدينة خلف مدينة ، واقليماً بعد اقليم ، وانه لا يستطيع الاحتفاظ بالملك الباقي له ، رأى ان يعمد الى الفرار لاجئاً الى القسطنطينية .

ولحق به رجل من الروم كان اسيراً في ايدي المسلمين ، فقال له : خبرني ماذا رأيت ؟

قال : احدثك كأنك تنظر الى القوم .. انهم فرسان في النهار ورهبان في الليل ما يأكلون الا بثمن، ولا يدخلون الا بسلام .. ويقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه .. وانهم من الجنّ يا مولاي لا تستطيع الجيوش ان تثبت امامهم في مجال . . فقال : لئن كنت صدقتني ليرث اميرهم ما تحت قدمي هاتين ...

ثم التفت الى ناحية سوريا قائلاً :

السلام عليك يا سوريا سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود اليك رومي ابداً الا خائفاً . وسار فدخل القسطنطينية . بعد أن اخذ معه اهل الحصون القائمة بين اسكندرونة وطرسوس خوفاً من أن يسير المسلمون ، في البحر، ما بين انطاكية وبلاد الروم ، فينتفعوا بهم ، وخرّب الحصون كي لا يلجأ اليها مسلم !

وتفرقت صفوف الروم في كل اقليم من قنسرين الى انطاكية ..

وملأت هيبة الاسلام ، هذا القطر الشرقي كله ، من ادناه الى اقصاه .

* * *

٣٦

سار ابو عبيدة الى حماه ، فخرج اهلها يظهرون خضوعهم له ، واستسلامهم اليه انهم يريدون الصلح ولا يرغبون في القتال .

فصالحهم على الجزية لرؤوسهم ، والخراج على أرضهم ، ولم يلبث حتى ترك حماه الى بلد يدعى شيزر ، فسأله اهله أن يصالحهم على ما صالح عليه اهل حماه ، ففعل . ثم زحف الى معرة حمص . وهي معرة النعمان .

« نسبت الى النعمان بن بشير الانصاري »

فأذعنت له بالصلح ايضاً ، ولم يزل ينتقل من بلد لآخر والرؤوس تنحني له ، والسيوف تلقى عند قدميه ، حتى أتى اللاذقية .

وقد طابت لأهلها الحرب ، وقام في أذهانهم انهم قادرون على ردّ المسلمين ، بقوة السيف !!

وخرجوا ، يستقبلون أبا عبيدة ، بالاسنة والرماح ..!

فأثبت لهم ذلك القائد الجبار ، انه لا يحب ذلك النوع من الاستقبال .. وعلمهم الّا يخرجوا مرة ثانية الى حربه ...

وقد نفعتهم تلك المثالة القاسية ، أجل ، فان السيف لم يقع على السيف حتى رأوا الموت يفتح لهم ذراعيه ، فتراجعوا الى حصونهم الجبارة ، وأغلقوا باب المدينة العظيم الذي تفتحه وتغلقه طائفة من الناس .

فعمد ابو عبيدة عندئذ الى الدهاء ، الذي هو امضى سلاح في ايدي القواد .

أمر الجيش بأن يعسكر في السهل الشرقي الشمالي من المدينة ، في مكان بعيد عنها يراه القائمون على الاسوار. ثم أمر فحفرت الحفائر تستر الحفرة منها الرجل راكباً .. وبعد ان اتمّ عمله ، أومأ الى الجيش بالانصراف ، واظهر لأهل اللاذقية الذين يرونه ، انه راحل بجيشه عنهم !!!

فأشرفت وجوة الجماعة ، وقالوا في انفسهم :

ملّ ابو عبيدة فهو لا يطيق الحصار . ولكن عندما جنّ الليل ، وبسط

الظلام جناحيه الاسودين فوق تلك السهول الواسعة ، هامس ابو عبيدة قواده قائلاً لهم : ارجعوا في مهل ، واستتروا بالحفر !!!

فلما طلع الصبح ، رأى أهل البلد ان المسلمين قد انصرفوا !!

فاخرجوا مواشيهم وانتشرت وانتشروا بينها في ظاهر البلد .

فلم يرعهم غير المسلمين يخرجون منجوف الارض ويقولون : الله اكبر .. الله اكبر . فتعجلوا في الرجوع ودخلوا مدينتهم والذعر ملء القلوب .

ولكن المسلمين دخلوا معهم ووضعوا أيديهم ، في ساعة واحدة على الحصون والابراج ، واستولوا عنوة على المدينة الزاهرة التي أبى أهلها الاستسلام ..

ووقفوا على بابها بالرماح والسيوف ، يمنعون الناس من الفرار .

على ان قوماً منالنصارى استطاعوا الخروج، ثم طلبوا الأمان على ان يرجعوا الى أرضهم ويخضعوا لارادة الفاتح، فأذن لهم في ذلك ابو عبيدة، وضرب عليهم خراجاً يؤدونه قلّوا او كثروا وترك لهم كنيستهم لا يعرض لهم المسلمون في أمر دينهم ، ثم بنى المسلمون بعد ذلك مسجداً جامعاً ، بناه عبادة بن الصامت .

وجلا اهل جبلة من الروم عنها ، بعد فتح اللاذقية ، خوفاً من ان يدخلها المسلمون فيصيبهم ما أصاب اهل المدينة الكبرى ، القائمة على ذلك الشاطىء .

وقد بنى معاوية بن ابي سفيان ، عندما انتهت اليه الخلافة ، حصناً في جبلة خارج الحصن الرومي، يقيم به رجال الحرب ، وفتح عبادة بن الصامت طرطوس « وقد وردت في التاريخ طرسوس » وكانت حصناً ، ثم بنى معاوية طرطوس ، ومصّرها ، وأقطع بها القطائع لأهلالسيف، وكذلك فعل بباب نياس «بانياس» وفتح سلمية أيضاً .

* * *

كان ابو عبيدة ، قد خرج من مصر فاتحاً ، عندما قدمها عبدالله بن الفهر ، من دمشق ، وكان خليفته فيها ، كما قرأت ، عبادة بن الصامت ، وهو من وجوه الناس ، وأبطال المسلمين ، الذين ذهب لهم في تلك الحروب ، صيت وذكر.

فرأى عبدالله ان الحظ يخونهم فيما قدموا لأجله ، وكاد يملّ الطواف والبحث عن كليب ، لولا بقية أمل في الصدر .

أجل ، لقد أحسّ في تلك الساعة ان الاقدار لا تساعد المنذر في مهمته وهي لا تفتح له باباً للفرج ، حتى تحول بينه وبين الدخول .

كان عبدالله يؤمن ، بأن كتاب امير المؤمنين الذي يحمله الى ابي عبيدة، يعيد الأمل الضائع ، بل يفعل العجائب .. ان ابا عبيدة سيد العرب في الشام ، فهو قادر ، وأمر عمر بن الخطاب في يده ، ان يقبض على كليب ولو جعل السحب ملجأ له ! بل كان يعتقد، ان ابا عبيدة، بما له من نفوذ وهيبة وسلطان، يستطيع ان يقول لرجاله : اريد ان تأتوني بكليب بن خالد ، فيفعل رجاله ما لا يفعله السحر ، ويطرحوا عند قدميه ، بين ليلة وضحاها ، الفتى الذي يطلبه !!

ولكنه عندما وصل الى حمص ، لم يجد ذلك الجنيّ الذي يقدر على كل هذا .

فتردد في الدخول على عبادة ، ثم ذكر انه مكره على البقاء في حمص ريثما يجيء اصحابه ، فاستأذن عليه ، ودخل ، والكآبة في عينيه .

وكان مجلس عبادة يغص بالناس ، وعنده رسول من المعرة ينقل اليه اخبار فتح حماه وما يجاورها من المدن ، صلحاً بدون قتال . فلما رأى عبدالله ، خيل اليه انه رسول آخر بعث به خالد بن الوليد او سواه ، فقال له : بشير آخر ان شاء الله .. من انت ؟

قال : رجل من تغلب ! — من الجزيرة ام من العراق ؟

قال : تسألني عن الارض التي نشأت فيها ام البلد الذي خرجت منه !

— عن الاثنين !. — ولدت ونشأت في العراق وانا قادم من دمشق .

— وانت فيها منذ الفتح ؟

— لا بل قدمتها منذ زمن لغرضٍ لي ومكثت بها الى اليوم لأرى ابا عبيدة قائد جيش الشام .

قال : تستطيع ان تلحق بابي عبيدة من بلد إلى بلد حتى تنتهي اليه .. لقد كان في معرة حمص منذ بضعة ايام وكتب اليّ انه زاحف الى اللاذقية وقد يسير

منها الى حلب ثم هو لا يعلم بعد ذلك الى اي مكان تحمله قدماه .

– كنت أظن قبل خروجي من دمشق اني سأراه في حمص .

– ألا يطيب لك ان ترىٰ خليفته ؟ قال : أخشى ان تردني .

قال : يظهر ان لك حاجة وليس في الجيش من يستطيع قضاءها غـــير ابي عبيدة . – هذا ما يخطر لي .

قال : اذا رأيت ان تذكرها فافعل فقد انوب عنه في قضائها .

قال : امهلني ايها الامير فسأذكر كل شيء .

فعرف ابن الصامت ان له سراً، فأومأ الى القوم بان يخرجوا ، وجعل عبدالله يقصّ حكايته حتى اتى على اخرهـــا وكان يقول : مضى عليّ بضعة اشهر وانا اقصُ هذه الحكاية حتى مللتها ! – اعطني كتاب امير المؤمنين .

فناوله اياه ومعه كتاب يزيد بن ابي سفيان ، فقرأ الكتابين وجعل يبتسم .

فقال عبدالله : ماذا رأيت ؟

– رأيت ان كتاب امير المؤمنين موجّه الى عماله وانا من هؤلاء العمال .

– اذن تقدر على ان تفعل ما يفعله القائد الاكبر .

– أجل ، فالرجل الذي يقدر ان يشهر الحرب دون ان يستأذن احداً يقدر ان يقبض على رجل يأمره امير المؤمنين بالقبض عليه .

فابتسم بدوره ، واضمحلت تلك الكآبة التي بدت في عينيه ، ثم قال : بقي ان يعلم الامير مقرّ الرجل .

– اذا كان في القطر الشامي فلا يضيع .. نصبر الآن حتى يجيء رفاقك من حوران وفلسطين ثم ننظر في الأمر بعد ذلك. ثم قال : ألم ترَ سعداً قائد العراق؟

– تركنا العراق والمثنى حي ونحن لا نعرف سعداً هذا ولم نسمع به .

قال : لقد اظفره الله بالفرس ، في القادسية، وكتب اليه امير المؤمنين يأمره بالزحف الى المدائن فكأن امير المؤمنين لا يريد الا ان يحطم عرش كسرى .

– يقولون ان ابن ابي وقاص من صحابة محمد ؟

– اجل ، هو أحد السابقين في الاسلام وقد كان من أحب الناس الى النبي .

– وسمعتهم يقولون ان طائفة كبيرة ، من امراء العرب في القادسية حصدها السيف . وكان عبدالله يريد السؤال عن ابي زبيد وفرسان تغلب .

فقال : ذكر سعد لأمير المؤمنين اسماء الذين قتلوا وبعث امير المؤمنين بهذه الاسماء الى ابي عبيده . – وقرأتها انت ؟

– نعم واني لأذكر أصحابها رحمهم الله فقد كانوا جميعاً من رجال السيف .

وأخذ يعدّ القتلى وعبدالله يعرف بعضهم ، ولم يذكر معهم ابا زبيد ولم يكن بينهم تغلبي أو نمري .

ثم وصف له هشام بن عتبة بن ابي وقاص وقال: انه ابن اخي سعد وقد ارسله أبو عبيدة الى العراق بأمر أمير المؤمنين ليكون عوناً لعمه .

وظل الاثنان يتحدثان حتى كان المساء، فانصرف عبدالله مع رجاله الى الموضع الذي اعد لهم ، وقد طابت نفسه وقام في ذهنه ان الله سيردهم بعد قليل الى العراق ليشاركوا قومهم في الفتح .

٣٧

تولى يزيد بن أبي سفيان ، وعلى مقدمته اخوه معاوية ، فتح صيدا وعرقة وجبيل وبيروت ، وهي سواحل دمشق ، وجلا معظم اهلها ثم عاد مع أخيه الى مقر ولايته .

ولكن الروم استعادوا بعض هذه السواحل، في آخر خلافة عمر بن الخطاب، وأول خلافة عثمان بن عفان ، فزحف اليهم معاوية ففتحها ثم أعاد بناء الحصون وجعل فيها الجيش يرد عنها غارات الروم .

فلما ولي عثمان الخلافة ، جمع لمعاوية الشام كله، فوجه معاوية سفيان بن نجيب الازدي الى طرابلس ، وهي ثلاث مدن مجتمعة ، فبنى في مرج على اميال منها ، حصن سفيان ، وقطع المؤن عن اهلها ، من البر والبحر ، وحاصرهم حصاراً

شديداً ضعفت معه القوى ، وخارت العزائم ، وضاقت الصدور .

فاجتمعوا في احد حصونهم ، وكتبوا الى ملك الروم يومئذ يسألونه ان يمدهم ويبعث اليهم بالسفن تحملهم الى البلد الآمن الذي لا خوف فيه .

فأرسل اليهم الملك سفنا كثيرة ركبوها ليلاً وهربوا .

فلما اصبح سفيان ، وكان يبيت هو والمسلمون في حصنه ثم يغدو على عدوه رأى حصن ذلك العدو خالياً ، فدخله وكتب بالفتح الى معاوية .

فأسكنه معاوية جماعة كثيرة من العدو « وموضع الحصن هو موضع المينا اليوم » ثم بناه عبد الملك بن مروان وحصّنه ، ثم ثار أهله ايام عبد الملك نفسه ، ففتحه الوليد ابنه . « ذكرنا لك هذا وهو غير داخل في سياق الرواية، للاطلاع على اخبار الفتح» . اما ابو عبيدة ، فلما فرغ من فتح تلك المدن التي قرأت، سار الى حلب ، فبلغه ان أهل قنسرين نقضوا عهدهم وغدروا .

فبعث اليهم السمط الكندي فحصرهم ثم فتحها ، واصاب فيها مالاً كثيراً فجعل بعضه لجيشه وضمّ البعض الآخر الى الغنائم .

ووصل ابو عبيدة الى حاضر حلب، وهو قريب منها ، فصالح طوائف من العرب المتنصرة على الجزية ، ثم أسلمت تلك الطوائف بعد ذلك، وأتى حلب، فتحصن أهلها ، فحصرهم المسلمون ثم لم يلبثوا حتى طلبوا الامان على أنفسهم واولادهم ومعابدهم ، فأعطاهم ما طلبوا ، واستثنى عليهم موضع المسجد .

ثم انثنى يريد انطاكية وهي تغصّ بجيش لجب قدمها من قنسرين وغيرها من المدن التي استسلمت الى الفاتحين .

فحاصرها من جميع الجوانب ، فصالحوه على الجلاء او الجزية ، فجلا البعض واقام الآخرون ، فأمّنهم ثم نقضوا العهد كما فعل اهل قنسرين .

فوجه اليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الاول، وكانت انطاكية من المدن العظيمة الذكر والاثر عند المسلمين .

فكتب عمر بن الخطاب الى ابي عبيدة :

اختر من الجيش طائفة من ابطال المسلمين يبقون في انطاكية ولا تحبس عنهم

العطاء واحذر ان يتركوها .

ففعل الرجل ما أمر به ثم طاف بجيشه الظافر في جميع النواحي بين انطاكية وحلب وقنسرين ، وحول هذه المدن لم يترك بلداً الا فتحه عنوة او صلحاً حتى استولى المسلمون على الشام من هذه النواحي ومما يلي دمشق الى الفرات !!

وكان خالد بن الوليد قد فتح مرعش على جلاء اهلها بالامان .

وقد تمَّ هذا الفتح كله، والذي ستقرأ اخباره فيما يلي من السطور ، في عامين اثنين من السنة الثالثة عشرة للهجرة الى السنة الخامسة عشرة !!!

فكأن ملائكة النصر كانت تتقدم المسلمين الى كل اقليم .

ورأى أبو عبيدة عندئذ ان يعود الى فلسطين وقد عول على المرور بحمص .

لقد قرأت ان عمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، زحفا الى بيسان وافتتحاها وصالحتها الاردن .

وكان جيش الروم ، قد اجتمع بعد فتحها ، باجنادين وغزة ، والاثنتان من مدن فلسطين الكبرى ، التي تكثر فيها الجيوش والحصون .

فكتبوا الى ابن الخطاب بتفرق الروم .

فكتب عمر الى يزيد امير دمشق ، أن يمد القوم بالرجال ، ويسرح اخاه معاوية الى قيسارية ، وأمر ابن العاص بان يحاصر اجنادين ، وعلقمة بن محرز بان يحاصر غزَّة وكتب كتاباً خاصاً الى معاوية يقول فيه :

« اما بعد فاني قد وليتك قيسارية فسر اليها واستنصر الله عليهم واكثر من قول لاحول ولاقوة الابالله. الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير.

فسار معاوية في جنده فحصر البلد، فجعلوا لا يزاحفونه مرةً الا هزمهم وردهم الى حصونهم حتى أكرههم على الخروج، فاقتتلوا ، فظفر بهم وملأت جثثهم الارض.

وتوجه علقمة الى غزة ، ومشى عمرو بن العاص وشرحبيل الى اجنادين واستخلف ابو الاعور السلمي على الأردن .

وكان الروم بأجنادين، في حصونهم وخنادقهم وعليهم رجل هو أدهى قومه وأبعدهم غوراً واكثرهم حيلة ، فقضى المسلمون اياماً كثيرة لا يقدرون ان يبلغوا

غايةً او ينالوا غرضاً من الروم .

حتى رأى عمرو بن العاص اخيراً ان يسير اليه بنفسه كأنه رسول !! وله من وراء ذلك غاية هي ان يسمع كلامه ، ويقرأ ما في نفسه ، وينظر الى حصونه !.

ودخل عليه بعد ان أذن له .. فقال له ما يريد ان يقوله ، ثم جعل يرسل عينيه بخفة وخبث ليتبين عدد الجيش وقوى الدفاع !!

فقال القائد الرومي في نفسه :

والله ان هذا لعمرو بن العاص او الذي يأخذ عمرو برأيه وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله . ثم دعا احد الحراس وهامسه قائلاً :

تخرج الى مكان كذا، فاذا مرّ بك هذا الرجل راجعاً الى جيش المسلمين فاقتله.

فأيقن عمرو بأن هذا الرومي سيغدر به فقال: قد سمعت مني وسمعت منك . اما ما قلته فقد وقع مني موقعاً طيباً وانا واحد من عشرة بعثنا ابن العاص امير المسلمين اليك فارجع فآتيك بهم الآن ، فان رأوا ما رأيته انا فقد رآه المسلمون والامير ، وان لم يروا ذلك رددتهم الى مأمنهم وبقيت انت على ما انت عليه !!

فخدع الرجل بقول عمرو ، ودعا حارساً آخر من حراسه وقال له وعمرو لا يسمع : اذهب وقل للرجل الذي بعثت به الآن ان يرجع اليّ . فرجع الرجل اليه ، فقال عندئذ لعمرو : انطلق وارجع مع اصحابك ..

فخرج عمرو ، على ان لا يعود الى مثلها . وعلم الرومي انه قد خدعه فقال : خدعني هذا المسلم .. انه أدهى الناس .

وبلغت حيلة عمرو امير المؤمنين في المدينة فقال لمن حوله :

غلبه عمرو .. لله عمرو وقد عرف مأخذه وعاقبته .

وكان لا بدّ لأهل أجنادين من القتال وجهاً لوجه فخرجوا ، واستعرت النار ، وفتح الموت شدقيه يبتلع الرجال ، حتى ان القوم لم يشهدوا قتالاً أشدّ وأبعد أثراً غير قتال اليرموك ، ولم يلبث الروم حتى فروا من الساحة ولجأ اميرهم وبعض رجاله الى بيت المقدس « القدس » .

فدخل عمرو اجنادين ، ثم خرج منها ففتح غزّة ونابلس ويافا « وقيل فتحها

معاوية » ومرج عيون وغيرها من المدن حتى دانت للمسلمين معظم ارض فلسطين الا بيت المقدس المدينة المنيعة الكثيرة الحصون .

وانتهت اخبار الفتح الى المدينة ، فقال عمر : احمدوا الله على فتح فلسطين وعلى ما يولينا من النعم .

٣٨

على الطريق ، بين دمشق وفلسطين ، أكواخ لفقراء العرب ، يضعون فيها ما يعالجون فقرهم ببيعه ، كلما مرّ الناس بها ، في الرواح والمجيء .

كانوا كذلك في ظل الروم وبني غسان ، وبقيت لهم أكواخهم في ظل الفتح العربي الذي تقرأ أخباره ، لا تدمرها يد الحرب ، ولا يعرض لها ولأصحابها جندي ..

واهل هذه الاكواخ أشقياء .. أشقياء بحكم البيئة الفاسدة والوسط القذر الذي اختاره لهم القدر ، لا يتورع احدهم عن ان يقتل أخاه وهو في فراشه ، ثم يمسح خنجره بشعر رأسه او بثوبه ، ويستسلم بعد ذلك الى النوم مبتسماً للأحلام !!!

وكثيراً ما كانت هذه الاكواخ شركاً لبريء وفخاً لقاتل في حين ان مظهرها الخارجي مظهر سكينة وانس !!

وهي ليست كثيرة فقد لا يجاوز عددها عدد اصابع اليدين ، وقد جعلوها صفاً مستطيلاً يبعد الواحد عن الآخر اكثر من مئة ذراع .

والواحد من اصحابها « الأشقياء » يبيع اباه بدرهم كما يقولون !

ففي احدى الليالي أقبل الى الكوخ الاول الذي هو من ناحية فلسطين ، فتى اسمر الوجه براق العينين يتقلد سيفاً وفي حزامه خنجر وجرابان ! وانك لتعرف هذا الفتى .. فهو كليب بن خالد !

وقد آثر الذهاب الى حمص ، على طريق دمشق ، لغاية له .. وهو لا يبـالي باعدائه الذين قال زبيد لأبي الأعور السلمي ، انهم ضيوف في دمشق على يزيد !!

بل هو لا يبالي الا بذلك البُغض الغريب يغذّيه بدماء الابرياء ..

وكان صاحب الكوخ كهلاً ، ذا جبين جعّدته الحادثات وعـين واحدة تشبه عين النسر ، وشفتين صفراوين فياضتين بالابتسام .

فلما أبصر ضيفه ، خفق قلبه ، وقام في ذهنه انه سيرى الخير « على يديه » .

ووثب الى باب الكوخ يرحب به ويدعوه الى الدخول ، فقال كليب ولهجته لهجة الامراء الاشراف : أليس في هذا الكوخ فراش اضجع عليه .

ـ بلى ، وفيه كل ما يحتاج اليه الامراء مثل مولاي !

فقال : خذ هذا الدينار وأعدّ لنا ما نأكله .

فتناول الكهل الدينار وكاد يرقص له كما يرقص المجنون، ثم تغلل في دهاليزه يعدّ العشاء مما في كوخه من أصناف الطعام ، وقد جعل الدينار في يـده يلمسه بأصابعه الخمس وينظر الى وجهيه وهو يقول في نفسه : ليس هذا من دنانير الروم، حتى أعدّ أصناف طعامه .. فحملها والابتسامة لا تفارق شفتيه ثم تمتم قائـلاً : ألست يا مولاي من قواد الجيش الذي فتح دمشق ؟

قال : لم يفتح الجيش دمشق وحسب بل فتح الشام كلها وفلسطين !

ـ ولكن قل لي ، أأنت من القواد ؟

ـ انا ابن القائد الاكبر الذي يدعى أبا عبيدة !

ـ وكنت في فلسطين ؟ ـ أجل .

ـ وكيف خطر لك ان تجيء وحدك ولا جنود وراءك ؟

قال : الذي يجوب صحارى العرب لا يخاف المجيء وحده من فلسطين !

ـ ولكن الأيام أيام حرب .

ـ اجل ، وأنا لا يطيب لي غير هذه الايام أحمل فيها السيف لأفتح الاقطـار للعرب ! وجعل يأكل وهو ساكت، ولكنه كان ينظر الى الرجل نظرات الحذر، ولعله كان يتبين من خلال مظاهره الجافة استعداده للأمر الذي يفكر فيه .

نعم ، كان في صدر كليب سر رهيب يريد ان يفضي به اليه ، وكان واثقاً بان المال الذي سيجود عليه به يضمن له تنفيذ سرّه بالصورة التي يشاء .

أما الرجل ويدعى حنظلة فقد كان يهامس ديناره بالالفاظ العذبة ... ويعد نفسه بالحصول على سواه من هذا الجواد العربي .

رجلان من رجال الشر .. هذا يريد ان يسخر الآخر لغرض له ، وهذا يريد بوسائل الحيلة والدهاء ان يسلب رفيقه ماله ، والاثنان يتسابقان الى بلوغ الغاية .

وقد سادت السكينة والصمت في ذلك الكوخ .

على ان كليباً كان السابق الى اختراع وسيلته ، وجعل باختراعه يسبر غور الرجل فقال : انت وحدك في هذا الكوخ ؟

ـ نعم يا مولاي فليس لي اهل في هذه الناحية ولا عشيرة لي .

ـ ولمن كان الكوخ قبلك ؟ ـ لأبي ولجدي قبله .

ـ وليس لك اخوة وزوجة ؟

ـ لي أخوان في حوران وأخ ثالث يقيم بطرف البادية مع عشيرة بني وهب .

ـ وزوجتك ؟

ـ في دمشق مع بنيّ الاربعةوقد آثروا العيش فيها على البقاء في هذه الارض.

قال: مررت بهذه الاكواخ يوم ذهب الجيش الى فلسطين ولكني لم أسأل عن اصحابها وعما يصنعون ..

ـ نصنع مـــا تراه يا مولاي ، نطعم المسافرين ونعلف دوابهم فنستعين على الدهر بما يجودون علينا به .

وكان قد فرغ من أكله فقال : اني افكر في ارسال الجنود مندمشق لهـــدم هذه الاكواخ ... فاضطرب وقال : لماذا يا مولاي ؟

ـ لان الروم الذين يفرون من هذه النواحي يلجأون اليها اذا أكرههم القدر ، فتستقبلونهم كما تستقبلوننا ، وتأخذون مالهم كما تأخذون مـــال العرب دون ان تبالوا بالحرب القائمة بين الفريقين في كل مكان .

قال : لقد خرج الروم من دمشق كما تعلم ولم يبق منهم احد في هذا الاقليم .

– ومع ذلك فليس من الرأي ان تبقى اكواخكم لتعيشوا في أحضان الراحة وأبناء قومكم ينامون في الميادين وهم مستندون الى السيوف !!

قال : بنيت هذه الاكواخ في ايام بني غسان، ولم يعرض لها الروم، أفتريد يا مولاي ان يكون اولئك أعطف علينا من قومنا العرب ؟

– بل نريد ان تحملوا السيف كما يحمله اخوانكم وتخرجوا معهم فاتحين .

قال : اما انا فان لي عيناً واحدة لا استطيع معها ان اخوض المجال ..

فضحك قائلاً : ولكنك تستطيع ان ترى عدوك كما تراني الان ..

قال : ولم احمل السيف قط .. !

قال : لا اصدق ان في العرب رجلا لم يحمل سيفاً ،ومع ذلك فانت قادر على طعن رومي واحد بخنجرك وهذا يكفي ...

قال : استحلفك برأس ابيك الا تفعل فقد اموت يا مولاي عندما أرى الرجال يسقطون جثثاً مضرجة بالدماء .. !

فقال في نفسه : هذا جبان وقد بلغت غايتي منه ، ثم قال له : الا يطيب لك ان تحارب وانت بين يدي ؟

ـ لا يثبت الفارس في الحرب في مكان واحد يا مولاي وانا لا أحسن ركوب الخيل لأجاريك ..

– اذن خلقت لتعد الطعام للناس وتستلقي في كوخك حتى يغمض الموت عينيك .

– اجل خلقت لهذا كما ترى وانا راض بما قسم لي الله .. وقد هال حنظلة ان يفكر ابن القائد الاكبر ، في انتزاعه من كوخه فينتقل من هناء العيش الى مشقة الحرب ، وقد يخسر حياته في اول جولة .

وهو لا يجسر على ان يقابل محدثه بالجفاء ، وهو ابن الفاتح ، وسيد العرب في الشام !!

فجعل يستعطفه ويسترضيه .. ويصف له فقره وعجزه حتى انس اللين في عينيه . وحتى رأى كليب ان يجذبه اليه ، بنعومته ودهائه ، فقال : اذا انا

رضيت بان تبقى فـــلا ارضى بأن يبقى الآخرون ، وسأسأل ابي ان يجعلهم في الجيش الذاهب بعد ايام ، الى العراق ..

فغمرت وجهه مظاهر الفرح ، ونمت ابتسامته الوحشية عـــلى طمعه ولؤمه وتفكيره في الاستئثار بأموال الناس الذين يمرون بكوخه ..

ثم جثا عـلى ركبتيه عنـــد قدمي « سيد الشام » وهو يقول : أحلف بك يا مولاي اني سأكون لك عبداً ما بقيت بل سأجعل حياتي في يدك تسلبني اياها عندما تشاء !

فسكت كليب ويده على جبينه ، فقال : أأبقى يا مولاي ؟

قال : ستبقى .. ولكن خطر لي ان اعهد اليك في قضاء أمر ..

– قل يا مولاي . – اين السلاح الذي تخفيه في هذا الكوخ ؟

– عندي خنجران يا مولاي لا أملك سواهما .

قال : ستحتاج اليهما بعد ليلتين او ثلاث ليال أتريد ان تثبت لي انك اهــل لرضاي عنك ؟ – نعم وسيرى مولاي ان الموت لا يستطيع ان يبعدني عنه .

– اذن اقصُّ عليك الآن حكاية مجيئي من فلسطين على الصورة التي ترى .

– أتيت لتنقل انت بنفسك بشرى الظفر الى ابيك ..

- بل اتيت لامنع بعض الرجـــال من الوصول الى أبي !

– وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : في فلسطين عشيرة كبيرة من عشائر العراق ، رئيسها فتىً غرّ بعث به وبقومه قائد الجيش العراقي ليكونوا عوناً لجيش الشام . – نعم .

– ويظن هذا الفتى انه الآمر الناهي في عشيرته ، وليس للقواد رأي فيما يصنع .

– اي انه مجنون يا مولاي . – قد يكون مجنوناً بدليل استخفافه بي !

– وماذا فعل ؟

– أمرته بأن يغادر طبرية الى قيسارية فلم يصغِ اليَّ ومنع عشيرته من الذهاب على رغم حاجة الجيش اليها واليه . – وبعد ذلك .

– دعوته اليَّ وهممت بتأديبه ، ثم خفت ان تثور عشيرته ، ونحن في بــلادٍ

نقاتل أهلها ، ونفتح ثغورهـــا ومدنها ، فرأيت اخـيراً ان اطرده من فلسطين وابعث به الى حمص .

– وهذا ما لا تستطيع ان تفعله الا بأمر ابيك. أليس كذلك ؟

– بلى على أنه أحسّ أني قادم ، فكتب الى أبي كتاباً يسأله فيـه أن يأذن له في البقاء ويعتذر عن ذنبه ، وأنا أخشى أن يفعل أبي مـا لا يريد أن يفعله .

قال : لقد عرفت الآن ما يريد مولاي . قال : ماذا ؟

– يريد ان اسلب الرسول هذا الكتاب عندما يمرّ بي .

قال : دفع كتابه الى اربعة من الرجال بينهم فتى من أهله فلا نستطيع نحن الاثنين ان نسلبهم كتابه .. فبرقت عيناه قائلاً : نقتلهم ولا نبالي !

– وانت قادر على ذلك ؟

– اقتل الاربعة في لحظة واحدة اذا أذنت لي ؟

– بل نستعين على قتلهم وهم يغطون في النوم ..

– ومن قال لك انهم سيمرون بهذا الكوخ؟ – ليس لهم طريق غير هذا.

– وهم وراءك ؟ – سينتهون الى هذا المكان بعد ثلاث ليال كما قلت .

– وكيف نقتلهم يا مولاي ؟ قال : اين ينام ضيوفك ؟ ! ..

– على هذا السطح الذي تراه. واومأ الى مربع يشبه السطح الى جانب الكوخ ، قال : سأجلس مساء اليوم الثالث عند الباب وأنا اخفي وجهي بهذا الرداء ، فاذا اقبلوا أومأت اليك ، فتخرج اليهم ، فتأخذ دوابهم وتدعوهم الى قضاء الليل على سطحك ثم تعد لهم العشاء وتقوم على خدمتهم كما هي عادتك مـــع القوم .

– ثم ماذا ؟

– ثم تمر طائفة من الليل ويـــدب النعاس في الجفون فتستأذن في الدخول وانت تظهر انك ستلجأ الى فراشك . قال : لقد فهمت الآن كل شيء .

– ولكن احذر ان يدخل احدهم هذا الكوخ فيضيع الامل .

– ليدخلوا جميعهم فهم لايرون احداً.. انظر الى الموضع الذي تجلس فيه .

وقام فرفع بيديه باباً صغيراً مصنوعاً من القصب ، فظهر وراءه كوخ آخر لا

يتسع لأكثر من اثنين يسوده الظلام ، ولا تراه من الخارج العيون .

فقال كليب : أجل سألجأ الى هذا الموضع عندما يجيئون والويل لاحدهم اذا دخل اليه . وقضيا معظم الليل وهم يتحادثان ، وكليب يعده بالسعادة والغنى ، ثم ناما وهما مطمئنان ، وكل منهما يغني على ليلاه ..

٣٩

خرج كليب من طبرية كما عرفت، وهو لا يريد ان يسير على طريق الشاطىء.. مع انه كان خائفاً من زبيد ، وقد ملأ الذعر قلبه ، عندما رآه في فنــاء قصر ابي الاعور ، ولم يقل لأحد انه سيعود الى دمشق ثم ينتقل منها الى حمص .

أجل ، كانت مظاهره كلها مظاهر خوف ، وهو في طبرية ، ولكنه لم يخرج منها حتى اضمحل خوفه وخطر له خاطر فجائي يبعث الرعب الى الصدور .

أراد ان يمشي يومين ثم يكمن في احد الاكواخ ريثما يلحق به زبيد ورفاقه ، فينقضّ عليهم في ظلام الليل كما ينقضّ الذئب ، فيرضي حقده بضحية جديدة ، يقطر لها دماً ، قلب المنذر ابن عمه . ولا بدّ لزبيد من ان يمرّ بتلك الاكواخ .

وقد ساعده الحظ كما رأيت ، ووضع يده بيد حنظلة الصــالح ، الذي يطعم المسافرين ..

وكان قد عرف من ابي الاعور ، انه لا يأذن لزبيد في الخروج من طبرية ، الا بعد ان يمر يومــان على خروجه هو ، فمكث بذلك الكوخ ثلاثة ايام ، وشاءت الاقدار ان يعلم زبيد من غلام ابي الاعور ان كليباً سيسير الى حمص ، فتعجل في الرجوع بعد انقضاء اليومين، ليمرّ بدمشق ويلحق بعد ذلك بعدوّه ، وقد كره ان يسير في طريق الساحل، فهو لا يعرفها وقد يكون السير فيها كثير المشقات.

فلما انتهى مع رجاله الى كوخ حنظلة خرج الرجل يرحب بهم ويدعوهم الى النزول وكانت الشمس تحتجب وراء الافق ، وقد تعب القوم .

فقال له زبيد: وأين نبيت؟ — هنا يا مولاي حيث يبيت القواد والامراء!
قال : انزلوا فان في ابتسامة الرجل ما يدعونا الى النزول ..

وبينا هم يمشون الى ذلك السطح تراجع كليب يريدالدخول الىالكوخ الاصغر، فخيل الى زبيد ان في الداخل شخصاً آخر . فقال : أتقيم وحدك في هذا المكان ايها الرجل ؟ — اجل ، ولكن القوم يضيفونني كل مساء .

فقام في ذهنه ان في الكوخ زوجة صاحبه .

على ان حنظـــلة كان ينظر الى الداخل نظرات الحذر ، فلفت في ذلك نظر زبيد من حيث لا يعلم .. ولم يشأ الفتى الطائي ان يعيد سؤاله ، ولكنه كان قد بدأ يظن الظنون ..

وبعد ان أكل القوم، وانقضى الهزيـع الاول من الليل تظاهر حنظلة بالنعاس، ثم دخل ليعدّ خنجريه ..

فهامس زبيد رجاله قائلاً : ان في صدر هذا الرجل سراً من الاسرار .

قالوا : وهل علمك الطواف في بلاد الشام ان تقرأ ما في الصدور ؟

— بل علمني الحذر حتى لأحسب اغصان الشجر خناجر حادة وظلالها اشباحا.

ثم قال : تظاهروا بالنوم ولا تستسلموا اليه فقد نرى الليلة في هذا الكوخ ، ما لا نحب !! — وأي مظهر أملى عليك ما تقول ؟

— مظهر هذا الرجل صاحب الابتسامة الدائمة والكثير النظرات ..

— اذن هذه سيوفنا نجعلها في الأيدي !

— اجل ، وليظن صاحبنا بعد لحظة اننا مستغرقون في النوم ..

ثم جعلوا يصفون فلسطين ، ويتحدثون بصوت عالٍ يسمعه من في الداخل .. ثم استولت السكينة على الكوخ ومن فيه .. ولم يكن يسمع غير همس أنفـاس النـــائمين ..

* * *

٤٠

أجل ، أضرب باليدين .. وأضمن قتل رجلين .. وأنت ؟

– اما انا فسأقضي على الثالث بضربة واحدة وليستيقظ الرجل الرابع فنحن لا نبالي به ولا نخافه . قالها كليب لحنظلة ، وحمل خنجره ويداه ترتجفان .

وكان خنجرا الآخر يبرقان في يديه.. ثم صبرا لحظة ، حتى سمعا غطيط القوم. فمشيا في هدوء ومهل الى الباب ، ثم زحفا كما تزحف الأفعى حتى وقفا على رؤوس الجماعة وجعل كليب يتفرس في الوجوه ليتبين وجه زبيد وحنظلة ينتظر اشارته لينقض ، وهذا ما أوصاه به .. ثم ارتفعت الخناجر الثلاثة لتغمد في الصدور .. ولكن حدث في تلك اللحظة حادث رهيب لم يخطر لكليب .

فقد نهض الرجال الاربعة نهوض رجل واحد .. وامتدت الأيدي الى الجانبين .. فاهتزت الخناجر .. ثم سقطت على الارض ..

وارتفع صوت زبيد قائلاً : ويلكم اني أرى وجه كليب بن خالد.. أين سراج الكوخ .. أحضروه ..

فلما بانت الوجوه ، وثبت للطائي ان عدوه بين يديه وضع يسراه على عنقه كأنه يريد ان يخمد أنفاسه ، ثم جعل ينادي شقيقته هنداً وعيناه تذرفان الدموع. ولم يلبث حتى استوى جالساً على صدره ، وأخذ يخاطبه ويسأله عن ضحيته. ويهذي كما يهذي المحموم ، وكليب مستسلم ساكت لا يدافع عن نفسه ولا يقول كلمة كأنه جثة خرساء !!

وكان اثنان من الرجال قد قيّدا حنظلة ، وهو يسترحم ويستغيث ولا يسمعان له ، وزبيد لا يلتفت الى احد فقد طاب له ان يداعب فريسته ويندب شقيقته وهو على صدر الفتى المنكود الحظ .

وكان كالنمر الهائج لا يعلم في اي موضع ينشب براثنه ! حتى ملّ الكلام والجاني لا يجيب ..

فنهض ومدّ يده الى خنجره الساقط عند رأسه وهو لا يدري ماذا يصنع .

فتصدّى له احد الرجال وقال له : ماذا تصنع يا زبيد ؟
فقهقه قائلاً : اغمد خنجر الجاني في قلبه !! قال : اذكر امر عمر بن الخطاب.
قال : وهل نحمله حياً الى العراق ؟! اني والله لا أفعل ولو حملوني ميتاً .
قال : ستجعل امير المسلمين وقواده خصوماً لك .
– ما أبالي بما تقول بعد موت هند .
قال : احذر فاذا غضب عليك القوم خسرت الزهراء !
فضـــاق صدر الفتى ، وجذب كليباً بيديه الاثنتين وهو يقول : قل كلمة واحدة لأستلذّ الانتقام ويذهب ما بي من الألم !!
ولكن كليبا ترنح بين يدي زبيد كما يترنح السكران ثم هوى !!
فأقبل أحدهم يهزّه بقوة وعنف، ثم تراجع مذعوراً وتمتم قائلاً : لقد مات.! انـّا لله واليه راجعون !
فصحا زبيد من ثورته وقال : أتهزأ بي في مثل هذا الموقف ؟
قال : لا والله فالرجل قد مات منذ امتدت اليه الأيدي وقد كنت الآن تداعب جسداً لا روح فيه .
فأصيب الفتى بالذهول وجعل ينظر الى الجثة بعينين تائهتين ، والالفـاظ التي يقذف بها حلقه تعلق على شفتيه ، ثم قال لرجـــاله : لقد خفتم ان نقتل الرجل فيغضب ابن الخطـاب وقواد الاسلام .. ولكنه قد مات الآن ونحن لا نستطيع ان نكتمهم خبر موته . – وماذا تعني بقولك ؟
– أعني انهم سيظنون انه لم يمت حتف أنفه بل قتلنـــاه بالسيف ومع هذه الظنون التي ذكرت لا نسلم من الغضب .
قالوا : لقد نسيت ان رفيقه حيّ وهو سيعترف لأبي عبيـــدة الذي هو في حمص بجميع ما جرى .. قال : اجل نسيت ان هنالك جانياً آخر .. ما اسمك ايها الرجل ؟ فارتجف قائلاً : حنظلة .
ـ ومن سلح يـديك بالخنجرين لتقتل ضيوفك ؟؟
ـــ ابن القائد العام الذي قتله الخوف الآن !!

وقال ويلك واي قائد هذا ؟ — أبو عبيدة الذي ذكرتموه .

فتبادل القوم النظرات وجعلوا يقولون: كان كليباً ثم أمسى حيان بن زيد . ثم أصبح ابن قائد المسلمين !! ولو بقي حيا لسمى نفسه عمر بن الخطاب !!

وراح زبيد يقص عليه حكايته وحكاية اخته ثم قال : اما وقد عرفت الآن كل شيء فتهيأ للرحيل ! — الى اين يا مولاي ؟

الى حمص لتمثل بين يدي القائد ابي عبيدة وتروي له ما رأيت وسمعت وما خطر لك ولكليب . قال : وكوخي ؟

قال : ستعود الى كوخك ايها اللعين لتصيد الناس ! .. اجل ستعود اذا بقي في هذه الارض كوخ واحد من هذه الاكواخ التي يقتل اصحابها الابرياء .

فحاول ان يستغيث فاسكته قائلا : ورأس ابي زبيد الطائي لئن ارتفع لك صوت لأغرسنّ هذه الخناجر الثلاثة في صدرك ثم لأنزعها واغرسها حتى تلفظ روحك !! قال : سأفعل ما تأمرني به يا مولاي .

فقال لرجاله : احفروا في ارض الكوخ قبراً لكليب ..

وجعل ينظر الى الجثة من جديد وكان يرثي كليباً بقوله : لقد عرفت النمر وطيء موضع قبرك ايها النذل ولكنهما لم تعرفا موضع قبر هند التي هي ضحية حقدك ! . وأومأ الى الرجال بان يبدأوا الحفر .

ففعلوا ولم تمر ساعتان حتى رقد كليب بن خالد في كوخ حنظلة ، ورقد معه حيان بن زيد ، وابن أبي عبيدة ..

وتناوب القوم في ذلك الليل ، على حراسة اسيرهم ، ثم حملوه قبل ان يبزغ الفجر على راحلة احدهم ، بعد ان ودعوا بكآبة النفس ، ذلك البطل النمري العظيم الذي مشى وراء حسده وحقده ، ثم قتله الرعب ..

* * *

٤١

دخل زبيد وحده ، على عبادة بن الصامت في حمص ، وكان قد بلغه ان أبا عبيدة بعيد عن المدينة ، فلما ذكر اسمه ونسبه ، دعاه عبادة الى الجلوس،وقال: انك تطلب عبد الله بن الفهر التغلبي ومن معه أليس كذلك ؟ – بلى ايها الامير .

قال : انه هنا وسأدعوه . ثم أقبل عبد الله فقال : ماذا يا زبيد ؟

قال : لقد أظفرني الله بعدوي ! فصاح صيحة فرح وقال : واين هو ؟

ــ في كوخ أعد للصيد !! فقال عبادة : اذن رأيته في الصحراء .

ــ بل على الطريق بين فلسطين ودمشق .

ــ وماذا يصيد في تلك الناحية ؟

ــ يصيد الناس .. يصيد العرب الذين يجيئون من فلسطين ويذهبون من الشام .. ليقتلهم .. ويسلب الاموال .. ويعفّي الاثار !

قال : يفعل ذلك والجيش العربي يملك البلدين والجنود يروحون ويجيئون؟

ــ نعم ، ولولا العناية التي تمد يد العدل الى كل اثيم ، لكنت الآن ، انا ورفاقي الثلاثة تحت التراب ! ــ وكيف تركته ؟

ــ تركت جثته ايها الامير فهو نائم في كوخه ، الى الآبد !

فاسودّ جبين عبادة وقال : أقتلته يا ابن طيء ؟

فأراد زبيد ان يلمس غضب قواد المسلمين ، لكرامة اميرهم عمر بن الخطاب ، فقال : أجل ، وقد فكرت في حمل جثته الى حمص ، ثم الى العراق ، فيراها ابو زبيد ، ويطأ بنعله قاتل هند !

– ولكن امير المؤمنين يأمر بالقبض عليه ولو شاء لأمر بقتله .

– ان امير المؤمنين يأمر عماله وقواده بما تقول ولكنه لم يأمر العرب بذلك وليس للقواد ان يمنعوا عربياً من ان يطلب بدم اخته !!

قال : كان ذلك في ظلام الجاهلية ايها الفتى ونحن اليوم في نور الاسلام .

ــ ولكني لقيت قاتل هند ، فثارت نفسي فعمدت الى السيف !

قال : قلت الآن ان امير المؤمنين أمر قواده ولم يأمر جميع العرب. ـ نعم.
ـ وابوك ابو زبيد ، من القواد وقد ابلى البلاء الطيب في حرب العراق .
قال : لم يعرف ابي ان هنالك امرأ مثل هذا .
ـ اما ولده فقدعرف ذلك وكان عليه ان يعترف بوجود خليفة يطيعه الناس.
قال : اذا كان هنالك ذنب فسيغفره لي امير المؤمنين .
ـ لأمير المؤمنين ان يفعل ما يشاء عندما يراك ، اما نحن فلا نستطيع الا ان نفعل ما يأمرنا به . ـ هو يقول ان تقبضوا على كليب !
ـ ولكن كليباً قتله زبيد الطائي فنحن نقبض على زبيد هذا ، ونبعث به مقيداً الى المدينة قائلين لعمر : ما قدرنا ان نرسل اليك كليباً لانه قتل وهوذا قاتله !

قال : أتفعلها وانت ابن الصامت ، وخليفة ابي عبيـــدة في حمص ، وانا ابن طيء ؟ ! انك اذن تسعرها بيننا حرباً يؤخذ بها المذنب والبريء .
فابتسم قائلاً : لا تخوّف الجيش الذي أخضع الشرق بالحرب .. اني والله أفعلها وانت الآن اسير !! ـ ولا أستطيع الخروج من هذا المنزل ؟
ـ تخرج الى مكان آخر نعدّه لك، وتمكث به ريثما يجيء رفاقك منحوران.
ـ واذا خطر لي ان أخرج ؟ ـ أعمد الى القيد فأضعه في رجليك .
ـ وان كسرت قيدي ؟
ـ أعمد عندئذ الى السيف فأضرب عنقك ولو قتلت بعدها .. ان أمر امير المؤمنين يجب ان يطاع ، وهمّ بان ينادي بعض جنوده ، فقال زبيد :
ليبشر امير المؤمنين بالنصر في كل مكان .. ان اميراً رجاله مثل عبادة بن الصامت لا يغلب .. نعم ياعبادة ، يجب ان يطاع أمر الخليفة وقد أطعته !
ـ أطعته بقتل عدوك ! قال : يشهد الله اني لم اجرد عليه سيفاً ولم اسفك له دماً ..
ـ اذن قتله الرجال الذين معك ؟ ـ ويشهدالله ايضاً ان هؤلاء لم يفعلوا.
ـ وكيف تركته نائماً في الكوخ الى الآبد ؟

قال : كان شجاعاً ايها الامير بدليل انه لفظ روحه عندمـــا امتدت اليه أيدي الرجال .

ثم قال : مر غلمانك بأن يدعوا رفاقي الثلاثة وصاحب الكوخ .. فهم بالباب ينتظرون ان تأذن لهم . ففعل ودخل الاربعة ، فقـــال زبيد لحنظلة : حدّث الامير بما جرى .

فعقد الخوف لسانه وجعل يهمّ بالكلام ولا يستطيعه ، فقال عبادة : اشترِ حياتك بذكر ما تعرفه عن كليب .

قال : لم أكن أعلم من قبل انه يدعى كليباً بل خدعني بقوله انه ابن قـــائد الشام وانه ترك فلسطين ليخاطب أباه بأمر يتعلق بالجيش .

وجعل يصف نزوله عليه ويذكر ما حدثه به وعبادة ساكت حتى انتهى الى ذكر الخناجر وفكرة القتل ، فقال : لقد أصاب زبيد في قوله انكم تصيدون الناس،وانتم في تلك الاكواخ السود انك تحسن الطعن بخنجرك فخير لك ان تطعن أعداءك من ان تطعن قومك .. اجعلوه في الجيش والويل له اذا عمد الى الفرار . وأمر غلمانه بأن يخرجوه .

ثم قال للقوم : اما وقد مات الرجل من خوفه فلم يبق مـــا نكتبه الى امير المؤمنين والرأي في ذلك لقائد العراق .

وعندما ذكر العراق، ذكروا القادسية وما لقي بها الفرس منفشل قد يكون المقدمة لسقوط العرش الفارسي ، فقال عبادة : بقي الآن ان ينظر بعضكم في أمر هند ، ويلتحق البعض الآخر بالجيش العراقي .

فأجابه عبدالله قائلاً : لو قيل لنا ايها الامير ان هنداً في القسطنطينية بل في قصر هرقل ملك الروم لاقتحمنا عليه قصره وحملنـــاها الى العشيرة ، ولكن من نسأل عنها ، وهي قد سقطت في الفرات ، والحرب لم تترك فارسياً على شاطئيه، وليس بعد كربلاء مما يلي بلاد فارس عربي ؟ قال : لي كلمة أقولها فقد تسمعون لي . فقال زبيد : وقد يكون الرأي فيما تقول .

قال : لنفرض ان يد الله انقذت هنداً وانها على الشاطىء القريب ام هنالك

على شاطىء الخليج فلا بدّ لمنقذها من ان يعيدها الى اهلها او يخبرهم انها باقية .

– تريد ان تقول ان الصبر خير ما نلجأ اليه .

– بل أريد ان أقول ان السؤال عن هند ، يجب ان يبدأ من كربلاء وينتهي الى خليج فارس ، ثم يبــدأ من الخليج ، في الشاطىء الآخر وينتهي في كربلاء ، وهذا ما لا تستطيعون ان تفعلوه اليوم ، والحرب قائمة بيننا وبين الاعجام .

– وهل تظن ان الرجل الذي ينقذ هنداً يعيدها الى طيء ؟

– وماذا يصنع ؟ – يحتفظ بها لنفسه .

– اذن تخرج هي من بيته في ظلام الليل ، وقد تجد رجلاً صالحــاً يحملها الى العراق . – انه أمل نعلل النفس به ، ولكن لا نستطيــع السكوت عنده .

– وهل تشتري الموت لنفسك ، ولرجال العشائر الثلاث ، بطوافك في بلاد عدوك باحثاً عن اختك في منازل الفرس ؟!!

قال : خير لي ان أفعل فأموت من ان أقول لأبي وامي : لقد ذهبت هند ولن تعود ! – بل خير لأبيك وامك ان يعالجا بالصبر مصيبة واحدة من ان يعالجا مصيبتين ، ويبكيا ولدين ..

فقــال عبدالله : هذا هو الرأي فلنصبر ريثما تنتهي الحرب ، فان كانت هند باقية ولم يعدها الناس الى طيء ، أعادها الله عزّ وجلّ .

وكانت الحكمة في ذلك الرأي .. فقال زبيد : اني لا اطيق النظر الى والديّ وقد خسرا هنداً ، ومع ذلك فسننظر في الامر بعــد رجوع المنذر وزياد .. لقد طال مكثهما بحوران .

قال : انك رجعت من فلسطين ولم تمكث بها طويلاً لأنك رأيت كليباً ، اما هما فانهما الآن يطوفان في أرض حوران كلها باحثين عنه .

وبينا هم يتحدثون دخل رسول يحمل نبأ رجوع أبي عبيدة .

فقال عبادة : انه يريد الذهاب الى فلسطين ليشهد فتح بعض مدنها ويرى بعينه عدل العمّال وحرصهم ، في الأقاليم ، وقال للرسول : متى يصل الجيش ؟

ـ بعد يومين . وهل شهدت انت الفتح الاخير كله .

ـ نعم ونحن قادمون من منبج .

قال : فتحنا الشام وسنفتح فلسطين ، وهذا سلطان الروم في سوريا يكاد يزول ، الا بعض الشواطىء التي لم يتفرغ لها جيش الاسلام .

وأرسل غلمانه لينقلوا خبر قدوم ابي عبيدة الى حامية حمص، ثم جلس وكان يقول: ليستخلف ابوعبيدةسواي على المدينة فسأخرج انا الى الفتح بعد بضعةايام.

٤٢

لم يمكث ابو عبيدة بحمص غير بضعة أيام .

وكان قد بلغه ان ابن العاص يحاصر اجنادين ، وان فيها داهية من دهاة الروم كان عمرو قد كتب اليه عنه، فلما انتهى الىفلسطين ، كانت اجنادين قد سقطت، ولجأ بعض من فيها من الروم الى بيت المقدس ، كما مرّ .

ثم ضرب المسلمون حول بيت المقدس نطاقاً من الرجال ، وجاء ابو عبيدة وعمرو بن العاص ينصحان لأهلها بان يعقدوا لهم صلحاً ، مثل صلح اهل مدن الشام . والروم لا يرضون وقد طلبوا الى المسلمين ان يروهم اميرهم .

فدنا ابو عبيدة من السور وقال المسلمون : هذا اميرنا !

والروم يعنون ، اميرهم الاكبر عمر بن الخطاب ، الذي بلغتهم اخبار زهده وعدله ، وعظمة نفسه ، وهم لا يعرفونه ، فقالوا :

لا نسلّم مدينة بيت المقدس الى هذا الرجل .

فأروهم خالد بن الوليد ، فقالوا : وهذا ايضاً لا نسلمها اليه ، ولو حاصرتمونا عشرة أعوام وانما نسلمها الى من هو أعظم من هذين . ثم انتهى الأمر الى رضى الروم بالصلح ، على ان يعقده عمر بن الخطاب نفسه لا سواه .

فكتب أبوعبيدة، وكتب معظم الامراء الى عمر ، يسألونه المجيء ، للاستيلاء صلحاً على المدينة التي لا يستسلم اهلها الا اليه . وكانت بيت المقدس ، مدينة

جبارة لا تؤخذ عنوة الا اذا جرت عند اسوارها دماء الالوف من جنود العرب، فلما انتهت الكتب الى عمر ، دعا اركان دولته وقال لهم : اني راحل الى فلسطين لأفتح بيت المقدس وهذا ما يطلبه امراء الجند .

فقال علي بن ابي طالب : أين تخرج بنفسك ..

قال : اني ابادر بالجهاد قبل موت العباس « عمّ النبي » انكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر .

ثم خرج من المدينة، وقد استخلف عليها علياً، وهو على بعيرله عليه غرارتان في احداهما سويق « طحين » وفي الاخرى تمر ، وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد ، ومعه جماعة من الصحابة بينهم عبد الرحمان بن عوف .

وكان اذا نزلوا منزلاً لا يبرح به حتى يصلي الصبح ، ثم يأخذ الجفنة يملأهـــا سويقاً ويصف التمر حولها ويقرّب للمسلمين ويقول :

كلوا هنيئاً مريئاً فيأكل المسلمون ثم يرحل .

فما زال كذلك في مسيره حتى نزل أرض الشام .

فكتب الى امراء الاجناد يدعوهم الى اللقاء في موضع يقال له الجابية وأمرهم بان يستخلفوا على اعمالهم، فكان أول من لقيه يزيد بن ابي سفيان ، وابو عبيدة ، ثم خالد بن الوليد ، وهم على الخيول وعليهم الحرير والديباج .

فلما وقعت عليهم العين ، نزل وأخذ الحجارة وجعل يرميهم بها ويقول : ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم .. تستقبلوني في هذا الزيّ وانما شبعتم منذ سنتين !. فقالوا : انها « يلامعة » يا امير المؤمنين . « اليلامع » ما برق من السلاح .

ثم أقبل عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة فقبلا ركبته ، فضمّ كل واحد منهما اليه ، وجعل يسألهم جميعاً عن بيت المقدس ، فخبروه خبرها كما كتبوا اليه ، ووصفوا له اهلهـا الذين امتنعوا وراء الاسوار ، قائلين : انهم لا يفتحون مدينتهم حتى يروك . فدعا بفرسه فركبه فرآه يتوحى « رأى فيه عرجاً » .

فاتى ببرذون « الفرس غير الاصيل » فجعل يتجلجل به .

فنزل فضرب وجهه بردائه ثم قال: قبّحك الله لا اعلم من علمك هذه الخيلاء.

« ولم يركب برذوناً بعده » .

ثم امر ببعيره ، فاستوى راكباً ، وعليه جبة مرقعة ليس عليه غيرها ، وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية عصبه بها ، ولم يكن معه من الرجال ، غير ابي عبيدة يسير بين يديه ، حتى قرب من السور ووقف بازائـه ، فنظر اليه عميد الروم ، وهو على السور ، ثم صاح قائلاً : هذا والله امير المسلمين الذي يكون فتح بلادنا على يديه ! وخاطب أهل بيت المقدس يقول :

ويحكم ، انزلوا اليه واعقدوا معه الامان والذمة .

ففتح وجوههم الباب وخرجوا يسألونه العهد والميثاق .

فخرّ ذلـك الخليفة العظيم ، ساجداً على قشب بعيره ثم نزل اليهم وقال : ارجعوا الى مدينتكم ولكم العهد والذمة اذا دفعتم الجزية .

فرجع القوم ولم يغلقوا الأبواب ، ورجـع عمر الى المعسكر يبيت فيه ليلته ويباحث قواده بأمر الصلح ، فلما كان الغد ، قام فدخل اليها ومعه المسلمون ، وكتب لهم فيها ولأهل الرملة كتاب الصلح ، وهذا بعض ما جاء في ذلك الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى عبدالله ، عمر امير المؤمنين اهل بيت المقدس من الامان ، أعطاهم اماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبـانهم انـه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم ، وعليهم ان يعطوا الجزية كما يعطيها اهل مدن الشام ، ومن خرج من الروم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه ، ومن اقام منهم فهو آمن ايضاً وعليه ما على الناس من الجزية ، ومن احبّ من اهل البلد أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم فانهم آمنون على انفسهم وبيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا مأمنهم » .

« وعلى ما في هـذا الكتاب ، عهدالله وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمـة المؤمنين ، اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية » .

شهد على ذلك : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن ابي سفيان » .

وبعــــد ان تمّ الصلح ، جعل ارض فلسطين قسمين ، وولىّ عليهما رجلين ، علقمة بن حكيم على الرملة يتبعه نصف فلسطين ، وعلقمة بن مجزّز على بيت المقدس يتبعه النصف الآخر ، وجعل لكل واحد منهما السلاح والجند .

ثم كشف عن الصخرة وامر بناء المسجد عليها ولم يمكث بفلسطين غير عشرة ايام ، رجع بعدها الى المدينة .

قال بعض المؤرخين ، ان فتح بيت المقدس كان في العام السادس عشر للهجرة ، والصحيح انه كان في العام الخامس عشر .

اقبل المنذر وزياد ومن معهما الى حمص ، وهم يتعثرون بالفشل .

وقد كرهت نفس المنذر هـــذا الطواف غير المثمر ، وخطر له ان يعود الى العراق، ليغوص في ذلك البحر العجّاج الذي تتلاطم صفوفه ، وسيوفه، وافياله ! فقد يفاجئه الموت فيه ، فيستريح مما يعانيه ، وذلك ما خطر لعبد الله بن الفهر .

اما زبيد فكان بين أمرين ، اما ان يعود الى طيء حامــــلاً لوالديه الخيبة وضياع الرجاء ، فيقضي والداه العمر كله بالنوح والبكاء ، واما ان يمعن في طلب هند ، على الشاطئين وفي بلاد الفرس نفسها، فيذهب ضحية امعانه ، ويخلق لطيء مصيبتين ، تتفطر لهما القلوب ولو كانت من الفولاذ ..

فلما تلاقى القوم في حمص ، فاجأ زبيد المنذر وزياداً بقوله : لقـــد وجدنا كليباً وانتهى الأمر !!

فجعل المنذر يتفرس في وجهه وهو لا يصدق مــــا يسمع ثم قال : أخيبةً ومزاحاً يا زبيد ؟

فقال عبد الله : لا والله فقد وجده كما قال . ــ وهل رأيته انت ؟

ــ لا !! لم أره ولن تراه ! ــ واين هو ؟

ــ في موضع لا تصل اليه فيه الايدي ، ولا تراه العيون !

ــ قال : جعله امير حمص في جواره ! ــ لم يبصر له وجهاً امير حمص !

ــ اذن هو في دمشق، في ظل يزيد. ــ بل هو في ظل امير اعظم ممن ذكرت.

قال : ويحه وهل امسى جاراً لابن الخطاب امير المسلمين ؟!

فهزّ عبد الله رأسه قائلاً : قل انه امسى جاراً لله عز وجلّ . قال : قتلته يا زبيد ؟ ـ أجل ، وماذا كنت تصنع انت لو وجدته ؟

ـ كنت أحمله حيا حتى يضربه كل واحد منكم ضربة .

قال : لقد حاولت ان افعل ذلك فصرعه الخوف .

وحدّثه بامره فقال : ولكني اريد ان احفر قبره وألمس جثته بيدي ؟

ـ انك اذن تريد ان تلمس جسداً دبّ فيه البلى .

ـ نعم ، وقد احمل قطعة من ذلك الجسد لأقذف بها الى الفرات ، على جسر كربلاء فأجهش زبيد وزياد بالبكاء، واخفى المنذر وجهه بيديه وتفجرت دموعه.

ثم رفع رأسه قائلاً : أتقسم لي انك وضعته بيدك ، في حفرته ؟

ـ أقسم وهؤلاء الرجال يشهدون .. وحنظلة في حمص يقص عليك حكاية الامير العربي ، ابن أبي عبيدة الذي شرفه بزيارته .

فقال يخاطب كليباً : حسبك يا ابن العم ان الله انقذك بالموت من أيدي اعدائك ثم قال وماذا تصنعون الآن ؟

فقال عبد الله : اما الآن فلنا ان نختار، اما الرجوع الى العراق الذي تركناه منذ أشهر ، واما ان نطلب هنداً على الشاطئين ، في وقت واحد ، حتى ننتهي الى خليج فارس ، اذا بقينا احياء . ـ وعلى ماذا عول زبيد ؟

فأجابه الفتى قائلاً : لا تسألني عن هذا فلي في كل ساعة رأي وانا كالسكران الذي أفقدته الخمر الرشد .. وانت ؟

فأطرق المنذر متردداً في جوابه .. كان يخاف ان يظهر رغبته في الرجوع فيظن أخوا هند انه لا وفاء له، وانه يخشى، اذا هو طالب هنداً على ضفتي الفرات، ان يقتله الفرس مع انه كان قد عوّل على العودة ليخوض مجال الحرب ، وطال اطراقه وهو ساكت ، فقال عبدالله : لقد مرّت الاشهر ونحن نطلب فتىً حياً يروح ويجيء على سطح هذه الارض حتى وجدناه ، أفلا تظنون انه يمرّ عام كامل ونحن نبحث عن هند، ولا نعلم أأسيرة هي في يد أحدهم ام حملها الفرات الى البحر؟

فقال المنذر : الرأي في ذلك رأي زبيد وزياد فأنا أتبعها الى الموت ولا ابالي.

فقال زياد : أما انا فلي رأي لا أحيد عنه . ـ وما هو ؟
ـ هو انه خير لنا ان نرجع فيتعزّى ابي وامي بان لهما ولدين غير هند ، من ان نموت جميعاً فيذهب العزاء ، وتخسر طيء كل شيء .
فقال عبدالله : الى العراق . وردّد الرجال الثمانية قوله : الى العراق .
ولكن الفتيان الثلاثة لم يقولوا كلمة ، وهذا معناه انهم سيعودون .
وبينا هم كذلك ، دخل غلام عبادة يدعوهم الى مجلس مولاه ، فذهبوا ، وهم يظنون ان عبادة بلغه خبر وصول المنذر وزياد فأراد ان يراهما .
فلما دخلوا ، رأوا فتىً عربياً قائماً عند الباب ، وبيد عبادة رسالة ، فقال زبيد : هذا أخي زياد وهذا المنذر امير النمر .
فابتسم للفتيين ودعاهم جميعهم الى الجلوس ثم قال : الرسالة التي ترونها بيدي ، بعث بها سعد بن أبي وقاص الى ابي عبيدة يسأله فيها ان يأمر رجاله بان يساعدوا هذا الرسول في البحث عن عبدالله بن الفهر التغلبي ورفاقه ... ثم قال للرسول : هذا عبدالله ، وهؤلاء رفاقه لم تبتلعهم أرض الشام !
فأشرقت وجوه القوم لرسالة سعد ، واستأذن زياد عبادة فقال لحاملها : أتعرف في جيش العراق رجلاً يدعى ابا زبيد الطائي .
قال : أعرفه ، ولولا ابو زبيد لما وجّه سعد رسله الى الاقطار .
ـ وتعرف اهل بيته ؟
ـ وأعرف زوجته وكبشة والزهراء وقد رأيتهم جميعهم قبل سفري ، وكانوا يبكون . فقال عبادة : يظهر ان القوم في العراق لا يعلمون أين انتم .
قال : لم نكتب اليهم لاننا كرهنا ان نفعل ولا نذكر هنداً ..
فقال الفتى : ولكن ابا زبيد عرف اخيراً انكم في الشام .
ـ ومن خبّره بذلك ؟ ـ ابن عم المثنى بن حارثة ويدعى عبد الرحمن .
فقال الرجلان اللذان حملا كتاب عبدالله من تدمر : أجل ، ان عبد الرحمن الشيباني هو الذي رافقنا الى المدينة ، وسأل امير المؤمنين باسم المثنى ، ان يرسل امره الى عماله ، بشأن كليب . قال عبادة : وأين ذهبت رسل سعد ؟

ـ الى الحجاز ونجد واليمن والشام .   ـ وهل مررت بدمشق ؟

ـ نعم ومنها عرفت ان القوم في حمص ، ثم قال :

سمعت عبد الرحمن وأبا زبيد يذكران رجلاً يقال له كليب انتم تبحثون عنه ، فهل وجدتموه ؟

فقال زبيد : أجل وقد انتهى امره فقل لأبي زبيد اذا رأيته قبل ان نراه : ان الرجل قد قتل .

فقال عبدالله عندئذ : سنرى ابا زبيد يوم يراه هو فنحن راجعون الى العراق ومن الجنون ان نطلب هنداً في ارض الفرس ، وقال عبادة مثل قوله .

فلم يستطع الفتى الا ان يسلم بالرجوع ، خوفاً من ان تخسره طيء وتخسر اخاه كما خسرت اختها ، وقد رأى المنذر ، ان اقتحام الصفوف في ساحات الوغى خير ما يلجأ اليه ، فقد ينقذه الموت مما هو فيه ، ولم يبق الا ان يظهر زياد رغبته في الرجوع ، وكان قد تردد في الامر ثم لم يلبث حتى فعل . ولكن الصدور كانت تحمل مع فكرة الرجوع الهم المضني والكآبة الدائمة .

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع